المركز القومى للترجمة

كارولين جوتييه كورخان

العلاقات المصرية الفرنسية فى عهد محمد على
1805 - 1849



2163

ترجمة: نانيس حسن عبد الوهاب

مراجعة وتقديم: مجدى عبد الحافظ



يقتفي هذا الكتاب أثر محمد علي، باني مصر الحديثة، في فترة حياته الأولى وشبابه مرورا باعتلائه لولاية مصر في عام 1805م، وحتى وفاته في عام 1849 م.

ويركز الكتاب على علاقات محمد علي الدبلوماسية بفرنسا، بوصفه اللاعب الدولي المؤثر في العلاقات الدولية لهذه الحقبة، حيث يبرز الكتاب مدى حرصه عبر تاريخه الطويل في السلطة على ترسيخ علاقاته مع حكام فرنسا: الإمبراطور نابليون الأول، والملوك لويس الثامن عشر، وشارل العاشر، ولويس فيليب.

وقد اعتمدت المؤلفة - كارولين كورخان - على المصادر والمراجع والوثائق الفرنسية، الأمر الذي يمكنه أن يعطي رؤية مغايرة لتاريخنا من خلال هذه الزاوية من النظر غير المتوفرة لدى باحثينا ومؤرخينا من الشباب.

حاولت المؤلفة - أيضا- أن تلقي الضوء على دور الخبراء والعلماء والعسكريين الفرنسيين الذين استعان بهم محمد علي في بناء الدولة الحديثة في مصر.

تصميم الغلاف: نسرين كشك

العلاقات المصرية الفرنسية
فى عهد محمد علىّ
1849 - 1805

قصة فريدة لنابليون الشرق

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2163
- العلاقات المصرية الفرنسية فى عهد محمد على (١٨٠٥- ١٨٤٩): قصة فريدة لنابليون الشرق
- كارولين جوتييه كورخان
- نانيس حسن عبد الوهاب
- مجدى عبد الحافظ
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

Mehemet Ali et la France 1805-1849
Par: Caroline Gaultier-Kurhan
Publié par: Maisonneuve & Larose

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

العلاقات المصرية الفرنسية
فى عهد محمد على
1805 – 1849

قصة فريدة لنابليون الشرق

تأليــــف: كاروليــن جوتييــه كورخــان
ترجمـــة: نــانيس حســن عبــد الوهــاب
مراجعــة وتقــديم: مجــدى عبــد الحافــظ



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كارولين، جوتييه كورخان
العلاقات المصرية الفرنسية فى عهد محمد علـــى
(١٨٠٥ - ١٨٤٩)، تأليف: كارولين جوتييه كورخـــان،
ترجمة: نانيس حسن عبد الوهاب، مراجعة وتقــديم:
مجدى عبد الحافظ
ط ١، القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥
٤٠٠ ص، ٢٤ سم
١ - مصر - العلاقات الخارجية - فرنسا
٢ - مصر - تاريخ - العصر الحديث - عصر محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٩)
٣- محمد على باشا - محمد على باشا ابن إبراهيم أغـــا / ١٧٧٠ - ١٨٤٩
(أ) عبد الوهاب ، نانيس حسن (مترجمة)
(ب) عبد الحافظ ، مجدى (مراجع ومقدم)
(ب) العنوان ٣٢٧,٦٢٠

رقم الإيداع ٢٠٤٣٥ / ٢٠١٤
الترقيم الدولى: I.S.B.N- 978- 977- 718 -906 - 4

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تصدير

يسرنى أن أصدِّر للقارئ العربى هذا الكتاب الذى يقتفى أثر محمد على، بانى مصر الحديثة، فى فترة عن حياته غير معروفة لدى المؤرخين، وهى فترة حياته الأولى وشبابه، مرورا باعتلائه لولاية مصر فى 1805 وحتى وفاته فى 1849، كما يركز الكتاب على علاقات الرجل الدبلوماسية بفرنسا، التى لعبت دورًا مؤثرًا فى العلاقات الدولية لهذه الحقبة.

والكتاب من تأليف كارولين جوتييه كورخان، الباحثة المتخصصة فى التاريخ المصرى الحديث، التى نشرت حوله حتى الآن بالفرنسية أكثر من أربعة كتب، كان أحدها بالاشتراك مع كاتب هذه السطور، ولا تزال تعد المزيد منها. ولعل أهمية ما تكتبه الباحثة يكمن فى اعتمادها على المصادر والمراجع والوثائق الفرنسية، الأمر الذى يعطى رؤية مغايرة لتاريخنا من خلال هذه الزاوية غير المتوفرة لدى باحثينا ومؤرخينا من الشباب.

ومع أن العنوان الأصلى للكتاب هو "محمد على وفرنسا 1805-1849" مع عنوان فرعى "القصة الفريدة لنابليون الشرق"، فإننا - أى المراجع والمترجمة- آثرنا أن نعطيه عنوانا آخر يصب مباشرة فى الموضوع الأساسى لهذا الكتاب، ألا وهو: علاقات محمد على بفرنسا. ومع أن "محمد علي" تكتب بالعربية حروفها المعروفة نفسها، فإن الباحثة تكتبها كما تكتب عادة فى اللغة

التركية، أى "مهمت" وليس محمد(*)، ويعود هذا فى الأساس إلى قناعة الباحثة فى أن محمد على كان عثمانيا تركيا حتى النخاع، وظل كذلك حتى وفاته. ومن هذا المنطلق ترفض الباحثة أن تكون حركة محمد على – التى اعتبرتها- حركة ثورية ضد الدولة العثمانية، قد نحت نحو الاستقلال أو الانفصال عن الدولة العليَّة فى الأستانة، ولكنها -حسب رأيها- كانت حركة إصلاح وتصحيح لمسار الإمبراطورية العثمانية ومن داخلها وعلى يد أحد أبنائها.

ولعل استخدام الباحثة لتعبير "نابليون" الشرق بوصفه صفة أطلقتها على محمد على، وذلك لتصيغ به عنوانها الفرعى، هو فى حد ذاته استعارة تعبير "إدوارد جوان نفسه: *Edouard Gouin*"، وهو أحد الكتاب الفرنسيين المعاصرين لمحمد على، وهو فى الوقت نفسه تعبير، ربما يكون معدلا أو مأخوذا من تعبير "بونابرت أفريقيا" وهو الذى أطلقه أحد أهم معاونى محمد على نفسه، والأقرب إلى قلب مشروعه الحداثى؛ إذ قاد مفاوضات محمد على مع التجار الأوربيين، وكلف مرارًا بإحضار متخصصين من أوربا فى المجالات الصناعية والتكنولوجية لتوظيفهم لدى حكومة الباشا، وهو الأرمنى باغوص بك. لعل هذا الاستخدام أيضا، يعكس لدى الباحثة قناعة أخرى، أخذت تماهى فيها بين إنجازات القائد العسكرى والإمبراطور فيما بعد نابليون بونابرت غربا، وبين ما قام به محمد على من إنجازات على أرض مصر شرقا.

(*) لا يطلق فى اللغة التركية اسم محمد إلا على النبى محمد (ﷺ) فحسب، رغبة فى توقير الاسم والحفاظ عليه من الامتهان، ومن هنا جاء تحريف الاسم لمهمت، لمن يريد من الأتراك أن يحمل اسم الرسول.

تبرز الباحثة فى كتابها مدى حرص محمد على، عبر تاريخه الطويل فى السلطة، على ترسيخ علاقاته مع حكام فرنسا (الإمبراطور نابليون الأول والملوك لويس الثامن عشر وشارل العاشر ولويس- فيليب) وهم الذين تعاقبوا على حكمها خلال حكمه لمصر، لتصل فى توصيفها لهذا التاريخ المشترك ولطبيعة هذه العلاقات المتميزة، إلى الدرجة التى تصفها "بالمثالية" أو الجديرة بالاحتذاء بين البلدين، خاصة، وأنه -انطلاقا من هذه العلاقة المتميزة كما ترى- تأسس طيلة سنوات حكم خلفائه من هذه العائلة العلوية الحاكمة، ما أمكنها أن تطلق عليه فى الواقع مجتمعا فرانكفونيا ذا بريق خاص. والباحثة هنا تحتفى إلى أقصى حد باهتمام الأسرة العلوية عبر تاريخها الطويل باللغة الفرنسية، والتى عدَّتها لغة التواصل داخل العائلة الحاكمة، إضافة إلى استخدامها أيضا من قبل الطبقة البرجوازية باعتبارها لغة الثقافة من جهة، ومن جهة أخرى عدت اللغة الفرنسية شكلا من أشكال معارضة الاحتلال الإنجليزى، وبخاصة عقب عزل الخديو إسماعيل عام 1879.

وتحدد الباحثة خطتها فى تقديم رؤية جديدة لهذه العلاقات، تستبعد منها الرؤى التقليدية التى تمثلت فى: إما تقديم رؤية غير متوازنة لطبيعة هذه العلاقات، وإما أن الباشا قد اختار دائما التحالف مع الفرنسيين دون حسابات مسبقة. وتؤكد الباحثة أنه، على عكس ما كان يعتقد، فإن علاقات الباشا بفرنسا تخللها كثير من المنغصات والترددات وحتى التأزمات العابرة أحيانا، وذلك مهما حاولت الكتابات الرسمية عن الباشا، والتى رعاها محمد على نفسه وخلفاؤه من بعده، وكتبها فرنسيون أو غير فرنسيين، مهما حاولت أن تخفف

مما حدث، خلاصة القول إذن؛ إنه مهما حاولت هذه الكتابات - فى رأى الباحثة- أن تختار هذا المنحى الرسمى المعروف وتروّج له، وهو المنحى المشبع بحكايات ملحمية عن الباشا الذى يرونه وقد دارت فى ظله علاقات مصرية فرنسية لم تُشبها شائبة، فستظل رؤية غير علمية، تقتضى المراجعة على ضوء الوثائق والمراجع الجديدة، وهو التحدى الذى حاولت الباحثة من جانبها اختباره.

حاولت الباحثة أيضا أن تلقى بالضوء، معتمدة على الوثائق الفرنسية، على دور الخبراء والعلماء والعسكريين الفرنسيين الذين خدموا محمد على فى بناء الدولة الحديثة فى مصر، فترى أنه بسقوط نابليون الأول (بونابرت)، جذب محمد على هؤلاء المتخصصين الذين عملوا مع بونابرت، وكانوا يحنون إلى إمبراطوريته، إلى مصر، فجاء أغلبهم بشكل شخصى وعملوا فى خدمة الباشا الذى رأوا فيه تجسيدا حيا، ووارثا لأفكار بونابرت فى الشرق، فأصبحوا موظفيه فى شتى المجالات والتخصصات، حيث استفاد الباشا بخبراتهم وعلمهم، وبفضلهم إلى جانب عناصر أخرى - ترى الباحثة - استطاع نابليون الشرق (محمد على) أن يؤسس الدولة الحديثة.

ويتكون الكتاب من سبعة وعشرين فصلا، إضافة إلى المقدمة والملاحق، حيث تستهل الباحثة كتابها بتقديم صورة بانورامية عن طبيعة العلاقات المصرية الفرنسية منذ القرن السادس عشرالميلادى وحتى الحملة الفرنسية على مصر فى 1798، ودور أوائل القناصل الفرنسيين الذين وصلوا مصر قبل وأثناء اعتلاء محمد على لباشوية البلاد، ووصفهم لهذه المرحلة المضطربة من

تاريخ مصر. وعلى مساحة عدد من الفصول، تحاول أن تضع الباحثة سيرة محمد على، على المحك لتغربل ما ينتمى فيها للحقيقة وما ينتمي للأسطورة، محاولة في الوقت نفسه عقد مقارنة بين الباشا، ونابليون بونابرت، حيث اعتمد كلاهما على حرس شخصى من المماليك، واستخدم كلاهما الرجال أنفسهم من أمثال: كلوت بك، وسليمان باشا، ودى سيريزى، وباسكال كوست وغيرهم.. ولا تستثنى الباحثة أيًا من جوانب حياة الباشا، فتتحدث عن عائلته وعن حياته المنزلية، وكذا المناسبات المهمة فى حياته والمرتبطة بفرنسا مثل ما دار بينه وبين عالم المصريات الذى فك رموز الكتابة الهيروغليفية شامبليون، واستعانته بجهود السان سيمونيين، وكذا قصة الزرافة التى لاقت استحساناً رسمياً وشعبياً فرنسياً غير مسبوق، وكانت هدية الباشا إلى الملك شارل العاشر فى 1826، والمسلة التى أهداها إلى الملك لويس الخامس عشر فى 1830، وحرب المورة التى شارك فيها الباشا لحساب الباب العالى، والمسألة الجزائرية، حيث طلب من الباشا غزو الجزائر لحساب فرنسا، ورفضه ذلك، والحملة على سوريا، والبعثات الدراسية التى أرسلها الباشا لفرنسا، بما فيها بعثة الأنجال، وزيارات الأمراء لفرنسا ونزولهم ضيوفاً على أقرانهم من الأمراء الفرنسيين، حتى سنوات الباشا الأخيرة. كل هذه الموضوعات وأكثر تهتم بها الباحثة مدعمة لوجهة نظرها بالوثائق والمراجع الفرنسية فى الغالب الأعم.

ويبقى الحديث فى هذه الطبعة العربية عن صورة الغلاف، والتى ستنفرد بها هذه الطبعة وتنشر هنا لأول مرة، وهى عبارة عن صورة (بورتريه) نادرة لمحمد على ممتطياً حصاناً، وهى عمل نادر نفذه فى عام 1845، الفنان

البلجيكى "هندريكس: *Hendricks*" وهو مصور ونحات اشتهر بالحفر على المعادن وبخاصة النحاس. كنا نسمع عن وجود هذا العمل مصورا على لوحة ضمن مجموعة الأمير محمد على توفيق، من خلال كتابات جاستون فيت، لكن دون أن نراه، حتى وقعت الباحثة بطريق المصادفة فى أحد الأسواق القديمة للأنتيكات فى باريس، وهو السوق السنوى للأنتيكات بالباستيل، وقعت على أصل هذا العمل، الذى كان الفنان قد نفذه على النحاس، وذلك لدى تاجر بلجيكى من باعة السوق، وكان يجهل تماما شخصية ممتطى الحصان، حتى اشترته الباحثة.

وفى ختام هذا التصدير، لا يفوتنى توجيه الشكر للباحثة التى تعاونت منذ البداية فى منحنا حقوق الملكية الفكرية، مرورا بتعاونها فى إبداء الرأى فى بعض مراجعات الكتاب التى قمت بها، وصولا إلى منح المركز القومى للترجمة ودون حقوق استخدام لوحة هندريكس التى رسمها لمحمد على ممتطيا حصانه، بأن تستخدم وتنشر للمرة الأولى على غلاف الطبعة العربية للكتاب. كما أشكر المترجمة التى بحثت ودققت وشرحت كل ما يمكن أن يكون غائبا أو ملتبسا أو غير معروف عند القارئ العربى، كما أشكر التزامها بكل التعديلات والتفصيلات التى طلبناها على النسخة الأولى من الترجمة التى قدمتها على النص، حيث قامت بعمل التعديلات بكل عناية واهتمام ومثابرة، وهو ما يؤكد على المستوى المهنى العالى الذى وصلت إليه، مع أمنياتى لها بالتوفيق الدائم.

د/ مجدى عبد الحافظ

تقديم المراجع

ما من أحد ينكر جهود محمد على، مؤسس الأسرة العلوية التى حكمت مصر، منذ اعتلائه للحكم على يد المصريين وبرضاهم فى عام 1805، وحتى وفاته فى 1849؛ إذ سارت هذه الجهود على مستويات متعددة، وداخل مسارات ومجالات مختلفة، حاولت العمل على وضع مصر على أعتاب الدولة الحديثة، التى أخذت بنموذج التقدم الغربى فى القرن التاسع عشر. إن انشغال محمد على بإقامة الجسور وحفر الترع وبناء المصانع فى طول مصر وعرضها، كان إيمانا منه بالنموذج الغربى الحديث الذى أخذ فى تقليده والنقل منه، الأمر الذى لم يكن لينجح إلا بفتح المجال أمام مصر لتنفتح على العالم الغربى، وهى فى هذه المرة واعية بتفوق هذا الغرب ووصوله إلى آفاق بعيدة فى التطور التقنى والتقدم الحضارى. وفهم محمد على أن تقدم مصر وتحضرها بهذا المعنى الذى أراده لا يمكن أن يتم بانغلاق مصر على ذاتها أو بانكفائها على تراثها القديم، ومن هنا نشط الانفتاح على الغرب من خلال البعثات التى أرسلها من الطلاب المصريين والمتمصرين، ومن خلال جلبه للخبراء والمختصين فى شتى المجالات العلمية، ليقوموا بإنشاء المدارس والمستشفيات والمصانع والجسور، وشق الترع، ويشرفون على تكوين جيش قادر حديث وقوى، ويعدون جيلا من المصريين قادرا على الاستمرار فى هذا الخط الحداثى غير المسبوق وحمل الراية بعدهم.

وما سقناه، ورغم وضوحه الظاهر، من خلال الوثائق وما هو مكتوب عن الرجل، أو أكثر من ذلك من خلال ما تركه من آثار مادية تدل على

جهوده ومشاريعه إلا أن نظرة على تاريخ الرجل تجعلنا نتوقف والدهشة تملؤنا وتساورنا أسئلة عديدة؛ وذلك بفعل المعالجات والمقاربات المتضاربة التى ساقها المؤرخون والدارسون لسيرته وحياته وإنجازاته. وإن كان ما يخفف من الدهشة أن نعترف بأن هذه حال معظم الزعماء والقادة فى العالم عندما يكتب تاريخهم من خلال مؤرخى السلطان أو عن طريق خصومه، بحيث نجد التناقض والنقيض هما العملة الرائجة فى مثل هذه الكتابات الموجهة، والتى تخفى وراءها مواقف مؤيدة أو معارضة لهذا الزعيم أو ذاك القائد، وهو وضع طبيعى تعوّدنا عليه فى تاريخ الملوك والأمراء. وبطبيعة الحال فالمتوقع ألا تشذ الكتابة التاريخية عن محمد على عن مثل هذا الأمر، لكنه فى حالة محمد على يمكن أن نضيف إلى ما سبق جملة عوامل إضافية أسهمت لحد كبير فى اتساع الهوة بين المعالجات المختلفة لتاريخ وأعمال الرجل بعضها ذاتى يعود لشخصيته ذاتها، والبعض الآخر موضوعى يعود إلى الظروف الموضوعية التى أحاطت به فى عصره، أو تلك الظروف التى جاءت بعد وفاته ولا يسأل عنها:

(1) العوامل الذاتية

- محمد على رجل الميديا بامتياز

كان محمد على بفطرته البسيطة يدرك أهمية الإعلام والدعاية لشخصه، قبل أن يكون هذا دأب رجالات السياسة المعاصرين اليوم، إذ سبق عصره فى هذا المضمار، عندما فهم قيمة هذا الأمر الذى خبره وجربه عند وصوله لمصر

لأول مرة ضمن القوات العثمانية التى أرسلها السلطان سليم الثالث، لدحر قوات الحملة الفرنسية. كان محمد على وقتها على رأس قوة ألبانية رست فى ميناء أبى قير عام 1799. وعقب خروج الفرنسيين بعد فشل حملتهم على مصر ضبط محمد على سلوكه وسلوك قوته فى التصرف تجاه الأهالى، وذاع صيته باعتباره قائدًا يتسم بالقوة والحسم والحزم، ولا يتهاون فى التصدى للظلم والبطش الممارس على الأهالى من قبل المماليك والجنود العثمانيين، وحتى لو جاء هذا الظلم من أفراد كتيبته. انتشر هذا الأمر وذاع لدى العامة، ولا نستبعد أن يكون محمد على نفسه حرص على أن تصل هذه السمعة الطيبة إلى كل مكان على أرض المحروسة، بل وقام بالتعبئة وبث الدعاية لها. هذا وقد جنى محمد على ثمار هذا الزرع، عندما لجأ إليه الأهالى فى أكثر من مرة يطلبون منه مد يد العون، وتقديم المساعدة لهم فى وقف الظلم والتعدى على حقوقهم، لم يكن يتخلف عن هذا الأمر الذى جلب له من السمعة الطيبة والمجد الشخصى الكثير. ففى البداية فرض الأهالى من المشايخ والتجار تعيين محمد على نائبًا للوالى، على الوالى العثمانى نفسه، قبل أن يفرضوه فيما بعد واليا عليهم بشروطهم التى ارتضوها أثناء ثورتهم فى 13 مايو 1805، متحدِّين خورشيد باشا، والى السلطان الذى عُزل بمعرفتهم لأول مرة فى التاريخ المصرى، عندما استطاعوا تطوير الفقه الإسلامى بما يحفظ لهم كرامتهم ويشركهم لأول مرة فى اختيار ولاتهم بمحض إرادتهم، فقرروا أن الطاعة لأولى الأمر لا تجوز عندما يتجاوزون الحدود، فاصطفوا معا فى قرابة الأربعين ألف نفس، كما تذكر المصادر المعاصرة، لهذا الحدث غير المسبوق فى تاريخ مصر، وكان عدد

السكان لا يتجاوز الملايين الثلاثة بعد(*)، فإذا بهم يحاصرون القلعة من أجل إنزال خورشيد باشا وخلعه (**).

واصل محمد على النهج نفسه فى حياته باعتباره واليًا انتخب من قبل الأهالى وثبّت الباب العالى فى الأستانة تعيينه مجبرا ونزولا على رغبة الأهالى، بعد سبعة وخمسين يوما من ترسيمهم له. وفهم الرجل قيمة الدعاية وأهميتها إذا أراد أن يستمر فى مسيرته السياسية التى أراد لها أن تكون طويلة، فحرص دائما على مقابلة التجار والدبلوماسيين والسياح والمبعوثين من الأجانب بنفسه، يستمع إليهم ويحكى لهم ما أراد، وقد سرب عبرهم كل ما أراد أن يصل إلى أوربا عن شخصيته وتاريخه ومشروعاته التعميرية والإصلاحية التى يريد تنفيذها فى مصر، ولقد لعبت حكاياته عن نفسه، والتى لم تكن تخلو من الفانتازيا، وتبعد أو تقرب من الحقيقة، أدوارا أساسية فى التعتيم على الباحثين والدارسين الذين يصطدمون دائما الحكايات نفسها فى مصادر عديدة تروجها، وبعضها يتعارض والحقيقة التى يمكن أن نجدها فى مصادر أخرى محايدة، أو سلمت من تأثيرات الرجل وآلته الترويجيّة التى استطاعت تجنيد أمهر

(*) بلغ عدد السكان فى مصر حسب المصادر فى عام 1822، مليونين ونصف مليون نسمة.

(**) انظر تفاصيل ذلك فى دراستنا "مفهوم التقدم والفقه والسياسة عند العرب (مصر فى الفترة من سنة 1795 إلى سنة 1805 نموذجا)" فى مجلة الفلسفة والعصر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد الخامس، 2006، ص ص (191- 208).

ولا أدرى إن كان التاريخ قد أعاد نفسه مرة أخرى فى الخامس والعشرين من يناير 2011، عندما هب المصريون فى مظاهرات مليونية (وصل تعداد مصر اليوم إلى أكثر من خمسة وثمانين مليون نسمة) فى شتى المحافظات المصرية وفى وقت واحد، من أجل المطالبة بتنحى الرئيس، الذى طالما صبروا على فساده وبطشه وظلمه وسوء إدارته، وعلى استعداداته الحثيثة لتوريث الحكم لنجله.

المؤرخين، ووجّهت أغلب من كتبوا فيما بعد استنادا إلى حكايات الباشا وقصصه التى روجها عن نفسه(*). ولعل نظرة بسيطة إلى ما كتبه الباحثون من الإنجليز أو الألمان، مقارنة بما كتبه الباحثون الفرنسيون الذين حظيت بلادهم باهتمام خاص، ومن ثم بعمل دؤوب من قبل أبواق الدعاية التى سخرها محمد على فى فرنسا تحديدا، نظرا للعلاقات المتميزة التى ربطت بينه وبينها(**)، إن النظرة البسيطة ستبين مدى الصورة الإيجابية التى حظى بها محمد على فى الأوساط الفرنسية، مقارنة بصورة شديدة السلبية له إذا خرجنا من فرنسا وتوجهنا إلى جارتيها. ولعل توجه الطلبة من المبعوثين المصريين مع الموظفين الفرنسيين الذين يعملون لحساب الدولة المصرية وهم (الموظفون من الفرنسيين) يرتدون الملابس الرسمية التى أجبروا على ارتدائها باعتبارهم يعملون لدى حكومة مصر، جعلهم محط أنظار الجميع واحترامهم للحكومة التى يعملون لحسابها، وزاد من الاحترام؛ خضوع الطلاب لاختبارات اجتازوها بنجاح كبير

(*) كان يحلو دائما لمحمد على أن يحكى (على غير الحقيقة) على مسامع زواره، أنه قد ولد فى نفس العام الذى ولد فيه نابليون بونابرت، وأن مسقط رأسه كان فى مقدونيا، وهو مسقط رأس الإسكندر الأكبر، وذلك لكى يوجد صلة بينه وبين عظماء معروف قدرهم تاريخيا، ومن ثم فهو لا يقل عن عظمتهم.

(**)لا يجب أن ننسى أن فرنسا كانت المركز المفضل لمحمد على لوجهة البعثات العلمية التى أرسلها للدراسة والتعلم، ومنها بعثات الأنجال، كما تمت الاستعانة بخبراء ومختصين فرنسيين فى تنفيذ مشروعات محمد على، ولا ننسى دور السان سيمونيين فى ذلك، وظل دائما فى فرنسا أصدقاء لباشا مصر، ومحبين لمصر، وانعكس هذا فى كتاب، من عادوا من علماء الحملة لفرنسا، حول مصر "وصف مصر"، وتبنى الفرنسيين لحركة الولع بمصر (*Egyptomania*) والتى تجلت فى الفنون والصناعات والمهن، وراجت حتى فى أوساط العامة من الفرنسيين.

تحت مرأى العلماء الفرنسيين ومسمعهم؛ مما زاد من شعبية الباشا الذى وجدوا جدوى ما يقوم به من إصلاحات ونتيجته فى بلاده، أمام أعينهم(*).

ولم يتوقف محمد على فى آلته الدعائية على هذا، بل غذى الدعاية التابعة له بأمور تجد من الحديث عنه مادة دائما حية وموضوعا للساعة. تمثل هذا فى إهداء ملك فرنسا شارل العاشر فى خريف 1826، زرافة كان قد تم جلبها من السودان، وكانت الزرافة حيوانا غير معروف فى أوربا، وعلى إثر وصول الزرافة إلى مارسيليا، كان الحدث رسميا وشعبيا عندما تجمع حولها الناس، وأصبحت هدية والى مصر مثارا للتعجب والتندر والفضول من قبل الجميع، ولما كان على الزرافة مع حارسها وراعيها السودانى عطير، اجتياز البلاد مشيا على الأقدام حتى الوصول للعاصمة باريس، فكانت الفرصة مهيأة لكى يراها الشعب الفرنسى عبر هذا الطريق الطويل، ومن هنا ظهرت حركات ثقافية وفنية متأثرة بهذا الحدث الاستثنائى، وشملت موضات الملابس وقص الشعر، والصحون والفازات، وكلها تحمل الزرافة التى جعلت اسم باشا مصر حاضرا دائما فى وجدان الفرنسيين، ولم يكن هذا الحدث مقصورا على فرنسا، فقد أهدى زرافة أخرى إلى ملك إنجلترا لكنها مرضت ونفقت قبل أن تصل لوجهتها.

(*) على سبيل المثال يمكن التذكرة بسفر كلوت بك على رأس اثنى عشر طالبا من مدرسة الطب إلى باريس، وهم الذين أدوا اختباراتهم بنجاح ساحق أبهر اساتذة الطب من الفرنسيين على مقدرتهم الفائقة التى أظهروها فى تشخيص الأمراض ووصف الدواء. والحق أن الكتاب الذى نحن بصدده قد أفرد فى ذلك، نظرا لاهتمام المؤلفة بإبراز تفاصيل العلاقة المباشرة لمحمد على بفرنسا.

ولا يمكن أن ننسى إهداء محمد على فى الرابع والعشرين من نوفمبر 1830، للملك لوى فيليب المسلة المصرية الشهيرة والكائنة حتى اليوم بميدان الكونكورد الشهير فى قلب باريس، وهى المسلة التى اختارها شامبليون بنفسه من مكانها بالأقصر، وأخذ الحديث حول المسلة ونقلها من الأقصر للإسكندرية، ومن الإسكندرية لميناء مارسيليا بفرنسا، ومن الميناء الفرنسية الجنوبية حتى ميناء الهافر فى الشمال ليسهل نقلها فيما بعد إلى باريس عن طريق نهر السين، ثم نقلها إلى مكانها الحالى الذى نصبت فيه، وما تم استخدامه من أدوات وتقنية منذ نقلها من الأقصر وحتى مكانها الحالى، وما صاحب هذا من نقاشات التقنيين والمهندسين الذين شاركوا فى كل هذه العمليات، حتى انتهى السجال والحديث والعمل، بنصب المسلة فى الخامس والعشرين من أكتوبر 1836، وفى حضور الملك. ولم تكن كل هذه النقاشات، طوال هذه المدة التى استمرت نحو الست سنوات، خالية من الحديث عن مصر وعن واليها صاحب الهدية الثمينة.

وهكذا عرف الباشا كيف يلفت الأنظار والانتباه الدائم له، وهو ما رسم صورة كانت دائما إيجابية له على الأخص بفرنسا، حتى لو شابت علاقته بها بعض الفتور فى أوقات محدودة، الأمر الذى جعله يستعيد دائما صورته الإيجابية وفى أسرع وقت لدى الرسميين والعامة على السواء(*).

(*) اهتمت الكاتبة بحقيقة محمد على فى الواقع، وما صيغ من أساطير حوله، وأبرزت أنه أسهم هو أيضا فى الدفع بها، حيث كان يريد رواية رسمية عن حياته وطفولته كثيرا ما كان يرددها لزائريه من الأوربيين، حيث رأت الكاتبة أيضا وجود خطة إعلامية للباشا للدعاية له فى أوربا، ومن ⇐

- شخصية محمد على البراجماتية

تمتع محمد على بسمة أساسية غلبت على سلوكه وسياساته التى انتهجها، وعلى كل المستويات ألا وهى؛ الحس العملى البراجماتى العالى الذى تمتع به عبر حياته الممتدة، وهو ما جعله يفهم، بل ويتقن لعبة التوازنات السياسية ويستفيد منها إلى أقصى مدى جعله يتفوق على الميكيافيلية أحيانا. ولعله استقى هذا الحس البراجماتى من وضعيته الأولى باعتباره محاربًا ومغامرًا، وأيضا من حرفته الأولى فى التجارة بعد ذلك، وهو ما استمر معه وهو حاكم، إذ ميزت سياساته الاقتصادية سياسة الاحتكار، وأصبح هو التاجر الأول والمصدر الأول فى مصر. واستطاع من خلال حسه هذا أن يعرف كيفية التقاط الأفكار وتطويعها لخدمة مصالحه، وكيفية انتهاز الفرص والقفز عليها لتحقيق أقصى ما يمكن الاستفادة منه لخدمة سياساته وتحفيز مشاريعه، وكيفية توظيف ما يتجمع لديه من معلومات وأفكار وخبرات رجال، فى خدمة طموحاته التى لم يعرف لمثلها حدود. ولعل هذه البراجماتية أرخت بظلالها كثيرا على أعمال محمد على، بحيث أربكت بعض الباحثين عندما عجزوا عن تبرير بعض السياسات والأوامر والفرمانات والبيورلديات المتضاربة والتى أصدرها

=هنا تضع علامات استفهام كثيرة عما قيل عن الباشا من معاصريه الذين تأثروا برواياته عن نفسه، كما أنها حذرت أيضا من الوقوع فى تأثير ما كتب عنه لاحقا لكونه خضع لمنطق الأسرة العلوية. وفى الحالتين حذرت من الناحية المنهجية فى ذلك، وأكدت أن الإنجليز كانوا يتشككون فى الروايات التى تناقلها الفرنسيون دون نقد، ولا شك أن ما قدمته الباحثة حول محمد على وأسرته ومولده شديد الأهمية، وبخاصة عندما تضع كل ما قيل حوله موضع المراجعة.

الرجل فى حياته. ولعل هذا ما وقع فيه شخصيا كاتب هذه السطور، عندما قمت بدراسة الآثار المصرية فى عهد محمد على، وهالنى كم التناقض والتضارب اللذين ميزا تصرفاته وأوامره إلى موظفيه فى المناطق الأثرية على أرض مصر، والتصرفات التى كانت غالبا لا تتفق والأوامر التى كان يصدرها، بحيث كان من الممكن الإقرار ونحن قريرو العين؛ بأن محمد على قد اهتم اهتماما تاما بآثار الحضارة المصرية القديمة، وبالمثل ونحن قريرو العين أيضا بأن محمد على قد أهمل إهمالا شاملا آثار الحضارة المصرية القديمة. إن ما جعلنى أفهم حقيقة موقف الرجل من الموضوع، وجعلنى أكشف سر هذا التناقض الذى افترضته منذ البداية، تبدى عندما قمت بقراءة الأوامر بتجرد وموضوعية، وأصبح جليا لى عندما وجدته يتمثل فى شخصية الرجل البراجماتية، وذلك عندما عدت فى نتائج بحثى إلى الفضاء الثقافى المرتبط بالسياق التاريخى الذى دارت خلاله الأحداث. هذا وتوصلت إلى أن ثمة جانبًا عمليًا تطبيقيًا استثمر من خلاله محمد على آثار الحضارة المصرية القديمة، حيث مثلت الآثار وسيلة ناجعة فى يد الرجل، خاصة بعد نجاح شامبليون فى الكشف عن حقيقة اللغة الهيروغليفية فى الرابع عشر من سبتمبر 1822، وشدة اهتمام الغرب بهذه الحضارة التى ظلت خلال عصور طويلة عصية على الفهم والتفسير. دفع هذا الحس العملى محمد على إلى أن يستثمر هذه الآثار فى علاقاته الأوربية، وكان يتطلع فى هذه الآونة إلى الغرب، وبخاصة إلى فرنسا، بوصفها نموذجًا ومعاونًا له على تنفيذ مشروعاته فى شتى المجالات، وحتى فى تلميع صورته التى شوهها تدخله فى اليونان إلى جانب السلطان العثمانى، وبخاصة عقب حرب المورة التى اندلعت فى فبراير 1821. ولعلى فى هذا المبحث قد وضعت هذه البراجماتية على محك التوظيف عندما بينت كيف قام

محمد على باستثمار الحضارة المصرية القديمة وآثارها، على ثلاثة محاور أساسية: حيث تمثل **المحور الأول** لديه فى الانتفاع المباشر والعينى من الآثار، عندما قام بإهدائها لملوك العالم وأمرائه، وسهّل للمتنفذين من السياسيين والدبلوماسيين والقناصل والسفراء المعتمدين فى مصر تصاريح التنقيب عنها والخروج بها من البلاد. وتمثل **المحور الثانى** فى محاولة محمد على لخلق مشروعية إضافية له ولمشروعه الحضارى داخل مصر، تضاف إلى مشروعية إنتخابه واليا عليها من قبل الأهالى، ألا وهى؛ أنه امتداد لملوك مصر القديمة الذين أنجزوا حضارة عظيمة (الحضارة الفرعونية)، وأن مشروعه ليس إلا عودة لبعث حضارة المصريين القديمة، وفى هذه الحالة لم ولن يبدو أخذه عن الحضارة الغربية الحديثة إلا فى هذا الاتجاه المشروع، من أجل تحقيق نهضة جديدة فى مصر تعيدها إلى سالف أمجادها القديمة. وأخيرا تمثل **المحور الثالث** فى مسألة مهمة لا تقل عن المحورين السابقين أهمية، وهى؛ أنه بحسه العملى هذا انتهز فرصة زيارة عالم المصريات شامبليون إلى مصر، والتى بدأت فى عام 1828، وانتهت فى عام 1830، ليطلب منه إنجاز ملخص عن تاريخ مصر الفرعونية، تأكيدا لمحورنا الأول، لكن محمد على فهم ووعى بعد أن قرأ هذا الملخص؛ أن مصر كانت دائما مستهدفه من الشرق، وهوجمت دائما من قبل غزاتها من شرقها، وهو ما جعل محمد على فى -رأينا- يهتم بحدود مصر الشرقية، وما حملته على الشام التى أرسل على رأسها إبراهيم باشا فى أكتوبر 1831، وبقوام تسعين ألفا من المقاتلين، إلا نتيجة – كما

رأينا – لهذه المذكرة التى سلمها شامبليون لمحمد على فى 29 نوفمبر 1829[*].

لعل ما سقناه يبين إلى أى مدى تجلى هذا الحس العملى البراجماتى الذى تمتع به محمد على، وإن كان ما طبقناه انصب على عنصر واحد فحسب من العناصر –وهو تعاطيه مع آثار الحضارة المصرية القديمة– التى يمكن أن يطبق عليها، فلنا أن نسحبه على بقية العناصر الأخرى والتى، نعتقد يقينا، أنها ستؤكد ما ذهبنا إليه.

ولعل هذه العبقرية التى وسمت شخصية محمد على دفعت بعض الباحثين إلى التسليم بأن ما قام به الرجل فى مصر من إصلاحات حقيقية فى مجال إعادة تنظيم الإدارة، وفرضه لقواعد اقتصادية وإدارية تتسم بالحزم والرشاد، ليس وليدا لاستنساخ نظام أو نظرية أو حتى تجربة، أو نموذج على نسق حاضر قديما كان أو معاصرا، أو على أى مذهب سياسى أو اجتماعى ما، جاء من الخارج[**]، بل كان وليدا لهذه الشخصية الفريدة والمبدعة.

2- العوامل الموضوعية

- الخلاف حول تاريخه فى داخل الأسرة

(*) انظر التفصيلات بدراستنا "محمد على والحضارة القديمة"، فى: إصلاح أم تحديث؟ مصر فى عصر محمد على، تحرير رؤوف عباس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000، ص ص (526-473).

(**) *Nada Tomiche, L'Egypte moderne, Paris, Ed. P.U.F., 1976, P.19.*

حاول الحكام من أسرة محمد على بعده، كتابة تاريخ الجد الأكبر، من وجهات نظر متعددة، وفى بعض الأحيان متناقضة، ولا ريب فى ذلك إذا عرفنا طبيعة الخلافات التى سادت بين أفراد العائلة المالكة، وبخاصة بعد محاولة الخديو إسماعيل بن إبراهيم باشا ونجاحه فى انتزاع فرمان 24 مايو 1866، الذى وافق السلطان عبد العزيز بموجبه على تغيير نظام البكورية فى ولاية العهد، من أكبر أفراد أسرة محمد على إلى تخصيص وحصر ولاية العهد فى أبناء إسماعيل وحده، وهو ما من شأنه حرمان عمه حليم باشا، الذى كان من حقه أن يرث عرش أبيه باعتباره أصغر أبناء محمد على، لصالح توفيق بن الخديو إسماعيل، وبموافقة الباب العالى عن طريق شراء هذا الفرمان بالهدايا والرشى التى دُفعت فى الأستانة للسلطان ولأمه وحاشيته. كان لهذا الأمر أثر بالغًا فى خروج كثير من الحكايات والقصص عن محمد على، مصدرها أحفاده المختلفون فيما بينهم على أحقية ولاية العهد، حيث حاول كل منهم تطويع حكاياته بما يتماشى مع رؤيته ويؤكد حقه أو حق الفرع الذى ينتمى إليه فى عرش مصر، ونعلم محنة حليم باشا عندما نفاه ابن أخيه الخديو إسماعيل، فيما بعد وصادر أملاكه فى مصر.

وإذا كانت خلافات الأسرة قد أسهمت إلى كبير فى اللغط الذى ألمَّ بسيرة محمد على، والذى وصل حتى إلى التشكك فى بنوة محمد على لإبراهيم باشا(*)، فإن مبادرة الملك فؤاد لكتابة تاريخ محمد على وتكليفه لعدد كبير من

(*) اهتمت الباحثة فى الكتاب بهذه المسألة وتمت مناقشتها بإسهاب، ووضعت تقريبا كل ما قيل موضع الدراسة والفحص، بل وقلبت الأمر على وجوهه المختلفة، لكنها لم تصل لقول فصل=

المؤرخين والكتّاب الفرنسيين بجمع الوثائق والمصادر والمراجع المتاحة فى هذا الأمر ومن كل مكان، وبخاصة الموجود منها فى فرنسا، فإن هذه المبادرة قد عكست توجهات ووجهة نظر الملك فى كل ما كان مثارا من نقاشات داخل الأسرة الحاكمة، ومنها بطبيعة الحال ما يخص العرش الملكى، وإضفاء المشروعية على أحقيته وأحقية ابنه من بعده فى وراثة عرش مصر. ولم يتم الأمر بطريقة ساذجة بل روعيت شروط البحث العلمى والتقصى والاهتمام بالوثائق، خاصة وأنه استعان بمؤرخين فرنسيين محترفين اختيروا بعناية شديدة عن طريق صهره الذى كان يشغل منصب سفير المملكة المصرية بباريس، كما لم تخل هذه الكتابات والنصوص من انعكاس لأيديولوجيات وأفكار هؤلاء المؤرخين الذين لم ينظروا إلى الوثائق والمصادر، وهى فى أغلبها فرنسية إلا بنفس العين الفرنسية البحتة، حيث لم يروا فيها إلا ما كان يتعلق بمصلحة فرنسا العليا، وما كان يخدم أهدافها وطموحاتها فى المنطقة، وهو ما انعكس على تحليلاتهم واستنتاجاتهم، وظل يلعب دورا كبيرا فى صياغة كثير من الباحثين من الفرنسيين والعرب لجزء كبير من أطروحاتهم المتعلقة بتاريخ محمد على، ولعل نظرة بسيطة إلى المقررات الدراسية قبل 1952، تبين لنا ذلك، من تسليط الضوء على شخصية محمد على دون إبراز دور الشعب المصرى فى توليته ومساندته ضد والى الباشا، وضد القوى الأخرى المناوئة له، وضد مؤامرات السلطان بتعيينه مرة واليا على جدّة ومرة أخرى على سالونيك للتخلص

=أو نتيجة مؤكدة لتنهى بها هذا الموضوع المثير، حيث اكتفت بأن السؤال يبقى مطروحا لعدم توفر أدلة جازمة باعتبار أن أمر كهذا – فى رأيها – لا يمكن أن يستند على تخمينات.

منه، ودفاع الشعب المصرى معه عن الإسكندرية فى مواجهة حملة فريزر، إضافة إلى تبنى وجهة النظر الفرنسية عن أسباب الحملة على مصر. ولعل الأمر لم يختلف كثيرا بعد 1952، فى كتابة التاريخ المصرى وتدريسه فى المدارس، إذ تم تبديل الأمر بحيث تمت إهالة التراب على شخصية الرجل، وعلى خلفائه من بعده، إلى الحد الذى اختفى فيه دوره وأدوارهم تماما، فى مقابل تضخيم الأدوار الأخرى تبعا للمطلوب من كاتب التاريخ كما سنرى بعد قليل.

- الخلاف حول تاريخه من خارج الأسرة

بعد حركة الضباط الأحرار، واستيلاء الجيش على السلطة فى مصر منذ الثالث والعشرين من يوليو 1952، ومحاولة السلطة الجديدة خلق مشروعية جديدة تعطيها الحق فى الاستمرار فى السلطة دون أن تصطدم بعراقيل تخص مشروعية هذا الاستمرار، وخاصة وأن الضباط قد أعلنوا مرارا أنهم لا يرغبون فى الحكم وأنهم سيعودون لثكناتهم فور استتباب الوضع الأمنى، أراد الضباط أن يحيطوا أنفسهم بهذه المشروعية الجديدة التى حاولوا جاهدين أن تكون مشروعية شعبية. ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف، وتعميق وتكريس المشروعية للعسكر، شجعت السلطة الجديدة على إعادة النظر ومراجعة التاريخ المصرى الحديث، الذى تم استبعاد ما لم يكن ليتواءم مع نهجه الجديد، بل وتم إعطاء الضوء الأخضر لكتبة التاريخ ممن احترفوا الكتابة تبعا لإملاءات السلطة، أى سلطة، فقاموا بالحذف والإضافة تبعا لما يقتضيه النهج الجديد، وهو ما من شأنه أن شوه لحد كبير تاريخ محمد على وأسرته، حتى يستقيم

الدأب الجديد. وبات على كل من يكتب فى هذه الحقبة أن يعتمد على ما تمت كتابته وتداوله على أوسع نطاق باعتباره هو القول الفصل، بل والمعتمد لدى السلطات الرسمية، وإلا عرّض الكاتب نفسه للمساءلة والاتهام اللذين اشتدا مرة وفترا مرات، تبعا لمزاج من يتصدر السلطة السياسية. وهو الأمر الذى أثّر لحد بعيد على الكتابات التاريخية اللاحقة، ووجّه اتجاهاتها ورؤيتها وتحليلاتها ومن ثم استنتاجاتها.

- الخلافات حول تأويل إسهاماته في تحديث مصر

انعكست الخلافات السابقة بكل ثقلها على التأويلات التى لحقت بالدور الذى لعبه محمد على فى تحديث، أو بالأحرى إقامة الدولة الحديثة فى مصر، إذ وصل الخلاف إلى أعلى درجاته، وظهر هذا الأمر جليا عندما قامت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى عام 1999، بتنظيم ندوتها السنوية بمناسبة مرور 150 عاما على رحيل محمد على باشا الكبير، فلم تجد عنوانا مناسبا لندوتها يعبر عن كم الاختلافات بين الأوراق المقدمة سوى "إصلاح أم تحديث مصر فى عهد محمد علي".

لم يكن ما رصدناه أخيرا سوى نتائج لما سقناه وبيّناه من قبل، بحيث اختلط كل ما كتب وقيل بعقول الباحثين وشوش على رؤاهم وأفكارهم، بحيث أثّرت التأويلات السابقة، تبعا لمصادرها ومراجعها، على النتائج التى خرج بها الباحثون والدارسون لتاريخ هذه الحقبة من تاريخ مصر الحديث. فإذا كنا قد وجدنا منذ قليل من اعتبر محمد على خلوًّا من شتى التجارب والنماذج والنظريات والمذاهب السابقة عليه، بحيث جاء تطبيق دولته فى الواقع على غير مثال، فسوف نجد أن أغلب المؤرخين الفرنسيين قد أسندوا دورا مهما ورائدا

لبلدهم فى بناء الحداثة فى مصر، وذلك باعتقادهم أن توفيرهم لمحمد على الخبراء والمتخصصين والمهندسين (فى مجالات الطب والهندسة والتعدين والملاحة والبيطرة والجيش، والأشغال العمومية، والتصنيع بعمومه وغيرها) وأعلى درجات التقنية التى نسجوا على منوالها فى مصر(*)، اعتقدوا أن ذلك كان العامل الحاسم فى كل شيء، ومن هنا أنكر البعض منهم أن تكون العوامل الأخرى قد لعبت أى أدوار حاسمة، مثل شخصية محمد على نفسه، والظروف الدولية المحيطة، والعوامل الداخلية المحلية، وبخاصة الاجتماعية والاقتصادية، إضافة إلى استعدادات المصريين أنفسهم فى نجاح التجربة، وكلها عوامل فاعلة لا يمكن للباحث المحايد والموضوعى ألا يضعها فى اعتباره، لكى لا يكون سجينا لذاتيته وأفكاره وأحكامه المسبقة.

3- تقييم لمحاولة الباحثة فى هذا الكتاب

أفشلت العوامل السابقة مجتمعة، ذاتية كانت أم موضوعية فرصة وصول الباحثين والدارسين لتاريخ مصر الحديث، من المصريين والأجانب على السواء، إلى نتائج ترقى إلى أن تكون على نفس مستوى الموضوع الذى لا ينكر كل باحث محايد، أو حتى غير محايد أهميته، وأهمية ما دار من أحداث خلاله، على المستوى المحلى والإقليمى والدولى، وأكثر من ذلك ما تحقق فعليا، فى هذه الحقبة الزمنية على الأرض، فى تاريخ مصر الحديث.

(*) راجع فى هذا: *Francis Riaux, La France et l'Egypte, 1870*، كما أن الكتاب الذى نحن بصدده (العلاقات المصرية الفرنسية فى عهد محمد على) لا يخلو من ذلك، إذ يؤكد أيضا على هذا الأمر، وهو دأب أغلب المؤلفين الفرنسيين فى الكتابة عن مصر فى هذه الحقبة.

ولعل الكتاب الذى نحن بصدده الآن لا يشذ عن القاعدة السابقة إلا فى بعض التفصيلات التى إن استوعبنا دواعيها سيمكن لنا فهمها فى السياق الذى أريد لها، من قبل الباحثة.

بداية لابد من معرفة أن الباحثة إذا كانت من جهة أولى فرنسية، وهى فى الوقت نفسه ومن جهة أخرى زوجة لأحد من ينتمون للعائلة المالكة(*). هذه العلاقة المزدوجة نجدها وقد تجلّت فى المعالجات التى تصدت لها الباحثة.

من الجهة الأولى، أملت عليها أن تبرز ما يؤكد على حب محمد على لفرنسا، وكذلك علاقاته بملوكها الذين عاصرهم فى حياته، وإبراز دور فرنسا المميز الذى لعبته فى بناء الدولة الحديثة، وبعث الحضارة التى أقامها الباشا، بل وتسليط الضوء على اعتراف محمد على نفسه بذلك الدور. وهنا وجدنا تأكيد الباحثة على دور رجال نابليون الذين أطلق عليهم أيتام الإمبراطورية، فوجدناها تركز على أدوار كل من: سليمان باشا الفرنساوى (الكولونيل سيف)، وكلوت بك، ودى سيريزى، وباسكال كوست، وبوبيه، وهامون، وجيوميل، وكايو وغيرهم. وهم الذين فقدوا وظائفهم بسقوط الإمبراطورية فى فرنسا واستسلام بونابرت، ونفيه إلى سانت هيلانة، ثم بعد موته، وفقدان الأمل تماما فى إعادة بعث الإمبراطورية من جديد، إذ ظهر لهؤلاء ضرورة أن يبحث كل منهم عن مستقبله خارج إطار الحلم البونابرتى العظيم، ومن هنا جاء توجهم لخدمة مشروعات الباشا فى مصر، كما جاء توجه فصيل فكرى آخر يعبر عن

(*) الباحثة زوجة الأستاذ الدكتور على كورخان، أستاذ الحضارة الفرنسية والأدب المقارن بجامعة حلوان، والذى ينتمى لفرع حليم باشا، أصغر أبناء محمد على.

الاشتراكية الطوباوية كما عرفها أتباع سان سيمون، الذين وجدوا فى مشروعات محمد على الصناعية والإنشائية والتكنولوجية متنفسا واقعيا لأفكارهم التى ظلت نظرية، ولا يجرؤ أحد على الإقدام على تنفيذها، لصعوبة الأوضاع الاجتماعية والسياسية المضطربة فى فرنسا فى هذه الآونة، ومن هنا وجدناها مثلا تخفف من أثر تخلى فرنسا عن محمد على فى أحلك أوقاته، خاصة فى خلافه مع السلطان العثمانى وصدره الأعظم على مسألة توريث أبناء محمد على فى حكم مصر والولاية على سوريا.

كما لا تنسى الباحثة أن تبرز فى أسطع صورة موقع اللغة الفرنسية فى البلاد، سواء فى أوساط العائلة الملكية التى تبنت الحديث والكتابة بها، وكأنها اللغة الأم، حيث درسها أغلب أفراد العائلة، باعتبارها لغة الثقافة والعلم الذى تلقوه فى فرنسا نفسها أثناء بعثاتهم التعليمية، أو على يد معلميهم من الفرنسيين فى داخل البلاد، ممن استجلبهم الباشا لتعليم أبنائه وأحفاده. وتبين الباحثة أيضا المكانة التى حظيتها بها اللغة الفرنسية لدى الطبقة البرجوازية فى البلاد، بحيث أصبحت لغة الثقافة والصالونات، بل وأكثر من ذلك لعبت اللغة الفرنسية – كما أرتأت الباحثة – دورا مقاوما للاحتلال الإنجليزى، عندما رفضت الطبقات العليا فى المجتمع أن ترسل بأبنائها إلى المدارس الإنجليزية نكاية فى الاحتلال، بل ورفضت التحدث أيضا بالإنجليزية لنفس هذا السبب.

ومن الجهة الثانية، حاولت الكاتبة أن تبرز تعاطفها مع العائلة التى انتمت إليها بحكم النسب، كإهدائها الكتاب مثلا لحمايها، ليس فقط لكونه حماها وحفيدًا لمحمد على، ولكن لكونه أيضا يحب بلادها فرنسا. وتجلى

التعاطف فى كتابها فى أكثر من موضع، ولعله وصل للذروة عندما تعلق الأمر بالدفاع عن إبراهيم باشا، عندما تم اتهام سلوكه فى العالم الغربى بالقسوة والضراوة عند تدخله لصالح السلطان العثمانى فى اليونان، وبخاصة أثناء حرب المورة، وذلك عندما انصب دفاعها على فكرة أن من اتهموا إبراهيم باشا من المؤرخين أهملوا الاطلاع على الوثائق والمصادر التى تصوروا أنها تثبت هذا الأمر، بل وأحالت اتهاماتهم إلى روح الحروب الصليبية التى تملَّكتهم. كما أنها تقصت الحقيقة فيما سمى - عقب حرب المورة - بمسألة الأسرى، من اليونانيين الذين عاد بهم إبراهيم باشا إلى مصر عقب نهاية الحرب، وكانت قد تمت المبالغة فى هذه القصة، التى لم تجد الباحثة لها أى أساس فى الواقع، بحيث ما أعلن عنه من آلاف الأسرى، لم يكن سوى مائة وعشرين فردا، لتكتشف أن من عاد معه من اليونانيين كان قد اعتنق الإسلام من قبل فى ظل الدولة العثمانية، ولم يرد العيش فى الدولة التى لم تعد تابعة للدولة العثمانية المسلمة، خوفا على حياته فى دولة اليونان المسيحية والتى استقلّت حديثا.

وثمة مسألتان مهمتان حازتا على اهتمام الباحثة بقدر أكبر من العناية، تعرضنا لإحداهما عندما تحدثنا عن اهتمامها بأمر ما شيع، من أن إبراهيم باشا ليس ابنا لمحمد على، وقد وجدنا كيف تصدت للأمر على أسس علمية، فدرسته بعناية ولم تستبعد مناقشته، بل وتحققت من كل الدعاوى التى أثيرت والإشارات التى تم الإيماء لها، منهية الموضوع بشكل منهجى محايد عندما أقرت بصعوبة التحقق، وختمت وجهة نظرها بالقول "إلا أن السؤال يبقى مفتوحا لعدم توافر أدلة أكيدة، ثم إن مجموعة التخمينات لا تكفى للفصل فى الأمر". وربما تكون المسألة الثانية أكثر إثارة للجدل والنقاش، بل وقامت حولها فى

مصر، منذ أكثر من عقد تقريبا، نقاشات ومعارك فكرية انشغل بها المتخصصون والعامة على السواء، ألا وهى الحملة الفرنسية على مصر، وأسبابها والأهداف التى اختفت وراء أحداثها. هنا نجد الباحثة تبرز لنا كل ما أثير حول هذه المسألة من لغط، إذ لم تخف أهمية احتلال فرنسا لمصر من الناحية الاقتصادية، بل وشرحت كيف تم التمويه على ذلك الأمر، بحيث يبدو الاحتلال أمرا مشروعا "لقد وضع ماجالون فى تقاريره مجموعة متكاملة من البراهين التى تجعل من غزو مصر أمرا مشروعا"، وهى تكشف ذلك من خلال الرسالة التى بعث بها شارل ماجالون نفسه إلى فيريناك مبعوث فرنسا الجمهورية إلى القسطنطينية، وكان ماجالون يعمل ممثلا لدار باردون فى مصر، ثم قنصلا فى سنوات ما قبل الحملة، حيث قال فى رسالته: "أناشدك أيها المواطن ألا تتهاون بشأن الوسائل التى تمنح بها مصر إلى فرنسا، فلسوف تكون واحدة من أجمل الهدايا التى يمكنك أن تهديها إليها، ولسوف يجد الشعب الفرنسى فى هذا الاقتناء موارد هائلة". كما أنها تومئ أيضا إلى محاولة حكومة الديركتوار التخلص من الجنرال الطموح بونابرت فى مغامرة عسكرية فى مصر عسى أن تخفف بهذا مؤامراته وضغوطاته عليها، ومع ذلك فهى تسوق ما هو معروف ويكرره دائمًا المؤرخون الفرنسيون فى الحديث عن حماقة الاعتداء على التجار بوصفه الأوربيين سببًا مهمًا من أسباب الحملة عندما تشرح لنا السياق المعروف فى: طلب الفرنسيون الحماية من قنصلهم ماجالون الذى أرسل بدوره تقريرا لحكومة الديركتوار، فاتخذته ذريعة لإرسال الحملة الفرنسية على مصر. ورغم الوضوح السابق الذى ترى به أسباب الحملة على مصر، فإنها تقر بأن أهداف الحملة لم تكن واضحة، هل جعل مصر مستعمرة؟ (رغم

رسالة ماجالون لمبعوث الجمهورية فى القسطنطينية والتى كانت شديدة الوضوح!) أم تصدير المعارف التنويرية؟ (وهو الموضوع الذى غطت به حكومة الديركتوار الثورية على مخططاتها الاستعمارية لتغلفها بمسحة إنسانية أمام مواطنيها) أم قطع طريق الهند على الإنجليز؟ (وكان هذا الأمر ضمن أهداف الحملة بالفعل، فى إطار التنافس الاستعمارى بين الدول الكبرى آنذاك) أم إثارة الجدل حول سيادة تركيا؟ (وكان أمرا يأتى بالضرورة، بل وبطبيعة الحال لأنه بتسيير الحملة إلى مصر يكون الفرنسيون بذلك يتعدّون على سيادة الدولة العثمانية، صاحبة الولاية الشرعية على البلاد). من هنا نجد أن الباحثة قد وقعت هى الأخرى ضحية لما تم تداوله من قبل فى هذا الأمر، ولم تستفد مما جمعته من وثائق يمكنها أن تؤكد حقيقة الحملة باعتبارها غزوا استعماريا جاء لاحتلال مصر، ليحقق أغراضا لم تكن غائبة عن المشروعات الاستعمارية للقرن التاسع عشر.

لكن للأمانة وجدت وثيقة لدى الباحثة تم العثور عليها بعد أن أنجزت بحثها وأخرجته للنور، بمعنى ربما كانت ستغير وجهة نظرها إذا تم توظيف هذه الوثيقة فى البحث. كانت الوثيقة عبارة عن إعلان موجه للمواطنين الفرنسيين الذى يسكنون إقليم "الجارد: *Gard*"، وهو موجه من محافظ الإقليم للإعلان عن وظائف تتطلبها الحملة على مصر، يبدأ الإعلان بعنوان يحمل: **مستعمرة مصر**، ويستهل مقدمته بأن الحكومة، ورغبة منها فى تقوية عرى الشجاعة لدى الفرنسيين أسست فى مصر ارتباطا يربط أكثر فأكثر بين سكان **هذه المستعمرة الثمينة** بالوطن الأم، ليتيحوا لهم أن يتمتعوا بالفنون النافعة التى تنقصهم،

مضيفة على ذلك بأن هذا يتأسس على المنفعة فى التجارة والصناعة لكلا الشعبين. بعدها تأتى الأعداد المطلوبة، وهى متواضعة، إضافة إلى تسميات المهن المطلوبة من نساجين، وصناع قبعات، وحدادين، وطحانين، وصناع جوارب وأحذية للمهن، ثم يعرض المحافظ للامتيازات التى سيحصل عليها هؤلاء المتقدمون للوظائف. وإذا أضفنا إلى ما سبق ما أثارته الباحثة نفسها من أن "بوايه: *Boyer*" ، الذى وصل على رأس بعثة إلى مصر فى عام 1824، وهى البعثة التى أسهمت فى تشكيل فيالق أراد محمد على أن يدعم بها المشاة، وشاركت فى تنظيم القيادة العامة، لم يكن بوايه هذا، وباعترافها، إلا عميلا استخباراتيا فرنسيا لعمليات مستقبلية، إذا أضفنا ذلك، فسيتأكد لنا أن فرنسا كانت دائما تفكر فى مصالحها الخاصة، ولم يكن مد يد العون إلى مصر، حتى بعد الحملة الفرنسية سوى وجه من وجوه تحقيق هذه المصلحة، وربما أتناول ترجمة وتقديم ونشر الوثيقة السابقة بالتفصيل فى موقع آخر غير هذا التقديم، لكن ما أردت أن أقوله تحديدا هو؛ إن هذه الوثيقة تؤكد اليوم بما لا يدع مجالاً لأى شك فيما بعد، بأن استعمار مصر كان الهدف الرئيسى للحملة الفرنسية عليها، وأن ما تسرب إلى مصر من علوم ومطبعة ومظاهر حضارية جاء عرضا ولم يكن فى قلب اهتمامات الحملة، كما حاول البعض أن يشيع.

ورغم كل ما سبق، لا يمكننا أن نغفل عن إعطاء الباحثة حقها فى الجوانب التى أجادت فيها، وبخاصة دراستها للموقف السياسى المعقد فى مصر عقب رحيل الحملة، وقبل اعتلاء محمد على الحكم، إذ إن صعوبة الأحداث والمواقف فى هذه الفترة وصلت لأبعاد غير مسبوقة، تستدل الباحثة على كم

التعقد فيها بالرسالة التى وجهها ماتيو ديليسبس(*) قنصل فرنسا إلى السلطة فى بلاده يعترف فيها بعجزه عن ملاحقة الأحداث "أحاول جاهدا ألا أفقد تسلسل أحداث كثيرة فى متاهة جعلتها كثرة المصالح المتعارضة والدسائس الغربية تكاد تكون لا مخرج منها". وقد ركزت كثيرا على رسائل القنصل الفرنسى الثانى دروفيتى، إلى جانب رسائل ديليسبس، وهى رسائل أكدت فى مجملها على أن محمد على يسعى، بل وسيصل إلى السلطة العليا فى البلاد. وأكثر من ذلك تورد شهادة غريم محمد على، خورشيد باشا والى السلطان الذى خلعته ثورة المصريين وبايعت محمد على بدلا منه، عندما يتنبأ عند خروجه معزولا من مصر لمحمد على "بأنه سيصبح أكثر ثوار الإمبراطورية تميزا، لم ير سلاطيننا سياسيا بمثل هذا الدهاء ولا رجلا بمثل هذه الفاعلية". وكأن الباحثة تصدّق على ما تنبأ به خورشيد عندما تصل لنتيجة مفادها؛ أنه رغم شيوع الثورات فى الإمبراطورية العثمانية، حيث طلب بعضها الاستقلال أو شبه الاستقلال، فإن واحدة منها لم تبلغ حد تسمية باشا منتخب من قبل الشعب، وصدق عليه السلطان مثلما حدث فى مصر؛ إذ ترى أن هذه الشرعية التى حصل عليها قد منحته، من جهة المدة الزمنية ثم من جهة أخرى إمكانية تأسيس عائلة مالكة لاحقا، وهو الأمر الذى تراه مكمن تفرد ثورة محمد على.

ولعل أضعف ما فى الكتاب خاتمته، غير الموجودة فى الواقع، وهو الأمر الذى لا يتفق مع كم ما يمكن أن نقوم بتحليله واستنتاجه من ثنايا ما أثير من موضوعات وقضايا، لكن أهمية الكتاب تظل تكمن فى كم الوثائق

(*) والد فرديناند ديليسبس صاحب امتياز حفر قناة السويس المعروف.

والمصادر الفرنسية التى تحيلنا على صورةٍ مختلفة عن محمد على الذى نعرفه وعلاقاته بفرنسا.

د. مجدى عبد الحافظ

إهداء

إلى حمى محمد كورخان،
الجدير بأن يكون ابن حفيد الباشا الكبير
نظرا لشجاعته وحبه لفرنسا.
مع خالص محبتى.

شكر

إلى السيد لويس بلين، القنصل العام لفرنسا بالإسكندرية.

إلى الأب فانسان، مدير مكتبة المعهد الدومينكانى للدراسات الشرقية بالقاهرة.

تمهيد

إثر الحملة التى قادها بونابرت على مصر، قدم أحد الأتراك على رأس الوحدات العسكرية العثمانية لمدينة قولة ليعتلى السلطة عام 1805، ويحصل على ولاية مصر: إنه محمد على[*][1]، الذى أسس أسرة حاكمة ظلت تحكم بصفة وراثية حتى عام 1952، مؤكدا على روابط الصداقة الدائمة مع فرنسا وهى روابط احترمها كل خلفائه.

فى مايو 1832 صرح قائلا:

أدين لفرنسا بما أنا عليه وسأدين لها بما سأكون.

وفى مايو 1841، أضاف:

ما من صديق مخلص لى سوى فرنسا.

(*) استخدمت الكاتبة اسم "*Méhémet Ali* : محمد على وليس *Mohamed Ali* : محمد على" فى الحديث عن محمد على. (المترجم)

(1) استخدم لفظ "*Méhémet Ali*" وليس (*Mohamed Ali*) لأن والى مصر كان تركيًا، وقد أكد طوال حياته على انتمائه إلى الحضارة العثمانية. وفى القرن العشرين، عندما قرر الملك فؤاد الأول تعريب العائلة الملكية تخلت أسماء الأمراء وأسماء أقربائه عن الشكل العثمانى. وهكذا، تحول الأمير محمت على توفيق إلى محمد على توفيق، أو عُمر طوسون إلى عُمَر طوسون، كما اتخذت عائلة شوكت ذات الأصول الجورجية، وهى من أقرباء الملك فؤاد، من فخرى اسم شهرة لها.

انطلاقا من هذه العلاقة المتميزة تأسس طيلة سنوات حكم هذه العائلة الحاكمة ما يمكن أن نطلق عليه فى الواقع مجتمعا فرانكفونيا ذا بريق خاص. كانت اللغة الفرنسية، والتى تعد لغة التواصل داخل العائلة الحاكمة، تستعمل أيضا من قبل الطبقة البرجوازية باعتبارها لغة الثقافة، وذلك قبل أن تصبح شكلا من أشكال المعارضة للإنجليز، عندما استقروا فى مصر عقب عزل الخديو إسماعيل عام 1879.

لقد حافظ محمد على طوال فترة حكمه الطويلة على علاقاته مع الإمبراطور نابليون الأول والملوك لويس الثامن عشر وشارل العاشر ولويس- فيليب.

إن هناك من يريد أن يصنع من هذه العلاقة، التى انقسمت الآراء حولها، قصة مثالية للعلاقات بين البلدين، وأن يقدمها برواية تخلو مما يعكر صفوها كما لو أن محمد على قد اختار دائما وبلا حساب التحالف مع فرنسا، وهو، كما سنرى، غير صحيح. لقد استطاع والى مصر، الذى كان حريصا على صورته ومناورا فى التعامل مع "وسائل إعلام" العصر، أن ينسج، سواء مع التواطؤ الضمنى لفرنسا أو بدونه، قصة جميلة لمآثره البطولية عبر علاقات فرنسية – مصرية لا تشوبها شائبة، وهى علاقات تناولها العديد من الأعمال دونما انتقاد.

إن "إدوارد جوان: *Gouin*" الذى لم يكن يتمتع وفقا لرأى الباشا إلا بـ:

الميزة الجليلة للشاعر الأوربى[1].

---

(1) Gouin (E.), l'Egypte de Méhémet Ali, Paris. 1844, p.2 .

كتب منذ 1847 عن الباشا قائلا:

يا خليفة الله، يا أبا إبراهيم، يا حدقة عين ذلك الشرق الذى هو عين أخرى للعالم، فلتكن لمصرك الشابة مثل ندى الصباح[1].

فى الوقت الذى كان فيه محمد على يعقد علاقات دبلوماسية مهمة مع البربونيين الذين استعادوا السلطة، كان هناك خبراء وعلماء وعسكريون يشعرون بالحنين للإمبراطورية، قد جاءوا بصفة شخصية ليضعوا أنفسهم فى خدمة والى مصر، الذى كان ينظر إليه على أنه وريث أفكار نابليون فى الشرق. لقد استطاع *نابليون الشرق* أن يؤسس دولة حديثة يرجع الفضل فيها، جزئيا، إلى هؤلاء الذين أصبحوا موظفين مصريين.

وبصددهم يعلن الباشا:

أدين بكل شىء لفرنسا، بكل شىء لملكها، إن من ساعدونى على الخروج من البربرية التى كنا منغمسين فيها فرنسيون. إن أسطولى وتنظيم قواتى ومؤسساتى وتجارتى ليست إلا ثمرة هذا العمل النبيل، وكيف لى ألا أحب الفرنسيين[2].

---

(1) نفس المرجع، ص 3.

(2) *Lettre du comte d'Oysonville commandant de la Vestale au Ministre de la Marine, 9 janvier 1828, Archives Nationales, Marine BB 4 fos 21-22.*

لقد كانت مصر فى القرن التاسع عشر تبدو أرضًا يمكن أن تتحقق بها إنجازات عظيمة، أرضًا لا يزال من الممكن فيها الإيمان بعبقرية الرجال. لقد تلاقى كل أيتام الإمبراطورية فى:

> **مصر محمد على التى منحت، خلال تلمسها لسبيلها بين الحفاظ على تقاليدها والحداثة، عددا من الغربيين إمكانيات تنفيذ شىء شديد الغموض، ولكن ينطوى بلا شك على عملية تمصير واضحة، لقد قام ذلك على البقايا الرائعة التى خلفتها البعثات الأوربية وممثلو هذا الجيل الذى يدين بوجوده لنابليون، والذين بدلا من أن يعترفوا بأنفسهم باعتبارهم رعايا للرستوراسيون(*)، ذهبوا ليقدموا، خدماتهم لملوك، الشرق، ولموجات السانسيمونيين المختلفة، مرورا بآخرين غير مصنفين[1].**

وهكذا، فقد شجعت فرنسا كثيرا، فى عهد لويس – فيليب وتيير، المكائد التى دبرها الباشا عندما حاول أن ينتزع من الباب العالى مزيدا من الاستقلالية، فضلا عن الولاية بصفة وراثية. لقد خدم محمد على قناعة تيير بأن الباشا

(*) الرستوراسيون، هى فترة الحكم التى أعقبت سقوط الإمبراطورية الأولى (1814–1830)، وهى تتمثل فى العودة إلى السيادة الملكية التى تمارس فى إطار من ملكية يحددها ميثاق 1814، وقد استمرت خلال حكم كل من لويس الثامن عشر وشارل العاشر. (المترجم)

(1) *Bélorgey (J.M.), Voyages, ruptures et metamorphoses: des occidentaux en quête de nouveaux mondes, Autrement no.66, Paris, 2000, P.153, 154.*

مؤسس موثوق به لدى الإمبراطورية، ولذلك كانت فترة وزارة تيير القصيرة هي أكثر الفترات التى تلقى فيها محمد على دعما من فرنسا.

لقد تباهى العديد من المصريين بأعمال محمد على التى ظلت نموذجا، والتى ذكرتها الأميرة شويكار فى تلك السطور:

سليلة محمد على، ولتعذرونى لإعجابى ومحبتى له؛ مصرية الأمس واليوم ودائما، ولتعذرونى لما أحمل للوطن المصرى من آمال مستقبلية، لقد أراد محمد على أن تكون مصر متحضرة فى تنظيمها وقوانينها، قوية بجيوشها وراياتها التى رفرفت فوق كل بلادنا الإسلامية[1].

إن محمد على هو مؤسس مصر الحديثة، وما من أحد يجرؤ على أن ينتزع منه هذه الصفة، حتى ورثة النظام الذى جاء نتيجة حركة الضباط الأحرار.

(1) Princesse Chivékiar d'Egypte, Mon pays, Paris. 1933, p. VIII.

الفصل الأول

العلاقات بين فرنسا ومصر
من القرن السادس عشر إلى الحملة على مصر

لقد كانت علاقات فرنسا بمصر منذ أن تم غزوها تقتصر جزئيا على علاقات فرنسا بالباب العالى، فمنذ أن صارت مصر إقليما عثمانيا بعد فتحها عام 1517، على يد السلطان سليم، الذى وضع نهاية لأكثر من 260 سنة من سيطرة المماليك، أصبحت كل أمورها السياسية تتم تحت رقابة القسطنطينية. ولذلك، فمن المفيد أن نسترجع تاريخ هذه العلاقات من أجل فهم الحدود التى التزم بها محمد على، وتلك التى تجرأ عليها فى هذا الصدد.

قبل أن يغادر السلطان سليم فى 10 سبتمبر 1517، مصر عين خيبرج، وهو مملوك شركسى قديم، حاكما عليها، الأمر الذى دفع الوزير الكبير يونس إلى الاندهاش لرؤية مملوك يحتل مثل هذا المنصب الرفيع فيبدى ساخرا هذه الملاحظة الجريئة:

> **لقد قام سليم فى الواقع، ولنقولها، بوعد المماليك الذين ساعدوه بالسماح لهم بأن يتمتعوا بإقطاعياتهم ويحتفظوا بممتلكاتهم[1].**

(1) *Précis de l'Histoire d'Egypte, Le Caire, 1933, t.III, p.16.*

وعندما مات السلطان سليم، أعلن قطايف ولاءه لخليفته السلطان سليمان، وبموت قطايف أصبح الحاكم يعين منذ ذلك الحين فصاعدا من قبل العثمانيين.

قام السلطان سليمان، المعروف لدى الفرنسيين بالعظيم، ولدى العثمانيين بالقانونى[1]، بعقد معاهدة مع الملك فرانسوا الأول عام 1528، تؤكد الامتيازات الممنوحة من قبل السلاطين المماليك مثل:

- يمكن لفرنسا أن تغير قناصلها فى مصر[2]، شأنها فى ذلك شأن أى مكان توجد به قناصل لها.

- لفرنسا الحق فى أن تكون لها كنائس[3].

وهكذا تزايد تأثير فرنسا على الباب العالى أكثر فأكثر، وأصبح نظام الامتيازات الأجنبية نموذجا لكل الأمم الأخرى التى ترغب فى التعامل مع الباب العالى. ولذلك نجد تنويهات عديدة عن علاقات بين فرنسا وحاكم مصر، مثل تلك المقابلة التى تمت عام 1549، بين الباشا على المعروف *بالبدين* والسيد دارامون، الذى كان مكلفا من البلاط الملكى فى فرنسا بأن يطلب من الباب العالى السماح له بتصدير خمسة آلاف قنطار من البارود له وبشراء خمسة

---

(1) أى المشرع.

(2) كان أول قنصل لفرنسا فى مصر هو فيليب دو باريتيه الذى عينه شارل الثامن، وأبقى عليه لويس الثانى عشر، وقد استمر يمارس مهامه بعد فتح السلطان سليم *in Hanotaux (G.), Histoire de la nation égyptienne, Paris, 1934, t.V, p.156*

(3) نضيف هنا أنه فى عام 1581، لم يكن الأجانب المقيمون فى الإمبراطورية يخضعون لضريبة الرؤوس (الجزية فى الشريعة الإسلامية – المترجمة) بحجة أنهم مسيحيون. انظر *Précis de l'Histoire de l'Egypte,*، مرجع سابق. *t.III, p.50*

وعشرين جوادا منه للملك. ولما لم يتلق أى رد من السلطان قرر الذهاب للتباحث مباشرة مع حاكم مصر لكن مساعيه لم تكلل أيضا بالنجاح[1].

فى القرن السابع عشر كان التجار الفرنسيون المقيمون فى الإسكندرية والقاهرة يعيشون تحت الولاية القضائية لقنصل مقيم بالقاهرة، حيث توجد الجالية الأكبر عددا:

> **كانوا يتلاقون بصفة مستمرة فى قداسات القنصلية، والأعياد الخاصة بالاحتفال بولادة ولى العهد أو انتصارات ملك فرنسا[2].**

وللإقامة فى أحد أساكل المشرق[*] كان لابد من الحصول على تصريح من غرفة تجارة مارسيليا، وكانت مدة الإقامة عام 1731 محددة بعشر سنوات ثم أصبحت خمس عشرة سنة عام 1748. أما غرفة تجار أسكل القاهرة فقد كانت دائما محدودة العدد، حيث كان عدد التجار 22 تاجرا عام 1632، وهو نفس عددهم عام 1691[3].

---

(1) المرجع السابق ص 25.

(2) *Carré (J.M.), Voyageurs et écrivains français en Egypte, Le Caire, 1956, t.I, p.17.*

(*) أساكل المشرق هي مرافئ أو مدن الإمبراطورية العثمانية الموجودة فى الشرق الأدنى أو شمال أفريقيا التى منحها السلطان العثمانى بعض الامتيازات لصالح التجار الفرنسيين، وكلمة أسكل كلمة تركية تعنى مرفأ أو رصيفا ترسو عليه أو تنطلق منه السفن التجارية. (المترجمة)

(3) مرجع سابق، ص. 177 *Hanotaux (G.)*

ورغم الظروف الصعبة تمكنوا من الحفاظ على تجارتهم من خلال الاتجار بصفة خاصة فى منسوجات ليون الحريرية، وأقمشة لانجودوك وتصدير البن، الأمر الذى عاد عليهم بأرباح مجزية.

وكانت العادة أن كل قنصل جديد يتم استقباله من قبل الحاكم العثمانى، فعلى سبيل المثال فى 11 يوليو 1647، تم استقبال السيد م. دو برموند[1]، وكان بصحبته كل التجار الفرنسيين، من قبل الوالى الذى:

> **كان ينتظره على مقعد من الخشب المذهب المحفور، مرتديا ثوبًا أحمر مبطنًا بفرو القاقم. لم ينهض الوالى من مكانه وإنما أجلس السيد برموند على أريكة أسفل كرسيه قبالته مباشرة. وبعد أن ألقى خطبته أحضروا له سترة من الدمقس ذات لون فضى ومزينة بأوراق شجر كبيرة مذهبة[2].**

ودائمًا ما كان يتم تنظيم مثل هذا الاحتفال من خلال بروتوكول شديد الدقة.

---

(1) شغل العديد ممن حملوا لقب برموند منصب القنصل العام لفرنسا فى مصر: كريستوف دو برموند (1637-1650 ومن 1653-1658)، هونوريه دو برموند (1664-1670)، مارك - أنطوان دو برموند (1670- 1671).

(2) مرجع سابق ص35 *Précis d'Histoire d'Egypte*,

لقد كانت الامتيازات تواجه صعوبة في تطبيقها فى مصر خلال القرن السابع عشر، ولذلك أوصى الفارس دارفيو(*) فى مذكرة له قدمها إلى لويس الرابع عشر عام 1670، بضرورة وجود معتمد فرنسى يجوب مرافئ المشرق ليحافظ على تطبيق الامتيازات الجديدة. ولقد لاحظ أنه بطبيعة الحال يكون الأمر أصعب فى مصر عنه فى غيرها وأن على الممثل الفرنسى أن يتعامل مع كل من الوالى والبكوات المماليك، الذين فى الواقع سرعان ما استعادوا السلطة التى لم يكن يمارسها الوالى المعين من قبل الباب العالى إلا بشكل صورى.

وفى سياق التنافس الفرنسى – التركى فى البحر الأبيض المتوسط، كان لويس الرابع عشر يفكر فى غزو القسطنطينية[1]، بل وأيضا غزو مصر. بالنسبة لمصر، كان الأمر قد بدأ يرتسم عندما رفع ليبنيتز لوزير الملك، أرنو دو بومبون، مذكرة محررة باللاتينية قال فيها: – *De expeditione Regis –Franciae proponenda leibnitii justa dissertation*. لقد اقترح ليبنيتز(**) إستراتيجية لغزو مصر طبقت لاحقا من قبل حكومة الديركتوار(***):

(*) ولد دارفيو بمارسيليا وسافر إلى سوريا وفلسطين وشبه الجزيرة العربية، حيث درس لغات وتاريخ شعوب المشرق. عين مبعوثا فوق العادة بالقسطنطينية ثم تونس، ثم عين قنصلا بالجزائر ثم حلب ومن أعماله مذكرات الفارس دارفيو. (المترجمة)

(1) *Bilici (F), Louis XIV et son projet de conquête d'Istanbul, Ankaram 2004.*

(**) ليبنيتز: (*Leibnitz*) هو جوتفريد فيلهلم ليبنيتز، وهو فيلسوف ألمانى وعالم طبيعة ورياضيات ودبلوماسى. يعد واحدا من أهم أنصار العقلانية فى القرن السابع عشر جنبا إلى جنب مع ديكارت وسبينوزا، فقد استشرف فى أعماله المنطق الحديث والفلسفة التحليلية. له عدة كتابات فى مجالات السياسة والفلسفة والقانون والأخلاق والتاريخ. (المترجمة)

(***) الديركتوار: هى سلطة تنفيذية أسسها الدستور فى العام الثالث للثورة الفرنسية، واستمر عملها من 26 أكتوبر 1795 إلى 9 نوفمبر 1799. (المترجمة)

ثمة فطنة عميقة تؤكد، سيدى، نجاح حملة سبق أن قام بها أجدادك[1].

نبذ بومبون اقتراح الفيلسوف قائلا:

لم تعد الحروب المقدسة مطابقة لذوق العصر منذ القديس لويس[2].

لقد كانت مصر تعيش خلال القرن الثامن عشر فترة من الاضطرابات الشديدة، إذ كان قرنا من الصراعات الضارية والدموية بين البكوات المماليك والولاة العثمانيين. فما بين عامى 1763 و1777، نصب على بك[3](*) نفسه (واليا) وحاول غزو سوريا، بل وسك عملة باسمه وطالب باستقلال مصر[4]. وبعد وفاته عام 1777، سقطت مصر من جديد فريسة للاضطرابات، واستغل الباب العالى فرصة الصراع بين البكوات المماليك ليحتفظ لنفسه بشكل ما من السلطة. لقد كان على بك رائدا للسياسة التى انتهجها محمد على فيما بعد.

---

(1) *Mémoires de Leibnitz à Louis XIV sur la conquête de l'Egypte, Paris, 1840, p.4.*

(2) *Charles Roux (F), Les origines de l'expédition d'Egypte, Paris, 1910, p.22.*

(3) ولد عام 1728، بالقوقاز وتم شراؤه باعتباره عبدًا، وقد عين أولا حاكما لمقاطعة ثم أصبح واحدا من البكوات المماليك الأربعة والعشرين. اعتلى السلطة فى مصر عام 1766، وأدار الحكم بصلابة وكان يشمل الأوربيين برعايته، وقد توفى عام 1777.

(*) وهو المعروف فى التاريخ المصرى بعلى بك الكبير. (المراجع)

(4) لقد أراد على بك، باعتباره كريم الأخلاق صاحب السلطة الأعلى، أن يثبت بقيادته الإدارية أنه كان حقا جديرا بها؛ لقد وضع الجميع أمام قضاء عادل، وطهر الأقاليم من لصوص الأراضى الزراعية، والتزم بما فيه المنفعة للشعب الخاضع له، وكان الجميع يشكر له قيامه بإحلال الهدوء محل نكبات حرب طويلة من الدسائس والمؤامرات *in Marcel (J.J.) p.232* .

ثمة اثنان آخران من البكوات المماليك هما إبراهيم بك[1] ومراد بك[2]، وقد اتفقا، رغم المعارك المستمرة بينهما، على تحقيق كل المكاسب الممكنة من مصر، وذلك بالاتفاق مع الحاكم الذى كان يحصل على نصيبه هو الآخر. فى عام 1786، عقب عملية نهب أثارت سكان الحسينية بالقاهرة، رد أحد البكوات المماليك على إبراهيم بك بأسلوب متعجرف قائلا:

> **كلنا لصوص. أنت تسرق، ومراد يسرق وأنا أيضا أسرق[3].**

عند وصول بونابرت، كان البكوات المماليك أصحاب الأمر والنهى الحقيقيين فى مصر:

> **فرغم كونهم خصوما حول أطماعهم ومتحاسدين فيما بينهم فإنهم توحدوا فيما اتصل بمصالحهم من أجل الحفاظ على السلطة، وذلك رغم انقسامهم وارتيابهم ونفورهم المتبادل وطباعهم المتعارضة[4].**

---

(1) ولد فى شركسيا نحو عام 1735، واستولى على السلطة فى مصر بالاتفاق مع مراد بك عام 1776، وأثناء الحملة الفرنسية على مصر ترك مراد بك يحارب الفرنسيين وحده، بل وحرَّض على إشعال ثورة القاهرة ولم يدخل إلى العاصمة إلا بعد اغتيال كليبر عام 1800، وقد انسحب إلى الصعيد بعد استيلاء محمد على على الحكم وتوفى عام 1817.

(2) ولد فى شركسيا عام 1750، واستولى مع مراد بك على مصر، وقد ارتكبا معا كل أشكال السلب والنهب بل وقاما بالاعتداء على القنصل الفرنسى، مما كان ذريعة لإرسال الحملة الفرنسية على مصر. وبعد هزيمته فى موقعة الأهرام عقد اتفاقا مع كليبر بشأن حكم الصعيد، ومنذ هذه اللحظة أصبح مراد بك نموذجا للإخلاص للفرنسيين، وكان يدعمهم بالمساعدات فى مواجهة الأتراك، وقد توفى عام 1801 مصابا بالطاعون.

(3) *Raymond (A.), Egyptiens et Français au Caire au XVIIIes, Le Caire, 1998, p.25*

(4) مرجع سابق *Marcel (J.J.)*247

وعلى الرغم من أن العلاقات مع الباب العالى كانت شديدة التوتر، فإنها كانت مستمرة من خلال الوجود الصورى لحاكم عثمانى بالقاهرة:

> **إن الباشا، الذى لم يكن يمارس إلا دورا تمثيليا اعتبارا من العام 1791، كان غائبا تقريبا عن الساحة السياسية، لقد كان هناك بلا ريب ولاء عثمانى وثقة فى قوة وعدالة الباب العالى كما لو أن الإخفاقات العسكرية التى تقع منذ قرن من الزمان لم تكن قد بدأت من الأساس. ورغم رخاوة العلاقات بين مصر والباب العالى بالفعل، ورغم ضعف الباشا، فإنه كان رمزا لانتماء مصر إلى الإمبراطورية[1].**

لقد كان البكوات المماليك يرتكبون حماقة الاعتداء على التجار الأوربيين، ولذلك طلب الفرنسيون الحماية من قنصلهم السيد ماجالون[2]، الذى أرسل إلى حكومة الديركتوار تقريرا كان إحدى ذرائع إرسال الحملة إلى مصر[3]. فلقد بدا فى رسالتين له مؤيدا لفكرة؛ أن تغيير شاملاً فى النظام هو

---

(1) *Raymond (A.)*، مرجع سابق، ص 23.

(2) ولد شارل ماجالون بمارسيليا فى 30 مايو 1741، وتم إرساله إلى القاهرة باعتباره ممثلاً عن بيت باردون، وقد نجح فى هذه المهمة، وعندما أصبح نائبا للأمة أبرز فى هذه الوظيفة مزيدا من الحماسة والذكاء والعمل الذى لم أره فى أحد من سابقيه دونه أميرا فى 29 أكتوبر، وذكره *Hanotaux (G.)* مرجع سابق، ص 141.

(3) *Cattaui (R.et G.), Mohamed-Aly et l'Europe, Paris, 1950, p.16.*

وحده الذى سيسمح بتأمين حماية كاملة للتجار، وفى 29 من بريريال(*) من العام الثالث (17 يونيو 1795) كتب إلي فيرنياك مبعوث الجمهورية بالقسطنطينية يقول:

إن الجمهورية قوية بالقدر الذى يمكنها من أن تعيد إلى الصواب بعض الأفراد الذين لا يشتركون فيما بينهم إلا فى الغطرسة والافتقار إلى القوة الحقيقية، أناشدك أيها المواطن ألا تتهاون بشأن الوسائل التى تمنح بها مصر إلى فرنسا، فلسوف تكون واحدة من أجمل الهدايا التى يمكنك أن تهديها إليها، ولسوف يجد الشعب الفرنسى فى هذا الاقتناء موارد هائلة(1).

وفى 9 من فنديميير(**) من العام الرابع (1 أكتوبر 1795) عاد وكرر براهينه مسهبا فيها فى رسالة بعث بها إلى كولشين، مفوض العلاقات الخارجية:

(*) فى أكتوبر 1793، اتخذت فرنسا تقويما جديدا، فقد كان جزءا من الحركة الثورية أن يستبدل بالرموز المسيحية رموزًا أكثر ملاءمة للثورة، وقد ارتكز التقويم الجديد على فصول السنة. فالسنة تبدأ فى 22 سبتمبر (تاريخ إعلان الجمهورية الفرنسية فى 1792) وتتكون من 12 شهرًا كل شهر 30 يومًا والشهر يتكون من 3 أسابيع كل أسبوع عشرة أيام، وبقية الأيام وعددها خمسة خصصت للعطلات القومية، وبريريال هو الشهر التاسع، وهو الشهر المرعوى ويمتد من 20 مايو إلى 18 يونيو. (المترجمة).

(1) مرجع سابق، ص 217 *Hanotaux (G.)*

(**) هو شهر القطاف. (المترجمة)

لقد أكدوا لى أيها المواطن؛ أنه أثناء الحكومة، التى ألغيت لتوها، قد راودتهم عدة مرات فكرة الاستيلاء على مصر، لمعرفتهم جزئيا بالمزايا التى يمكن الحصول عليها من هذا البلد الرائع عبر التجارة التى يمكن أن تمتد وتبلغ موارد لا تحصى[1].

وأخيرا فى تقرير عام 1797 (25 من بلوفيوز[*] من العام السادس) أدان قناصل الدول الكبرى الأخرى لحثهم البكوات المماليك على الاعتداء على المصالح الفرنسية. لقد وضع ماجالون فى تقاريره مجموعة متكاملة من البراهين التى تجعل من غزو مصر أمرا مشروعا.

ليس من أهدافنا تناول الحملة الفرنسية على مصر. لقد اقتفت الثورة الفرنسية آثار الجمهورية الرومانية باعتبارها منبعا لذكريات العصور القديمة. أولم تكن مصر هى أجمل ممتلكات الجمهورية الرومانية؟ لقد حقق كل غزاة العصور القديمة شهرة فيها: الإسكندر الأكبر، وبومبيوس الكبير، وقيصر وأنطونيوس[**].

(1) المرجع السابق، ص 218.

(*) هو شهر المطر. (المترجمة)

(**) تذكر المؤلفة هنا عددا من الغزاة الذين حققوا شهرة لهم فى مصر مشيرة إلى الإسكندر، وهو الإسكندر المقدونى المعروف بالإسكندر الأكبر (21 يوليو 356 ق.م. 13 يونيو 323 ق.م.)=

=حاكم الإمبراطورية المقدونية وقاهر الإمبراطورية الفارسية، وواحد من أذكى وأعظم القادة على مر العصور، وقد تعلم على يد الفيلسوف الكبير أرسطو. قدم إلى مصر فى ربيع عام 331 ق.م. حيث قام بالحج إلى معبد إله الشمس آمون-رع ، معتقدا أنه ابن إله الشمس؛ وقد أتى الحج الذى قام به بثماره، فنصبه الكهنة فرعونا على مصر وأحبه المصريون وأعلنوا له الطاعة والولاء، واعتبروه واحدا منهم ونصبه الكهنة ابنًا لآمون، حيث لبس تاج آمون وشكله كرأس كبش ذى قرنين، فلقب بذلك "الإسكندر ذو القرنين". أما بومبيوس الكبير (106 ق.م روما-46 ق.م الإسكندرية) فهو أحد القادة العسكريين الذين برزوا فى أواخر عصر الجمهورية الرومانية، وهو ينحدر من أسرة رومانية عريقة. بعد انتصار يوليوس قيصر ونشوب الحرب الأهلية بين الرومان، فر بومبيوس إلى الإسكندرية التى كان يرتبط بحكامها الفراعنة بعلاقات جيدة، ولكن عند وصوله إلى الإسكندرية وأثناء تفاوضه مع مستشارى بطليموس الثالث عشر، وصلت أنباء قدوم قيصر إلى مصر متتبعا إياه مما جعل مستشارى الفرعون يقتلونه باعتباره عدوا لقيصر، وذلك لتحسين علاقتهم معه وترحيب به، ولكن قيصر لم يكن سعيدا بهذه المفاجأة، حيث كان بومبيوس حليفه السابق مما دفع قيصر لقتل مستشارى الفرعون المسئولين عن اغتيال بومبيوس، وتنحية بطليموس الثالث عشر عن الحكم، وتقليد كليوباترا السابعة حاكمة. كما أشارت إلى قيصر والمقصود هو غيوس يوليوس قيصر الذى ولد عام 100 ق.م، فى عائلة عريقة من الأشراف الرومان، ويعتبر يوليوس قيصر من أبرز الشخصيات العسكرية الفذة فى التاريخ، وكان لانتصاراته العسكرية الفضل فى أن تصبح روما مركزا لإمبراطورية واسعة. تمكن من هزيمة غرمائه عام 49 ق.م، وعلى رأسهم بومبيوس الذى فر إلى مصر، حيث تعقبه يوليوس واكتشف أنه قتل بالفعل. وبالإسكندرية التقى يوليوس بكليوباترا السابعة التى أصبح حليفا لها، ثم ما لبث أن أنجب منها ابنه قيصرون. وفى عام 44 ق.م، اغتيل قيصر على يد عدد من أعدائه، بل ومن قبل آخرين طالما اعتبرهم أصدقاء. وأخيرا أنطونيوس وهو ماركوس أنطونيوس، وكان قائدا وسياسيًا رومانيًا ولد بروما نحو سنة 83 ق.م. ومات بالإسكندرية سنة 30 ق. م. كان من أهم مساعدى يوليوس قيصر قائدًا عسكريًا وإداريًا. تحالف إثر اغتيال قيصر مع أكتافيوس ولابيدوس، وإن أدت الخلافات بينهما إلى نشوب حرب أهلية سنة 31 ق.م. انتهت بهزيمة أنطونيوس وحليفته كليوباترا السابعة فى معركة أكتيوم البحرية انتحر على إثرها وذلك سنة 30 ق.م.

لابد من الذهاب إلى الشرق، فكل هذه الأمجاد العظيمة تأتى من هناك(1).

منذ حملته على إيطاليا، تحول عقل نابليون إلى مصر؛ لقد جاء نابليون إلى مصر ليجلب لها التقدم والأفكار التنويرية ويحررها من عبودية المماليك. وقد كان عدد من المثقفين الفرنسيين المعاصرين يشاركون نابليون طموحاته:

يروى الأكاديمى أرنو فى مذكراته، أن رغبة الرحيل كانت هياجا عاما فى باريس. لقد كان الأمر بمثابة جنون يشبه ذلك الجنون الذى تملك أجدادنا فى عصر الحروب الصليبية، حتى إن عددا كبيرا من الأشخاص قد توجه للحصول على حظوة الاغتراب(2).

ثمة فروسية جديدة قد بدأت فى الظهور، إذ لم تعد هى نفس فروسية النبالة المسيحية التى استُغيث بها للدفاع عن قبر المسيح، وإنما نبالة ثقافية وعسكرية. لقد كان هذا الجيش، بقيادة نابليون، يستهدف، فى إطار التوجه الفكرى لعام 1789، تأسيس إمبراطورية معارف عالمية، ولقد رأى المؤرخ المصرى محمود حسين(*) فى هذا الأمر:

---

(1) *La campagne d'Egypte, Mythe et realité, Catalogue d'une exposition au musée de l'Armée, 1998.p.21.*

(2) مرجع سابق، ص 143 ,*Précis de l'Histoire de l'Egypte*

(*) محمود حسين هو الاسم المستعار والذى اختاره الكاتبان المصريان بهجت النادى وعادل رفعت، ليكتبا تحته أعمالهما المشتركة وهما يعيشان فى فرنسا ويكتبان بالفرنسية، ومن أعمالهما التى صدرت مؤرخًا كتاب "السيرة *Al-Sira*" الذى حقق شهرة واسعة، ويتناول فيه الكاتبان سيرة محمد صلى الله عليه وسلم؛ كما صدر لهما من قبل "صراع الطبقات فى مصر" عام 1969، و"العرب فى الحاضر" عام 1974، وحوارهما الشهير مع المؤرخ الإسرائيلى ساءول فريدلاندر عام =

الصدام غير القابل للاختراق ومع ذلك كان خصبا بين آخر مولودة للمجتمعات الإنسانية وأكثر تلك المجتمعات قدما[1].

لم تكن أهداف الحملة واضحة: هل هي جعل مصر مستعمرة معدة لتحل محل المستعمرات التي فقدت أثناء الثورة، أم تصدير المعارف التنويرية لمنح مصر حكومة أفضل، أم قطع طريق الهند على الإنجليز، أم إثارة الجدل حول سيادة تركيا؟ لم يكن هناك في الواقع شيء محدد، لدرجة أنه في نهاية الأمر بدت الحملة، من الجانب الفرنسي، وكأنها مغامرة شخصية، هي بلا شك عظيمة بسبب ما أنجز من عمل، إلا أنه لم يكن لها أي تأثير سياسي على مصر. فلقد لوحظ خلال فترة الاحتلال الفرنسي أن:

النظام، في الواقع، كان نظام احتلال عسكري مرحبًا به، نظاما مؤقتا غير محدد على الإطلاق، وأنه لم يكن لا استعمارا بشكل كامل ولا حماية بشكلها المعروف[2].

لقد كان اعتداء فرنسا على مصر صدمة بالنسبة للسلطان سليم الثالث (1789-1807) الذي كان محبا لفرنسا، وكان قد بدأ منذ اعتلائه العرش في

=1974، و"السفح الجنوبي للحرية" عام 1988، و"بونابرت في مصر" عام 1998، الذي استعرضا فيه الصدام الحضاري بين مصر وفرنسا مظهرين انبهار كل طرف بالآخر، انبهار مصر بالمدنية الحديثة وانبهار فرنسا بالحضارة القديمة. (المترجمة والمراجع)

(1) *Sur l'expédition d'Egypte- Textes de Vivant Denon et d'Abdel Rahman el Gabarti commente par Mahmoud Hussein, Paris, 1998, p.9.*

(2) مرجع سابق ص 175 *Précis de l'Histoire de l'Egypte,*

تبادل الرسائل مع لويس السادس عشر، وهو أمر لم ينقطع إلا بموت الملك. بل لقد فكر فى تعيين ضباط فرنسيين لتحديث الجيش، وهو اقتراح راود بونابرت، حتى إنه فكر فى أن يرحل إلى القسطنطينية بعد أن عرض عليه ذلك. أكثر من ذلك، بعد الوفود الدبلوماسية العثمانية المرموقة إلى فرساى خلال القرن الثامن عشر، فكر سليم الثالث فى إيفاد سفير دائم إلى فرنسا. وقد وقع اختيار السلطان علىّ أفندى الذى وصل إلى باريس فى 13 يوليو 1797، وكانت فترة خدمته فترة كارثية؛ إذ كان لعبة فى يد تاليراند(*)، وعجز عن تنبيه حكومته بشأن الاستعدادات الفرنسية للقيام بحملة على مصر:

> **بعد أن علم فى يوم من الأيام، عقب احتلال الإسكندرية، باستيلاء الأسطول الفرنسى على مالطة، كتب إلى حكومته مبتهجا بالقضاء على الفرسان، الأعداء القدامى للعثمانيين، ومعلنا أن غزو الجزيرة هو الهدف الأسمى للحملة. وهو ما أثار تعليقا غاضبا من قبل السلطان سليم الثالث دونه على هامش البرقية يقول: يا له من حمار جرىء[1].**

(*) هو شارل- موريس دو تاليراند- بيريجور، وهو سياسى ودبلوماسى فرنسى عاش خلال الفترة من 1754 إلى 1838. بدأ حياته باعتباره رجل دين، ثم تقلد عدة مناصب سياسية ودبلوماسية، حيث كان وزيرا للعلاقات الخارجية تحت حكومة الديركتوار، ثم وزيرا للشئون الخارجية أثناء الإمبراطورية الأولى، ثم رئيسا لمجلس الوزراء أثناء الرستوراسيون، وقد اشتهر فى عصره بالذكاء والدهاء. (المترجمة)

(1) *Deux Ottomans à Paris sous le Directoire et l'Empire, récits traduits de l'ottoman, présentés et annotés par Stéphane Yérasimos, Paris, 1998, p.14 et 15*

منذ أن وصلت الأخبار الأولى عن أحداث مصر نبه الباب العالى السلطات الإقليمية باتخاذ إجراءات تجاه الفرنسيين، حيث تم إرسال فرمانات وخاصة إلى سالونيك(*) وإزمير(**) وخانيا(***)، كما كان هناك العديد من الفرمانات التى تحتوى على إجراءات تدريجية وفق تطور الوضع فى مصر.

فى البداية، دعت الحكومة العثمانية ممثليها إلى اتخاذ إجراءات اقتصادية ضد الفرنسيين لتعويض خسائرها المحتملة، والتى منيت بها فى مصر، مثل مصادرة سفن التجارة الفرنسية فى كل أرجاء الإمبراطورية. وفى أغسطس 1798، كانت الإجراءات المتضمنة فى فرمان جديد أكثر حسما، فقد أمر السلطان باحتجاز القناصل الفرنسيين، وبتحديد إقامة المواطنين الفرنسيين الآخرين المقيمين فى مختلف أنحاء الإمبراطورية، ومنعهم من التواصل فيما بينهم. وقد كان الفرمان الذى تم تعميمه والخاص بالنصف الأول من شهر أغسطس 1798، واضحا تماما:

ظهر منذ فترة أحد القادة الفرنسيين، وهو الجنرال المدعو بونابرت، فى البحر المتوسط بصحبة أسطول ضخم، وقد قام، بانقضاء اليوم

(*) سالونيك: هى مدينة يونانية تقع فى شمال البلاد، وهى عاصمة لإقليم مقدونيا الوسطى. (المترجمة)

(**) إزمير: هى ثانى أكبر موانئ تركيا وتسمى أيضا بلؤلؤة إيجة لوقوعها على الشاطئ الشرقى لبحر إيجة ولجمالها، وكانت تدعى قديما باليونانية سميرنا. (المترجمة)

(***) خانيا: هى مدينة يونانية تقع فى جنوب البلاد ضمن جزيرة كريت. (المترجمة)

> **السابع عشر من محرم، بالهجوم المفاجئ على الإسكندرية بمصر واختراقها والاستيلاء عليها بالقوة. وقد احتجز المسلمين والتجار غير المسلمين المقيمين فى إمبراطوريتى العظمى، بل وصادر قوارب التجار العثمانيين، رغم عدم تلقى أى إخطار من قبل الجمهورية بخصوص إنهاء السلام القائم بين إمبراطوريتى العظمى والفرنسيين[1].**

وبنهاية شهر أغسطس، صدر فرمان آخر يأمر بالقبض على الفرنسيين وحبسهم فضلا عن مصادرة أملاكهم.

فى نهاية الأمر، لم يكن للاحتلال الفرنسى سوى تأثير بسيط على الأفكار السياسية والاجتماعية والثقافية للمصريين، وكانت المزية الوحيدة للحملة هى أن:

> **الفرنسيون قد أعطوا الضربة القاضية لنظام حكومة كان قد بلغ مبلغه من الضعف. لقد كانت هزيمة المماليك هزيمة ساحقة حتى إن أى عودة للماضى كانت مستبعدة بعد عام 1801[2].**

---

(1) *Cabra (J.). Quelques firmans concernant les relations franco-turques lors de l'expédition en Egypte (1798-1799), Cahiers de la société asiatique, t.X.1938.*

(2) مرجع سابق، ص 367 *Raymond (A.)*

منذ القرن التاسع عشر، كتب جوان حول نتائج الحملة على مصر قائلا:

لقد كانت خصبة تلك البذرة التى زرعناها على عجلة من أمرنا[1].

وقد استعاد أندريه ريمون هذه الفكرة عندما كتب:

إن توجه مصر نحو الحداثة عام 1805، تحت سلطة محمد على لم يخل من صلة مع احتلال، جعل من إدخال نظام حكم جديد أمرا حتميا، كما دفع الشعب -علماء وعامة- إلى المعترك السياسى، ومثّل مرجعا للتحول المنظم للبلد[2].

بعد استسلام مينو ورحيل الفرنسيين فى أكتوبر 1801، أعادت معاهدة أميان مصر إلى السلطان. وفى 26 يونيو 1802، أعادت معاهدة باريس العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والباب العالى إلى ما كانت عليه. ولقد شملت هذه المعاهدة ثلاث نقاط أساسية:

- وقف العداء وإخلاء مصر (على القوات الإنجليزية مغادرة مصر قبل أغسطس 1802).

---

(1) مرجع سابق، ص 95 *Gouin (E.)*

(2) مرجع سابق، ص368 *Raymond (A.)*

- إطلاق سراح أسرى الحرب والدبلوماسيين المحتجزين فى أساكل المشرق.

- تجديد الامتيازات.

وبمجرد توقيع المعاهدة، اقترح تاليراند إيفاد قنصلين هما برناردينو دروفيتى إلى الإسكندرية وماتيو دو ليسبس إلى القاهرة.

الفصل الثاني

برناردينو دروفيتي وماتيو دو ليسبس

قنصلان وسط الاضطرابات

وصل برناردينو دروفيتي[1]، وماتيو دو ليسبس[2]، إلى الإسكندرية في 2 يونيو 1803، إلى بلد تعصف به الاضطرابات. فقد كان الأتراك يحتلون تماما شمال البلاد بأكمله، ويسيطرون على القاهرة والإسكندرية، بينما كان المماليك يضعون أيديهم على الصعيد. لقد كان البكوات المماليك يأملون استعادة نفوذهم الذي كانوا يتمتعون به قبل دخول الفرنسيين، أما الأتراك فقد كانوا يرغبون في استرداد إقليم لطالما كانت سيطرتهم عليه سيطرة صورية. ومما زاد الأمور تعقيدا هو؛ أن الأتراك كان معهم جنود إضافيون من الألبان وكانوا لم يتقاضوا رواتبهم منذ شهور، لذا أصبحوا عبئا ثقيلا بل وغير متوقع؛ وقد وجد هؤلاء زعيما لهم هو محمد علي.

---

(1) برناردينو دروفيتي (1776-1852) شغل منصب قنصل بالإسكندرية حتى مارس 1807، لينقل إقامته بعد ذلك إلى القاهرة ويستقر بها حتى سبتمبر 1814. وقد أصبح قنصلا خلال الفترة ما بين 1821 إلى 1829، بعد أن كان مغضوبا عليه في بداية الرستوراسيون. نشرت أخيرًا مراسلاته الخاصة والتي تحمل عنوان: رسائل برناردينو دروفيتي، وقدمتها وعلقت عليها سيلفي جيشار، باريس، 2003.

(2) ماتيو دو ليسبس (1774-1832) شغل لدى عودته إلى فرنسا عام 1804 عدة مناصب مهمة في إدارة الإمبراطورية حتى 1814. عين خلال المائة يوم حاكما بلقب كونت لمقاطعة كنتال، غير أنه أقيل أثناء الرستوراسيون ليعود إلى استئناف عمله عام 1817.

أما دو ليسبس فقد استقر بالإسكندرية ثم غادرها فى يوليو ليستقر بالقاهرة تاركا دروفيتي وحده.

لقد وجدوا عنتا فى تحليل موقف دو ليسبس الذى اعترف بعجزه فى هذه الرسالة الموجهة إلى برون:

أحاول جاهدا ألا أفقد تسلسل أحداث كثيرة
فى متاهة جعلتها كثرة المصالح المتعارضة
والدسائس الغريبة تكاد تكون لا مخرج منها[1].

بدأ دو ليسبس بمجرد استقراره فى القاهرة بقصر الأزبكية محادثاته مع البيكين المملوكين إبراهيم بك وعثمان بك البرديسى[2]. كان البكوات المماليك يسعون إلى تحالف مع بونابرت ويأملون فى الحصول على رد من ذلك الذى أصبح فى هذه الأثناء قنصلا أول. لقد كان السلطان الكبير دائما حاضر فى الأذهان، ولذلك فقد اندهش ماتيو دو ليسبس لتوزيع كم هائل من صور القنصل الأول على شيوخ القاهرة ووجهائها.

لقد كان مطلب الزعماء المماليك ملحا:

---

(1) *Douin (G.), l'Egypte de 1802 à 1804, Le Caire, 1925, p.59.*

(2) أكثر المؤيدين المماليك للفرنسيين. كانت ثقته فى ممثلى فرنسا كبيرة جدا، لدرجة أنه عشية موته كان لا يزال يرى أن انخفاض قدر المماليك ليس إلا نتيجة لقلة الأهمية التى أعطاها البكوات المماليك الآخرين لوعود فرنسا. قام مماليكه من أجل تمجيد ذكراه بكسر أسلحتهم وقتل خيولهم عند قبره لاعتقادهم بأن أحدا لا يستحق أن يخدم بعده.

إذا أراد مساعدتنا سرا ودون الاختلاف مع الباب العالى فإن مساعداته ونصائحه ستجعل منا قوة لا تقهر. إذا ما أيد صراحة استقلالنا فلسوف نقاتل من أجله فى النهاية، فليفرض علينا شروطا وسوف نلتزم بها[1].

لم يستجب نابليون لنداءات البكوات المماليك الذين سرعان ما تحول بعضهم نحو إنجلترا.

نتيجة لذلك فقد عمل القنصلان، اللذان لم يعودا يستفيدان من حماية المماليك، على التقرب من الألبان ذوى القوة العظيمة وزعيمهم. إن هذا القرب الذى سعى إليه ماتيو دو ليسبس فى بداية الأمر لضمان أمنه، سمح له بالاقتراب من محمد على، وأن يستشعر بسرعة جدا طموحات الروميلى[*]. لقد كتب فى يناير 1804 إلى تاليراند يقول:

---

(1) *Faivre d'Acier (A.), Les agents de Napoléon en Egypte (1801-1815), Paris, 1990, p.72 et 73.*

(*) نسبة إلى روميليا، وهو الاسم المستخدم بدءا من القرن الخامس عشر للإشارة إلى الجزء الخاضع للسيطرة العثمانية من شبه الجزيرة البلقانية، وهى تحديدا المنطقة التى تحفها بلغاريا من الشمال وألبانيا من الغرب والمورة من الجنوب. وقد أعطى الاسم أيضا إلى الإقليم المكون من وسط ألبانيا وغرب مقدونيا. ومع معاهدة برلين 1878، أصبح شرق روميليا إقليما مستقلا عن الإمبراطورية العثمانية، ثم ضم إلى بلغاريا عام 1885، واليوم يطلق الاسم على الجزء الأوروبى من تركيا. (المترجمة)

> **بإمكانى أن أؤكد لكم مسبقا أن مشروعه لم يعد به التباس، وأنه يريد الاستيلاء على السلطة العليا[1].**

استشعر دروفيتى مثله فى ذلك مثل دو ليسبس بأنه، هو الذى سينتصر فى النهاية؛ وانطلاقا من هذا الاقتناع انخرطا فى مجازفات كبيرة وصلت إلى حد مخالفة الأوامر الصادرة من فرنسا بل وتفسيرها على هواهما. كانا يتصرفان بسرية ويؤيدان بشكل واضح باشا المستقبل. ولذلك، عندما لاحظ محمد على، أثناء عرض عسكرى بالجيزة، جماعة من المماليك الفرنسيين تنتمى إلى ألفى بك[2]، وتحت قيادة سليم دافينيون المعروف بكومب، طلب من دروفيتى، وقد انبهر بهذه الجنود، أن يقنعهم بالانضمام إلى خدمته. وهو ما أسفر عن:

> **فوز م. دروفيتى بخمسة وعشرين مملوكا فرنسيا غادروا ألوية الألفى لينضموا إلى ألوية محمد على[3].**

---

(1) *Douin (G.), op.cit, p.173.*

(2) تم بيع ألفى بك إلى مراد بك عام 1773، مقابل ألف مكيال من القمح، ويعد موقعة الأهرام، انسحب إلى الصعيد مع مراد بك. كان ذا شخصية غريبة الأطوار، فقد أفلس بسبب عمليات البناء وشراء العبيد، وتوفى بالطاعون عام 1807.

(3) مرجع سبق ذكره ، ص 5 ,*Marcel (J.J.)*.

ضم دروفيتى دون تعاطف المماليك الفرنسيين إلى محمد على؛ لأن ألفى بك كان يناصر الإنجليز جهرا. وقد فسر ألفى بك لدروفيتى اختياره عقب أوسترليتز قائلا:

كنت انظر إلى قوة نابليون على أنها قوة زائلة. فإذا كان قد انتصر على الروس والنمساويين فإنه من المستحيل أن يقهر فى المقابل الإنجليز. أنا لا أحب الفرنسيين؛ وهذه العداوة لها سببان لدىّ: أولا لأنهم دمروا قوة المماليك، وثانيا لأنهم أعداء الإنجليز؛ وبما أنهم أعداء الإنجليز يصبحون أعدائى[1].

وفى 1803، أقنع الإنجليز ألفى بك وأرسلوه إلى إنجلترا؛ حيث ذاع صيته فى صالونات لندن. كان يقبل كل شروط الإنجليز بشأن محطة انغراسهم المستقبلى، بل واعتبر نفسه بالفعل ملكا:

كان قد اقتنى مقدما أثاثا لمنزل ملكى على الذوق الأوربى[2].

---

(1) *Douin (G.), L'Angleterre et l'Egypte, la politique mamelouke (1803-1807), Le Caire. p.143.*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 129 *Gouin (E.).*

فى الأول من فبراير 1804، عاد إلى مصر ونزل بأبوقير بفرقاطة إنجليزية، ثم ارتحل قاربا شراعيا يرفرف عليه العلم الإنجليزى متقدما نحو النيل باتجاه القاهرة، عندما قطع عليه الألبان بقيادة محمد على الطريق وسرقوا ما معه. نهب أثاث ألفى بك الذى أتى به معه من لندن، فضلا عن مجوهراته وبعض الأغراض الأخرى الثمينة التى سرعان ما بيعت فى القاهرة:

لم يعان إلا من فقدان أمتعته التى كانت ذات قيمة لا تقدر بثمن[1].

فى ذلك الحين تسارعت الأحداث، فقد غادر ماثيو دو ليسبس القاهرة إلى الإسكندرية بعد تعرضه لمحاولة اغتيال، وقام الألبان بطرد المماليك من القاهرة، بينما لعب محمد على لغرض سياسى، بورقة الشرعية عندما أعاد الحاكم العثمانى خورشيد باشا إلى منصبه بالقاهرة. لكنه سرعان ما انصرف إلى عمليات النهب والسلب، بل وطالب بفدية نظير الست نفيسة الموقرة زوجة مراد بك. ولما ازداد حنق كبار شيوخ القاهرة التقوا محمد على لعزل خورشيد باشا[2].

تساءل دافيد أوكوهار عام 1834، حول فرص محمد على بعيدة المدى فى الاحتفاظ بالسلطة:

---

(1) المرجع السابق ص129.
(2) غادر مصر فى أكتوبر عام 1805، وهو ينطق بهذه الكلمات التنبؤية: أترك خلفى رجلا سيصبح أكثر ثوار الإمبراطورية تميزا. لم ير سلاطيننا سياسيا بمثل هذا الدهاء ولا رجلا بمثل هذه الفاعلية.

تحفل سجلات الإمبراطورية العثمانية منذ سنوات طويلة بثورات الباشوات الذين استطاعوا، عن طريق وسائل قد تكثر أو تقل، وفى خلال وقت قد يطول أو يقصر، الإفلات من سيطرة الباب العالى، وكونوا تحالفات مع الخارج، وغزوا أقاليم أخرى، بل واعتبروا فى الخارج مؤسسين لممالك جديدة، لكنهم جميعا ودون استثناء انتهى الأمر بهم بالهزيمة. ويعزى سبب سقوطهم إلى تطابق مصالح شعوبهم مع هؤلاء الذين ثاروا[1].

ثم أضاف فى موضع لاحق أن محمد على لم يكن ليستمر فى تمرده إلا بـ:

الاحتفاظ بالسيف وحده[2].

لم يأخذ تحليل أوكوهار فى الاعتبار تفرد استيلاء محمد على بالسلطة. لقد كانت الثورات داخل الإمبراطورية العثمانية أمرًا شائعًا، بعضها تخطى طور المطالب العارضة إلى المطالبة بنظام مستقل أو شبه مستقل، لكن واحدة منها لم تبلغ حد تسمية باشا منتخب من قبل الشعب، صدق عليه السلطان مثلما

---

(1) *Uquhard (D.), le sultan et le pacha, Paris, 1839, p.14 et 15 (1ère edition en anglais en 1834).*

(2) المرجع السابق ص 16.

حدث فى مصر. لقد منحته هذه الشرعية من جهة المدة الزمنية ثم من جهة أخرى إمكانية تأسيس عائلة مالكة لاحقا. وهذا هو مكمن تفرد ثورة محمد على.

الفصل الثالث

محمد عليّ بين الأسطورة والواقع

روى "هامون: *Hamont*[1]" في مذكراته أن محمد على كان يحب أن يحكي لزواره وقائع من حياته قبل وصوله إلى مصر. كان يروق للباشا أن يلقى الضوء على مصادفتين رمزيتين، وهما، أنه ولد في نفس العام الذى ولد فيه نابليون وفى بلد الإسكندر الأكبر، أى أنه معاصر لأحدهما ومواطن للآخر. كان محمد على عندما يلتقى بمسافرين أو دبلوماسيين يتحفهم بطرائف حول طفولته أو حياته في مقدونيا، وهى طرائف كانت تتردد مع كل علاقاته مع المسافرين، وأسهمت كثيرًا فيما اصطلح على تسميته الدعاية له فى أوربا. لقد كان الباشا، انطلاقا من حرصه على صورته، يدير خطته "الإعلامية"؛ فقد كان يقوم بقراءة معظم الصحف الأوربية متابعا الانتقادات اللاذعة إلى حد ما التى توجه لشخصه.

وأثناء الاجتماعات، كان محمد على يربك المكان بتركيزه على قصته الرسمية التى كان يقص جزءا منها على كل حاضر.

كانت حبكة قصته التى يرغب فى نشرها هى التالية: أنه ولد فى قولة بمقدونيا، وتيتَّم صغيرا، وأن حاكم قولة قرَّبه منه وزوَّجه بقريبة له ثرية منحته

(1) أسس المدرسة البيطرية ودوّن مذكراته فى مصر تحت حكم محمد على *l'Egypte sous Méhémet Ali, Paris, 1843*.

إمكانية البدء فى تجارة التبغ. وأنه كان يختلف إلى السيد ليون، ممثل أحد البيوت التجارية فى مارسيليا، وهو أول من جذب اهتمامه بفرنسا[1].

وفى المقابل، لم يترك سوى القليل من المعلومات عن الأحداث التى وجهت حياته فى الفترة ما بين وصوله إلى مصر، واعتلائه بشلقّيتها عام 1805.

تلزمنا كل بلاغة جوان لتلخيص ما قام به خلال هذه الفترة:

كان ثعلبا فى بعض الأحيان، وأسدا دائما. فقد قلب العثمانيين على المماليك، والمماليك على الألبان، والألبان على المصريين. أسر الألباب، وقضى على أربعة حكام دون أن يخشى الجلوس بدوره على عرش غير مستقر بهذا الشكل. لقد قيل إن اعتلاء هذا العرش يعد عملا رائعا، غير أن البقاء عليه معجزة[2].

(1) انجذب لرقة روح مواطنه الصغير الذى جعله الشقاء أكثر إثارة للاهتمام، وبادله مواطننا محبة أبوية خالصة، وهكذا بدأت بذرة الود التى وجدها الفرنسيون لدى سيد مصر *in Gouin (E.),* ، *مرجع سبق ذكره، ص 154.*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 153 *Gouin (E.),*

أثناء حكم الملك فؤاد الأول[1]، ظهرت تحت رعايته أعمال[2] مختلفة ركزت، مع تكرارها للوقائع التقليدية لطفولة مؤسس الأسرة، على أمر جديد بشأن طفولة الباشا. فلقد أعطى الملك فؤاد، الذى كان يرغب فى أن يصبح ملكا لألبانيا، أصولا ألبانية لجدّه دونما أى تبرير.

ولذلك، فمن أجل رسم صورة أكثر دقة للباشا، لابد من التخلص من الروايات المعاصرة التى تكاد تكون شبه مفروضة من قبل محمد على، كما يجب توخى الحذر إزاء الكتابات اللاحقة الخاضعة لمنطق الأسرة الحاكمة.

إذا كان الفرنسيون يتناقلون، دون نقد، الطرائف المنتقاة ببراعة من قبل الباشا، فإن الإنجليز على النقيض، أكثر تشككا حول طبيعة ما يبوح به من تصريحات.

ولذلك فإن جون بيكر، القنصل الجديد بالإسكندرية الذى جاء يقدم أوراق اعتماده، اندهش لرؤية الباشا وقد بدا وكأنه نسى سبب زيارته، وأخذ يلقى عليه تصريحات عن ماضيه. لقد كتب الإنجليزى بعد هذا الاجتماع:

Rather, it constituted part of stories and performances that were meticulously performed to influence the views of these European visitors[3][*]

---

(1) سلطان ثم ملك مصر (1917-1922-1936)، هو ابن الخديو إسماعيل الذى كان حفيدا لمحمد على.

(2) كلف الملك فؤاد أكاديميين فرنسيين أو مؤرخين فرنسيين ومصريين بإعداد أعمال حول تاريخ أسرته الحاكمة. وقد قام صهره، محمود باشا فخرى، سفير مصر بباريس، بالتنسيق للأعمال المؤلفة فى فرنسا. ألف الجنرال ويجاند كتابا باسم- *Histoire Militaire de Mohamed Ali et ses fils, Paris, 1936* - التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه، أما الأميرال دورراند - فيل فقد ألف *Campagnes navales de Mohamed Ali et d'Ibrahim, Paris, 1935.* الحملات البحرية لمحمد على وابراهيم.

(3) *Cité par Fahmy (k.), All the Pascha's Men, Université Américaine du Caire, 2002, p.3.*

(*) إن الأمر بالأحرى يمثل جزءا من القصص والإنجازات التى تمت صياغتها بمنتهى الدقة للتأثير على آراء هؤلاء الزوار الأوربيين. (المترجمة)

إن أول أمر يثير الشك هو؛ ما يخص عام ميلاده: 1769. لقد لاحظت أوليمب أودوارد[1]، وهى فى أغلب الأحيان لاذعة ومذيعة للنمائم، الآتى:

كان محمد على نفسه كثيرا ما يسعى لاكتشاف السنِ التى يبلغها، وذلك بناء على ما سمعه يقال لوالديه[2].

كما أوضح مارسيل[3] نفس الحذر مشيرا إلى أنه:

فى 1836، كان يبدو فى الثالثة والسبعين، وهو ما يعنى أنه ولد عام 1763، بينما سنة ميلاده كانت 1768 أو 1769[4].

فى الواقع، اختار محمد على سنة 1769، لتكون سنة ميلاده ليعزز فى أعين معاصريه المقارنة التى يمكن عقدها مع بونابرت.

---

(1) رحالة وصحفية. أقامت بالقاهرة عام 1865 مخترقة أوساط مختلفة، لكنها لم تنقل الكثير من المعلومات. جمعت فى عملها "*les mystères de l'Egypte dévoilés*" "الكشف عن أسرار مصر" بين الثرثرة والقيل والقال والقصص التى سبق أن أشاعها رحالة آخرون والمعلومات التى لم يسبق نشرها من قبل. وتعد هذه المعلومات، عندما لا تكون متعلقة بالخديو إسماعيل التى كانت تبغضه، مصدرا لمعلومات لا يمكن تجاهلها.

(2) Audouard (O.), les mystères de l'Egypte dévoilés, Paris, 1865, p.60.

(3) مارسيل (جزج.) *Marcel (J.J.)* (1776-1854) كان ملحقا بالبعثة العلمية للحملة الفرنسية على مصر ثم أصبح مديرا للمطبعة الإمبراطورية.

(4) مرجع سبق ذكره، ص 29 *Marcel (J.J.)*

أما نسبه فلم يمثل أية مشكلة؛ فهو ابن إبراهيم أغا (المتوفى فى 1791) وزينب هانم (المتوفاة فى 1796)، وإبراهيم أغا نفسه هو ابن على أغا وخديجة قادن (ابنة سعيد أغا). استقر والد محمد على بـ "قولة"، حيث كان يمارس مهام وظيفته باعتباره حارسًا للطرقات، ويعود أصل أسرته إلى الأناضول بـ "قونية" ويحتمل أن يكون أصلها الأكثر قدما يعود إلى كردستان[1].

ذكر جوان أن محمد على روى أن:

من سبعة عشر طفلا لوالدى، لم يبق سواى[2].

وكانت للباشا أخت اسمها أمينة هانم، قد جاء بها إلى مصر. كما شارك اثنان من أبناء إخوته وهما أحمد باشا وإبراهيم باشا[3]، فى كل حملاته العسكرية. وقد حمل أبناء أمينة هانم اسم يكن، وهو ما يعنى ابن خال بالتركية.

وقد أشار مارسيل فى التوطئة المخصصة لعائلة الباشا إلى:

أبناء إخوة الوالى، أبناء الإخوة والأخوات.

- أحمد باشا، حاكم مكة البالغ من العمر أربعين عاما.

---

(1) أصل العائلة الملكية.

(2) مرجع سبق ذكره ص 150 *Couin (E.)*.

(3) من بين الأخين كان أحمد باشا هو الأكثر مشاركة فى أعمال خاله، فقد كان حاكم الحجاز عام 1819، وقاد المجلس العسكرى عام 1825، وشارك فى حملة المورة وسوريا.

- إبراهيم باشا كوتشوك، وهو جنرال بالجيش.
- إسماعيل باشا، الحاكم السابق لحلب، ويحمل رتبة جنرال، وهو حفيد إبراهيم باشا ويبلغ من العمر ثلاثين عاما.
- حسين باشا.
- شريف باشا، الحاكم السابق لسوريا.
- حسين بك.
- على بك[1]

أما زوجة محمد على فهى، أمينة هانم قريبة حاكم قولة. ووفقا للروايات المعاصرة، فقد كانت:

غنية ومطلقة[2].

أو:

ابنة الحاكم، وقد طلقت لتوها منذ بضعة شهور من زوجها الأول[3].

أو:

(1) مرجع سبق ذكره ص *Marcel (J.J.)*,37
(2) مرجع سبق ذكره، ص *Gouin (E.)*,151
(3) مرجع سبق ذكره، ص *Audouard (O.)*,64

قريبة الشوربجى (قائد الإنكشارية)(*) دو براوستا وكانت قد طلقت لتوها[1].

أو:

أرملة غنية[2].

هذا التشكك حول أمر أمينة هانم، وما إذا كانت أرملة أم مطلقة غذى فكرة كانت واسعة الانتشار فى هذا العصر وهى، أن إبراهيم ابن الباشا الأكبر لم يكن ابنه.

لقد كتب بلانا[3]:

إبراهيم باشا، بن محمد على بالتبنى[4].

يقدم مارسيل توضيحا:

(*) الإنكشارية (من التركية العثمانية: ينيچرى، تعنى: "الجنود الجدد") طائفة عسكرية من المشاة العثمانيين شكلوا تنظيما خاصا لهم تكناتهم العسكرية وشاراتهم ورتبهم وامتيازاتهم، وكانوا أقوى فرق الجيش العثمانى وأكثرها نفوذا. (المترجمة)

(1) مرجع سبق ذكره، ص2 *Marcel (J.J.)*

(2) *Hamont (P.N.), op.cit, p.442.*

(3) جول بلانا ولد فى باريس عام 1796، والتحق بمدفعية المشاة للحرس الإمبراطورى فى 15 أبريل 1815. ترك الوظيفة العسكرية عام 1819، ليصبح سكرتيرا لملك هولندا السابق عام 1820. سافر إلى مصر فى أغسطس 1823، ليعود إلى فرنسا عام 1829؛ حيث مات منتحرا.

(4) مرجع سبق ذكره، ص 34 *Planat (J.),*

لمحمد على ثلاثة أولاد (من أمينة هانم)، ولد أكبرهم فى حياة زوج أمه السابق وفى البلد الذى كان يقيم فيه هذا الرجل[1].

أما جوان فقد سوّى مشكلة نسب إبراهيم باشا بنبرة نابليونية قاطعة:

إن إبراهيم باشا ليس بالأمير أوجين ولكنه بمثابة ملك روما لنابليون الشرق[2].

لقد كان التقليد العثمانى يقضى بأن يتزوج المرأة عند فقدان زوجها أحد أقارب أو أصدقاء المتوفى حتى لا تترك بدون سند. ولذلك كان غالبا ما يحدث أن يتزوج جندى أرملة رفيقه بالجيش. عشرون سنة فقط هى الفارق فى العمر بين محمد على وإبراهيم باشا. لكن من المحير ملاحظة أن محمد على كان يرسل على رأس جيوشه فى الحملة ضد الوهابيين[3]، ابنه الثانى طوسون باشا رغم صغر سنه؛ ولما توفى أرسل الباشا حينئذ إبراهيم باشا. وبنفس الطريقة، أرسل الباشا ابنه الثالث إسماعيل باشا على رأس حملة السودان[4]، وعندما

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص *Marcel (J.J.)*,36

(2) مرجع سبق ذكره، ص *Gouin (E.)*.1

(3) طلب السلطان العثمانى عام 1807، من محمد على التدخل فى شبه الجزيرة العربية لإخضاع الوهابيين الثائرين. تأسست هذه الطائفة فى القرن السابع عشر بهدف العودة إلى أصول الإسلام، وقد تمكنت من إخضاع جزء كبير من الحجاز إلى الخليج الفارسى (العربى) ومن اليمن إلى أبواب دمشق.

(4) استمرت حملة السودان من 1820 إلى 1822.

توفى هو الآخر أثناء الحملة حل محله إبراهيم باشا. فى كل مرة يراودنا الانطباع بأن محمد على كان يتمنى أن يكون كل المجد من نصيب ابن من صلبه. لم يقم إبراهيم باشا فعليا بقيادة الحملات العسكرية إلا بعد أن أصبح محمد على لا يمتلك أولادا فى سن القتال[1].

محيرة هى تلك الطرفة التى رواها هامون حول محادثة دارت بين قنصل روسيا، والباشا الذى كان يتحدث عن موقعة قونية[2]، وإذا بالقنصل يعلن أن إبراهيم باشا هو أعظم باشا فى الإمبراطورية، وحينها هاج محمد على قائلا:

> **وإبراهيم هذا، من هو، من أين جاء حتى يجرؤوا على أن يصفوه أمامى بأنه أعظم الوزراء[3].**

لقد كان إيثار الباشا لابنه طوسون باشا أمرا معروفا:

> **لم يكن هذا التفضيل يخفى على أحد، وإذا كنا لا نرتاب على الإطلاق فى قدرة الروميلى أو براعته فى ضمان وراثة سلالته لتركته، فإنا نعتقد**

---

(1) ولد سعيد باشا عام 1822، حليم باشا عام 1831.

(2) وقعت موقعة قونية فى 21 ديسمبر 1832، ومثلت النقطة القصوى فى تقدم القوات المصرية بالأناضول أثناء صراع مصر مع الباب العالى.

(3) مرجع سبق ذكره، ص 435 *Hamont (N.P.)*.

بصفة عامة أنه كان ليقلب نظام البكورية لصالح
طوسون[1].

ثمة العديد من الإشارات التى تجعلنا نفكر فى أن إبراهيم باشا ليس ابنا لمحمد على، لكن السؤال يبقى مفتوحا لعدم توفر أدلة أكيدة، ثم إن مجموعة التخمينات لا تكفى للفصل فى الأمر.

تثير وقائع شباب الباشا بـ "قولة" أيضا العديد من الأسئلة؛ إذ تكرر معظم المؤلفات أن الشاب محمد على قد تم استقباله من قبل حاكم قولة نظرا للبسالة التى كان يتسم بها. وأنه، مبكرا، قد قاد وهو فى الخامسة عشر من عمره حملة مكونة من ألف رجل ضد القراصنة.

يعد موربيه، أحد المعاصرين القلائل الذين تأنوا تجاه ما أسمَّاه الحكايات:

كل هذه الحكايات المضحكة لا تثبت إلا شيئا واحدا، وهى أن شباب محمد على كان ثائرا ومليئا بتلك المغامرات التى تفسرها شخصيته تعد الراحة بالنسبة لها أمرا غير محتمل طوال الوقت، فضلا عن وسط اجتماعى نشأ فيه، وحرمانه المبكر من الروابط العائلية القوية[2].

لاحقا كتب ويجاند متوخيا الحذر:

---

(1) *Mouriez (P.), Histoire de Méhémet Ali, Paris, 1885, t.V, chapitre XXX, p.215*

(2) المرجع السابق، ص 59 ,*Mouriez (P.)*

لقد كان الباشا نفسه يتفاخر مشجعا بعض هذه الحكايات[1].

لقد كان محمد على، كما ذكرنا سلفا، يملى قصته الخاصة مضيفا إليها أحداثًا من شأنها التأكيد على قصة زعيم مختار منذ الأزل.

العنصر الثانى لبدايات محمد على يخص تجارته للتبغ:

بعد زواجه بوقت قليل، انصرف محمد على لتجارة التبغ التى درّت عليه أرباحا مجزية، وألهمته ذلك الشغف والعلم بالتجارة اللذين رافقاه دائما[2].

وهنا أيضا يمكن التشكك فى تلك الرواية بالغة المثالية. تروى أوليمب إدوارد رواية تمكننا من إدراك إرهاصات الباشا بطريقة أكثر واقعية وأقل وهما:

ولد لأبوين فقيرين، وتيتم فى سن صغيرة وقضى شبابه فى الظلمة والبؤس. عاش سنوات طويلة فى القسطنطينية، حيث كان مجرد كايكجى (بحار). ويوما ما بعد أن ضجر من حياة العناء هذه، ورغبة منه أيضا فى العودة إلى مسقط رأسه،

---

(1) *Général Weygand, Histoire militaire de Mohamed Aly et de ses fils, Paris, 1936, t.I, p.6.*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 152 *Gouin (E.).*

ذهب إلى مصرفى أرمنى صغير وقال له: أريد الإقامة بـ "قولة" وأن أؤسس بها تجارة للتبغ، ولكنى معدم. إذا ما أقرضتنى ستة آلاف قرش ستكون قد أسديت لى خدمة كبيرة، ولسوف أرد إليك هذا المبلغ فور استطاعتى[1].

أقرضه المصرفى الأرمنى المال، الذى سرعان ما رده محمد على إليه بعد أن حقق تجارة مربحة. وبعودته إلى قولة باعتباره تاجرًا ناجحًا وفطنًا، قدم خدمات للحاكم الذى زوّجه ابنته.

بإمكاننا الوثوق فى هذه المعلومات الأخيرة، فبالنسبة لرجل عثمانى مثل محمد على، فإن الاعتراف بماضيه باعتباره تاجرًا يعد أمرا يفتقد للمجد والعظمة خاصة عندما يبلغ المرء أعلى المناصب. إن طفولة مقاتلة تعزز أكثر الصورة التى يرغب فى إعطائها عن نفسه فى قصة أعاد صياغتها بعناية. إنه يفضل أن يمحو أى نشاط تجارى قد بدأه مبكرا، وأن تسير الأمور بشكل فوضوى؛ إذ إن محمد على يفضل أن يؤكد الرواية التى تقول: إن زوجته قد منحته الأموال اللازمة لتأسيس تجارة، عن أن يعترف بطفولة بائسة. ألم يحصل مُحَمَّد[*] هو أيضا، من خلال زواجه من أرملة ثرية – خديجة– على الأموال اللازمة لبدء نشاط تجارى؟

---

(1) *Audouard (O.)*، مرجع سبق ذكره ص 60، 61.

(*) المقصود هو النبى محمد صلى الله عليه وسلم. (المترجمة)

يبدو أن محمد على كان كثيرا ما يلجأ فى بداياته للصيارفة الأرمن، وهو ما أشار إليه نوبار باشا الذى أخبرنا بظروف وصول الباشا إلى مصر عام 1798:

> **كان من المفترض أن يكون محمد على مساعدا مرافقا لأغا قولة الذى كان يقود فيلقا من ثلاثمائة رجل أثناء الحملة الفرنسية على مصر؛ لكن محمد على لم يكن بوسعه مطلقا التزود بالمعدات. وقد توجه إلى كراكياه (مصرفى أرمنى) قائلا: ينبغى علىَّ الرحيل فى حملة إلى مصر؛ ولذلك فأنا بحاجة إلى اثنى عشر ألف قرش، هل ستمنحنيها؟ إذا ما عشت ونجحت سأردها لك؛ ولكن إذا ما مت فستكون قد فقدتها[1].**

لقد كان محمد على، منذ اعتلائه السلطة، يتصرف وكأنه تاجرٌ يدير تجارة لابد وأن تدر ربحا. عاش بالإسكندرية محاطا بالتجار الأوربيين، وكان يعقد الصفقات[2]، كما كان يستند على شبكة من المعارف السابقة لاعتلائه السلطة وكانت للأرمن مكانة كبيرة فيها. من جهة أخرى، كان لهامون ملاحظة لاذعة يقول فيها:

---

(1) *Mémoires de Nubar pacha, Beyrouth, 1981, p.26.*

(2) *Benedetti de, Méhémet Ali Durant ses dernières années, in Revue des deux Mondes, 1895, p.515.*

كان مجلسه يتكون من الأتراك والأرمن[1].

بينما يأسف الجبرتى بمرارة من وجود الأرمن فى حاشية الباشا قائلا:

لقد كان بصفة خاصة الأرمن ومسيحيون آخرون هم من يتمتعون فى ذلك الوقت بحظوته ويقدمون له المشورة[2].

---

(1) كان هذا المجلس يضم بوغوص بك الذى كان وزيرا للمالية، وقد أسبغ عليه محمد على تكريما كبيرا، وعند موته ودعه الباشا بتحية عسكرية، وقد كتب نوبار باشا، ابن أخيه، فى *Mémoires, op.cit. p.52*: إن مرافقة قوات مسلمة لمسيحى إلى مثواه الأخير ليس بالأمر المثير للدهشة اليوم فى مصر، بل إن العكس سيكون مدعاة للاستغراب.

(2) *Djabarti, Chroniques, Le Caire, 1896, traduction, t.IX. p.225.*

الفصل الرابع

محمد علىّ ونابليون
(1815 -1804)

يروق لمؤرخى القرن التاسع عشر الفرنسيين أن يعتبروا محمد على نابليون الشرق. فقد كتب جوان الذى يعد بحق ممثلا لهذا الاتجاه يقول:

لقد طبق منفذ وصية نابليون المبادئ المتوراثة فى العالم العربى من خلال سيد الشرق[1]..

فى نفس هذا العصر، كان الإنجليز يسخرون من هذه المقارنة، ولم يكتب عن الباشا سوى المداهنين:

فلنقنعه بأنه نابليون آخر[2].

لقد تشابه الرجلان فى كثير من الأمور؛ فكلاهما قضى على أنظمة سياسية دامت لقرون ليقوم بإرساء أسرته الحاكمة. كما أن كليهما اهتم بإصلاح دولته إصلاحا عميقا، وإن كان اضطر فى نفس الوقت لخوض الحروب. لقد

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 375 *Gouin (E.),*

(2) *Scott C. Rochefort, Rambles in Egypt and Candia, Londres, 1837, t.II, p.113.*

بقى نابليون فى نظر ملوك الغرب دخيلا اعتلى السلطة العليا بفضل الثورة وانتصاراته العسكرية؛ وفى الشرق، اعتبرت الإمبراطورية العثمانية محمد على باشا ثائرا. لم تكن بينهما قط أية علاقة مباشرة، وعندما كان نابليون فى سانت هيلانة، وفكر فيما كان سيحققه فى مصر لو تم له الاستيلاء عليها للأبد، لم يشر مطلقا إلى من استولى عليها بعده.

ماذا ستكون حال هذا البلد الجميل بعد خمسين عاما من الازدهار والحكم الجيد! بالتأكيد ستكون هناك أمة عظيمة تحل محل هذه الأرض المقفرة مثلما كانت فى عصر سيزوستريس والبطالمة،، وبيدها اليمنى ستتكئ على الهند وبيدها اليسرى على أوربا. إذا ما كانت الظروف المحلية هى التى تحدد ازدهار وعظمة المدن لاستحقت الإسكندرية، أكثر من روما وباريس ولندن وأمستردام، لقب رأس الكون...(1)

من الصحيح أنه عندما كان نابليون يدوّن مذكراته، كان محمد على فى نظر الإمبراطور مجرد باشا لإقليم عثمانى، ولم يكن محمد على قد بدأ بعد عمله فى إصلاح مصر وتجديدها. فحتى عام 1815، لم يكن قد حقق سوى

(1) مرجع سبق ذكره ص 129، *Précis de l'histoire de l'Egypte*,220

إقرار السلام بالتخلص من الإنجليز والمماليك. إن هؤلاء المماليك الذين كانوا أداة للإنجليز تسببوا فى سيادة مناخ من الفوضى وإعاقة تحقيق أى إصلاح على نطاق واسع؛ ولقد عزم محمد على على القضاء على هذه الفرقة، وهو ما تم من خلال مذبحة قلعة القاهرة التى وقعت فى 1 مارس 1811. لقد أساءت هذه الجريمة طويلا إلى صورة الباشا فى أوربا، حتى إنها من باب الإمعان فى المقارنة كان توصف فى بعض الأحيان بأنها:

بروميير محمد على[1][*].

فى نفس هذه الفترة، تلقى محمد على أيضا أمرا من السلطان محمود الثانى للقضاء على ثورة الوهابيين؛ وقد أدت هذه الحملة العسكرية الصعبة إلى إنهاك المصادر الهزيلة التى كانت تمتلكها مصر فى ذلك الحين.

إذا كان محمد على قد ظل فعليا شخصا مجهولا بالنسبة لنابليون، فإن نابليون كان فى المقابل بالنسبة لمحمد على:

مثارا للذعر والإعجاب على حد سواء[2].

---

(1) المرجع السابق.

(*) بروميير هو الشهر الثانى فى روزنامة الثورة الفرنسية، والمقصود هنا مقارنة مذبحة القلعة بالانقلاب الذى قام به نابليون بونابرت فى الثامن عشر من بروميير عام 1799 لينهى بذلك حكومة الديركتوار والثورة الفرنسية. (المترجمة)

(2) *De Vaulabelle (A.), Histoire moderne de l'Egypte (1801-1834), t.X, p.99.*

فلإعجابه بنابليون قام بترجمة بيبليوجرافيا عن نابليون إلى اللغة التركية عام 1833، وطبعها بالمطابع الأميرية ببولاق تحت عنوان *Bonapart Tarihi*(*)، وذلك رغم علمه بأن الإمبراطور لم يتراجع عن غزو مصر مرة أخرى.

لقد كانت العلاقات بين مصر وفرنسا تتم بالضرورة من خلال الباب العالى، لأن مصر كانت لا تزال إقليما عثمانيا.

بعد توقيع معاهدة أميان، عُين محمد سعيد هالت سفيرا دائما بفرنسا. وقد وصل فى 3 يونيو 1802 .

إلى فرنسا باعتباره ممثلاً للاتجاه الأكثر عزما على تحقير الغرب بكل مناحيه، وقد سجل ذلك فى رسائله(1).

ثم عاد إلى إسطنبول عام 1806، دون أن ينجح أبدا فى تدعيم أو تطوير علاقات الباب العالى مع فرنسا.

عُين بعد ذلك سفير آخر هو عبد الرحمن مهيب أفندى، بعد قرار منح نابليون اللقب الإمبراطورى باديشا(2)(**).

(*) تاريخ بونابرت. (المترجمة)

(1) مرجع سبق ذكره، ص 34 *Deux ottomans sous le Directoire,*

(2) المرجع السابق، ص 34.

(**) باديشا تعنى الإمبراطور باللغة التركية. (المترجمة)

وإلى الحين الذى تمت فيه مقابلة تيلسيت(*)، ظل الإمبراطور يفضل التحالف المستعاد مع الباب العالى؛ إذ كان يود ألا يعارض بأية طريقة المصالح العثمانية، بل واستقبل من السلطان سفارة غير عادية محملة بالهدايا. فى هذا السياق أمر نابليون بأن ينقل تاليراند إلى القناصل الفرنسيين أمرا بعدم التدخل فى الشئون الداخلية لمصر. إنه لا يريد:

> **أن يتم تأييد أى ثائر ضد الباب العالى، ولا أى يونانى، ولا أحد من ثواره القدامى سواء فى مصر أو فى سوريا. لقد كانت سياسته تقوم على توطيد الصلة بالباب العالى العثمانى[1].**

لقد كان نابليون يعتقد أن وقت المماليك قد ولى، وأنه من غير الوارد أن يعودوا إلى ما كانوا عليه رغم احتجاج بعضهم بحجة صداقته لهم.

> **لم يسع نابليون إلى تحقيق أى وفاق سياسى مع المماليك، ولا حتى مع محمد على باشا، لأنه كان حريصا على الصداقة مع الباب العالى، ولم يرد أن يجازف بأى شىء فى مصر حتى لا يثير سخط السلطان[2].**

(*) تيلسيت: هو اسم مدينة روسية تمت بالقرب منها مقابلة بين الإمبراطور نابليون الأول والقيصر ألكسندر الأول وعلى إثرها تم توقيع معاهدة التحالف عام 1807. (المترجمة)

(1) *Lettre de Talleyrand à Sébastiani, mai 1806 cité par Cattaui (R. et G.),* مرجع سبق ذكره، ص41.

(2) مرجع سبق ذكره، ص 162 *Faivre d'Arcier (A.),*

غير أن رفض نابليون للتدخل شجع دسائس المماليك الذين أصبحوا لعبة فى أيدى الإنجليز، إذ أدرك هؤلاء جيدا أن محمد على، وشك سحقهم نهائيا، مما دفع لندن إلى إقناع الباب العالى بمنح الباشا بشلقة سالونيك؛ لكن محمد على رفض عازما على الحرب. ففى 14 يوليو 1806، أعلن:

> **لقد استوليت على القاهرة بحد السيف ولن أعيدها إلا بالقوة: أيعتقدون أن هذه المدينة مثل دورة المياه يدخلونها وقتما يشاءون؟ أنا أعرف الأتراك، إذا كانوا للبيع فأنا أشتريهم. لقد استحوذت على السلطة العام الماضى، ومعى خمسمائة جندى غير ذى ثقة، أما اليوم فمعى ألف وخمسمائة وكلهم مخلصون[1].**

لقد خلص موت ألفى بك فى 30 يناير 1807، الإنجليز من حليف جاهل وغير مخلص، وإن كان كثيرا ما خدم مصالحهم. لقد قال البك المملوكى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة:

> **قضى الأمر وأصبحت مصر لمحمد على ولم يعد هناك أحد ينافسه[2].**

(1) مرجع سبق ذكره، ص 168 ,*Gouin (E.)*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 168 .*Douin (G.)*

في مارس 1807، جرب الإنجليز حظهم مرة أخيرة، حيث نزلوا بالإسكندرية في 22 مارس، واستولوا عليها بفضل تواطؤ بعض البكوات المماليك. لكن محمد علي، بصحبة حفنة من الألبان، تمكن من سحق القوات الإنجليزية في الحمد؛ واستسلم الإنجليز. وفي سبتمبر، أطلق الباشا سراح الأسرى الإنجليز وسمح لهم بالإبحار مرة أخرى على متن سفنهم.

لكن نابليون غدر بالباب العالي عام 1807، وذلك أثناء مقابلة تيلسيت والتي تمت في السابع من يوليو مع القيصر ألكسندر الأول. لقد تعهد الإمبراطور بالتدخل باعتبارها وسيطًا بين الروس والأتراك، لكن لم يفعل شيئا وترك الروس يساندون الصرب والمولداف رعايا الإمبراطورية العثمانية[1].

وفي تيلسيت، أثار الإمبراطوران الحديث عن مشروع تقسيم العالم، والذي، وفقا له، تعود مصر إلى فرنسا. لكنه عشية المقابلة لم يبد نابليون أي تحمس، معتقدا أن هذا المشروع إنما ولد من نشوة اللقاءات العظيمة، غير أن القيصر سرعان ما حفزه ودفعه لتنفيذ المشروع. إن تعليق الإنجليزي أوكوهارد حول هذا الموضوع يتسم بالبلاغة:

> **يبدو أن فرنسا قد استسلمت لموجة عطشى من التوسع، وأن الأمل الخفي لحكومتها هو فصل مصر عن الباب العالي؛ مصر التي منحتها روسيا لها عام 1790، واستولت عليها فرنسا عام 1798، وأصبحت المسرح الأول بل والسبب الرئيسي**

(1) مرجع سبق ذكره، ص *Mantran (R.), 433*

للصراع الشديد بين إنجلترا وفرنسا. مصر التى أهدتها روسيا مرة أخرى عام 1807 ثمنًا للاحتلال الروسى للقسطنطينية[1].

فى عام 1808، كانت هناك إعدادات تجرى فى طولون(*) ولوريون(**)؛ إذ كان الأمر يتعلق بنقل حملة من لوريون إلى إيل دو فرانس(***) بهدف التمويه فى منطقة الهند(****). فى نفس الوقت، وفى توقع للحملة الحقيقية، أنزل اللواء البحرى ألماند وسائل ومستلزمات حربية على جزيرة ألبا(*****)، على حين كان اللواء البحرى جانتوم(******) يفعل نفس الشىء على جزيرة كورفو(*******). لقد صرح نابليون:

---

(1) *Uquhart (D.), op.cit, pXVJ*

(*) طولون هى مدينة فرنسية تقع جنوب البلاد. (المترجمة)

(**) لوريون هى مدينة فرنسية تقع فى إقليم بريتانى. (المترجمة)

(***) إيل دو فرانس *Ile-de-France* هى باريس وضواحيها، وتقع فى شمال وسط فرنسا ومركزها مدينة باريس. (المترجمة)

(****) المقصود بمنطقة الهند الأراضى الواقعة فى جنوب وجنوب شرق آسيا. (المترجمة)

(*****) جزيرة ألبا هى جزيرة إيطالية على البحر الأدرياتيكى تعد أكبر جزر الأرخبيل التوسكانى وكان نابليون ملكا لها بعد تنازله الأول عن العرش (1814-1815). (المترجمة)

(******) هو هونوريه جوزيف أنطوان جانتوم ضابط فرنسى 1755-1818. (المترجمة)

(*******) جزيرة كورفو هى جزيرة يونانية على البحر الأيونى الذى يفصل ما بين إيطاليا وجزيرة صقلية. (المترجمة)

لقد عزمت على هذه الحملة، فى نفس الوقت، سأرسل أسطولى من طولون للتزود بـ 20000 رجلاً بخليج تارنتو من أجل نقلهم إلى مصر[1].

لقد بدا لنابليون أن هذه الإستراتيجية أسهل فى التطبيق من إستراتيجية عام 1798.

أمام هذه التعبئة، حذرت إنجلترا محمد على من هجوم محتمل من قبل الفرنسيين؛ فأخذ الباشا على الفور فى تحصين الإسكندرية. وفى 21 فبراير 1808، بعث قنصل فرنسا بالإسكندرية رسالة إلى وزير الشئون الخارجية كتب فيها:

وصلت سفينة إنجليزية لتخبر محمد على باشا بقرب مجىء الفرنسيين إلى مصر معززين بقوات ضخمة رد الباشا بأن لديه من القوات ما يسمح له بأن يأمر الجنود فى هذه اللحظة بالزحف لملء الساحل وتحصينه، وأنه فى هذا الأمر ليس بحاجة لعون خارجى[2].

---

(1) *Driault (E.), Mohamed Aly et Napoléon (1807-1814), Société Royale de Géographie, Le Caire, 1925, p.XXII.*

(2) المرجع السابق، ص 7.

رفض الباشا أى مساعدة خارجية لأنه لم يكن يثق بالإنجليز.

جاءت حرب إسبانيا عام 1809، لتبعد نابليون مرة أخرى عن مصر، لكن عاد وتمحصت المسألة عام 1811. لقد طلب بأن يتوفر فى طولون كل ما يلزم للقيام بحملة على مصر: سفن للسير فى النيل، وأخرى للدخول فى البحيرات المجاورة لأبى قير. كما طلب أيضا معلومات عن تحصينات القاهرة والإسكندرية ودمياط والعريش[1].

بوسعنا الاستدلال على مدى تمسك نابليون بمصر من خلال منعه لنشر خريطة جاكوتان[*] الجغرافية لمصر؛ لقد صوبت هذه الخريطة أخطاء واشتملت على اسم القرى باللغتين الفرنسية والعربية.

> **إنها أداة مدهشة لإرشاد أى جيش أثناء زحفه. ندرك أن نابليون ولأسباب عسكرية لم يرغب فى نشر هذه الخريطة[2]**

لكن حملة روسيا حولت الإمبراطور عن مصر مرة أخرى.

راود محمد على الخوف مرة أخرى من تدخل الإمبراطور، وكان ذلك خلال المائة يوم عندما علم أن نابليون يجهز أسطولا؛ فقد خشى أن تكون

---

(1) *المرجع السابق*، ص 11.

(*) هو بيير جاكوتان *Pierre Jacotin* (1765-1827) مهندس ومصمم خرائط فرنسى جاء مصاحبا للحملة الفرنسية على مصر. (المترجمة)

(2) مرجع *سابق ذكره*، ص 165 *Faivre d'Acrier (A.).*

وجهته الإسكندرية أو دمياط[1]. ولم يتنفس الصعداء إلا عام 1815 بعد سقوط نابليون ونفيه إلى سانت هيلينه.

فى نفس الوقت، كان محمد على يريد إقصاء مصر أكثر فأكثر عن الباب العالى وكان لابد له من العثور على حليف له فى الغرب: إما فرنسا أو إنجلترا. لكن الظروف، كما رأينا للتو، لم تساعد على إحداث تقارب مع فرنسا.

لقد حاول القناصل الفرنسيون الحفاظ على علاقات طيبة مع الباشا، حيث منحه القنصل سان مارسيل بندقية ذات طلقتين مصنوعة فى فرساى، وهى هدية وجدها محمد على متواضعة للغاية، لدرجة أنه اشتكى لدروفيتى من قلة كرم فرنسا مقارنة بإنجلترا..

وفى عام 1811، تخلص الباشا من الخطر المملوكى، وفى 1815 خلصه انهيار الإمبراطورية من أى اعتداء فرنسى، وهو الاعتداء الذى كان يخشاه أكثر من أى شيء. لقد قال بصدق:

> **لا أحب هذا الجزء من حياتى! ما الذى سيستفيده العالم من سرد هذه السلسلة اللانهائية من الصراعات والبؤس والمكائد والدم المراق التى فرضتها الظروف علىّ رغما عنى. لا يبدأ تاريخى إلا مع الفترة التى تمكنت فيها، وقد خلصت من كل الضغوط، من اقتلاع هذه الأرض من ظلمة العصور[2].**

---

(1) مرجع سبق ذكره *Djabarti, IX, p.119*
(2) مرجع سبق ذكره، ص *Douin (G.), 121*

الفصل الخامس

الحرس المملوكى للحاكمين

كان الحاكمان يمتلكان حرسا من المماليك؛ مماليك شراكسة لنابليون، ومماليك فرنسيين لمحمد على! لقد كان حرس الشرف هذا هو النتيجة غير المتوقعة للحملة على مصر.

منذ بداية الاحتلال الفرنسى لمصر، اهتمت القيادة بضم جنود شرقيين إضافيين؛ وفى 7 سبتمبر 1798، أمر بونابرت بتجنيد كل شباب المماليك الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة كحد أدنى والسادسة عشر كحد أقصى، والذين تركهم البكوات الهاربون بالقاهرة. تم توزيع هؤلاء الأطفال على الوحدات باعتبارهم طلابًا عسكريين أو مشاة حاملين للطبلة.

وقد ظهر فيلق المماليك فى جيش نابليون بعد حملة سوريا. فى الواقع، فضل الشيخ يعقوب حبايبى شيخ عكا(*)- بعد أن تعاهد مع الفرنسيين وخشى

(*) عكّا هى مدينة فى فلسطين المحتلة، وهى من أقدم مدن منطقة فلسطين التاريخية. توجد المدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، على الرأس الشمالى لخليج حيفا، تعتبر عكا مفتاح فلسطين بسبب موقعها الإستراتيجى، وعرفت بصناعة الزجاج والصبغات الأرجوانية الملوكية. احتلها وحكمها سلسلة طويلة من الغزاة، واشتهرت بصدها نابليون بونابرت عن أسوارها إبان الحملة الفرنسية. (المترجمة)

الانتقام بعد إعلان الانسحاب – أن يكسب مصر بحرسها المملوكي. لقد قرر نابليون مع رجاله أن يشكل سريا عسكريا من "الإنكشارية الفرسان السوريين"، وكوّن كليبر ومن بعده مينو عددا من الفرق قوام كل منها 95 فارسا. وفى 26 أكتوبر 1800، أضاف مينو فرقتين لتشكيل كتيبة المماليك. كانت الوحدة تتكون من 258 جنديا و12 ضابطا موزعين على ثلاث فرق. وبدأ فيلق المماليك مع مينو، وتم جمعهم فى سرية واحدة تحت قيادة راب(*)، وفى 1804، تم ضمهم إلى كتيبة القناصة الخيالة التابعة للحرس الإمبراطورى.

كانوا يتمتعون بشعبية استثنائية عند وصولهم إلى فرنسا[1]، وكان أشهرهم ذائع الصيت رستم[2] الذى كان فى خدمة الإمبراطور الشخصية، وكانت الموضة الباريسية هى اتباع الطراز المملوكى بزيه المعروف بالشال أو العمامة أو أقراط الأذن ذات الجواهر المتدلية أو الثعبان المعلق على الذراع.

أما موضة تسريحات الشعر على الطراز المملوكى، فقد تخطت كل الحدود، بعد أن التقى نابليون عقب معركة إيينا بالملكة لويز، ملكة بروسيا وأثنى على تسريحتها ذات الطراز التركي، لكن الإمبراطور اندهش كثيرا لإجابة الملكة التى قالت:

(*) راب هو ضابط فرنسى ترقى فى الجيش حتى بلغ درجة الكولونيل، وكانت له العديد من الإنجازات العسكرية، وشارك فى الحملة الفرنسية على مصر. (المترجمة)

(1) *Savant (J.), les mamelouks de Napoléon, Paris, 1949*

(2) ولد فى تبليسى بجورجيا عام 1782. اشتراه تاجر من القسطنطينية وأرسل به إلى مصر حيث اشتراه بك جورجى مثله، وبعد موت سيده انتقل إلى خدمة الشيخ بكرى صديق المرحوم. ولما بدأ بونابرت فى البحث عن شباب المماليك من أجل خدمته الشخصية وقع الاختيار على رستم. لكنه – لفرط اعتزازه – تخلى عن الإمبراطور ورفض أن يلحق به فى جزيرة إلبا. مات فى دوردان (مدينة فرنسية تقع على بعد أربعة وأربعين كم جنوب غرب باريس – المترجمة) عن عمر يناهز 65 عاما.

عفوا سيدى، لقد مشَّطت شعرى على طراز رستم[1].

كانوا يعسكرون فى ثكنات بميلون[*]، وقد بلغ عددهم عام 1804 (109) لينخفض إلى 86 عام 1808. وقد أبادتهم حرب إسبانيا، إذ عاد منهم 55 رجعوا إلى روسيا. وفى عام 1813، ارتفع عدد المماليك ثانية ليصل إلى 250، غير أنهم لم يعودوا أبناء الشرق، إذ إن المماليك الحقيقيين حل محلهم جنود فرنسيون اجتذبهم فيلق الصفوة هذا. كان من أشهرهم المملوك على، واسمه الحقيقى لويس إتيان دونيس[2]. التحق عام 1806، بهذا الفيلق المرموق ومنح اسم على، وهو اسم سبق أن حمله قبله مملوك عين لخدمة الإمبراطورة جوزفين.

عام 1815، وأثناء الذعر الأبيض[**]، تم القضاء عليهم فى مارسيليا. وعندما كان الكلام يوجه إلى محمد على بشأن لوحة فيرنيت التى تحمل عنوان *مذبحة المماليك*، كان الباشا يرد قائلا:

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 62، *Savant (J.)*

(*) تقع مدينة ميلون على بعد أربعين كيلومتر تقريبا جنوب شرق باريس. (المترجمة)

(2) ولد عام 1788، بفرساى، وهو ابن سائس بالإصطبلات الملكية. لحق بالإمبراطور فى سانت هيلانة وأصبح بالتناوب حاجبا للإمبراطور ومشرفا على ممتلكاته يقوم بإجراء الجرد ويتحقق من توافر الأمانة والحراسة.

(**) هو الذعر الأبيض الثانى الذى تلى هزيمة بونابرت الأول فى موقعة واترلو فى 18 يونيو 1815 وهو أكثر عنفا من الأول الذى وقع عامى 1795 و1799. وهو يشير إلى المذابح الوحشية التى انتشرت فى صيف 1815، فى أقاليم غرب ووسط فرنسا ضد مؤيدى نابليون والمماليك الذين جلبهم الفرنسيون معهم بعد الحملة على مصر، وذلك بالتواطؤ مع السلطات=

كان يمكن للرسام أن يجد نظيرا للوحته:
فليصور إبادة مماليك بونابرت فى مارسيليا[1].

وجد جيرار دو نيرفال[*] أثناء رحلته إلى مصر أحد الناجين من هؤلاء المماليك:

> **لقد كان منصور مملوكا، ولكنه من مماليك الجيش الفرنسي. وهؤلاء، كما أخبرنى، كانوا يتألفون أساسا من القبط الذين خدموا جنودنا المساكين عند جلاء الحملة الفرنسية عن مصر. وقد ألقى الدهماء بمنصور المسكين وعدد من رفاقه فى ماء مارسيليا، لأنهم أيدوا حزب الإمبراطور بعد عودة البربونيين. إلا أنه، ونظرا لكونه ابنا حقيقيا للنيل، تمكن من السباحة والنجاة وبلوغ مكان آخر من الشاطئ[2].**

=(الملكيين) التى كانت تمارس قمعا شديدا. وقد سمى بالأبيض نسبة إلى اللون الأبيض الذى كان شعارا للملكيين.(المراجع)

(1) *Wiet (G.), Mohammed Ali et les Beaux-Arts, le Caire (s.d.), p.332*

(*) اسمه الحقيقى "جيرار لابرونى: *Gérard Labrunie*" وهو شاعر فرنسى ولد فى باريس 1808 وتوفى 1855، ومن أشهر أعماله رحلة إلى الشرق. (المترجمة)

(2) *Nerval (G.), Les femmes du Caire, Paris, 1887, p.170.*

كانت ذكرى الحرس المملوكى للإمبراطور ذات أهمية كبيرة، لدرجة أنه وبعد سنوات من اختفائه ظل بارتيليمى وميرى، منشدا الإمبراطورية، يغنيان:

Les pompes de l'Orient embeissent sa cour,
Et, dans le Carroussel, les Mamelouks du Caire
Ornent de leur turbans sa Garde Consulaire(1)(*)

فى الوقت الذى كان فيه المماليك يبحرون مع القوات الفرنسية عند الجلاء عن مصر عام 1801، لم يغادر مع مينو عدد من الجنود الفرنسيين، المصابين أو المرضى، لأنهم لم يتمكنوا من ذلك أو لم يرغبوا فيه.

فى 1802، كان "سباستيانى: *Sébastiani*(2)"، الذى عهد إليه نابليون برسم لوحة للبلد بعد معاهدة باريس، مكلفا أيضا بمهمة الالتقاء بالجنود الفرنسيين لإقناعهم بالعودة. لكن مهمته اصطدمت بالرفض، لقد ولد المماليك الفرنسيون..

---

(1) *Barthélemy et Méry, Napoléon en Egypte, Paris, 1827, p.97.*

(*) والأبيات تعنى:

فخامة الشرق تزين بلاطه،

وفى ميدان الفروسية، مماليك القاهرة

يزينون بعمائمهم حرسه القنصلى. (المترجمة)

(2) سباستيانى (1772-1851) كان جنرالا ثم شغل منصب سفير بالقسطنطينية خلال الفترة من 1806 إلى 1808.

كل هؤلاء الجنود المفقودين الذين كانوا يتمتعون بسمعة الجنود المهرة سرعان ما تم تجنيدهم من قبل البكوات المماليك، وشكلوا منهم فيلقا من الصفوة، كما سبق أن ذكرنا فى فصل سابق.

وقد خلد شاتوبريان(*) ذكراهم قائلا:

> **إن الجيوش العظيمة دائما ما تترك وراءها بعض المتسكعين. وهكذا، فقد جيشُنا من مائتين إلى ثلاثمائة جندى بقوا[1] فى مصر مشتتين، حيث انضموا إلى بكوات مختلفين واشتهروا ببسالتهم. يتفق الجميع على أنه لو أن هؤلاء الفارين، بدلا من انقسامهم فيما بينهم، قد اجتمعوا وعينوا لهم بك فرنسيا، لأصبحوا أسيادا للبلد[2].**

تحولت الأغلبية إلى اعتناق الإسلام، وتبنى عادات البلد تماما. لقد قام *ملوك المنفى*[3]:

(*) هو "فرانسو رينيه دو شاتوبريان: *François-René de Chateaubriand*" كاتب وسياسى فرنسى ولد بباريس عام 1768، وتوفى فى 1848، ومن أشهر أعماله عبقرية المسيحية، والشهداء، وعن بونابرت والبربونيين، ورحلة إلى أمريكا. (المترجمة)

(1) يناقض مارسيل هذا الرقم، مرجع سابق، ص 5، الذى كتب: عند رحيل الجيش الفرنسي بقى نحو ثمانمائة جندى فرنسى بمصر. لقد كانوا من المرضى والمتسكعين والمغيرين الذين أجبروا على اعتناق الإسلام والانضمام إلى المماليك. لقد حصدتهم الحرب والأمراض ولم يبق منهم اليوم سوى خمسة أو ستة يعيشون فى خمول وبؤس.

(2) *Chateaubriand (F.R.de), Itinéraire de Paris à Jérusalem, Paris, 1968, p.382.*

(3) المرجع السابق، ص 382.

على غرار ما فعل الإسكندر الأكبر، بتبنى عادات الشعوب المحتلة. إذ ارتدوا عباءات طويلة من الحرير وعمائم بيضاء وحملوا أسلحة فخمة. كان لديهم حريم وعبيد وخيول أصيلة، وكل ما لم يحظ به قط آباؤهم فى الجاسكونى(*) أو البيكاردى(**)(1)

ويتابع شاتوبريان فى غنائية:

لقد كان هؤلاء من جاسكونيا ولانجدوك وبيكاردى؛ وقد اعترف قائدهم بأنه ابن إسكافى فى تولوز. أما من يليه فى السلطة فقد عمل باعتباره مترجم لرفاقه؛ إذ كان يعرف إلى حد ما التركية والعربية، وكان دائما ما يقول بالفرنسية: أنا كنا، أنا ذهبنا، أنا عملنا إننا فى قرن العجائب؛ يبدو كل فرنسى وكأنه دُعى اليوم ليلعب دورا عسكريا(2).

(*) الجسكونى، هو إقليم جنوب غرب فرنسا يقع بين الجارون والبيرينيه. (المترجمة)

(**) البيكاردى، هو منطقة فى الشمال الغربى لفرنسا، وهى مقسمة إلى 3 محافظات هى: إيسن وإين والصوم. (المترجمة)

(1) المرجع السابق، ص 382.

(2) المرجع السابق، ص 383.

عندما استلم دروفيتى أعمال شاتوبريان جمعها معا ليقرأها.

أما عن نرفال، فقد التقى بأحد آخر هؤلاء الباقين على قيد الحياة، وهو السيد جان:

> **لسنوات طويلة، كان له- مثله فى ذلك مثل الآخرين - قصر وزوجات وخيول وعبيد، وعندما تم تدمير هذه الميليشيا القوية تمت معاملته باعتباره فرنسيًا؛ ولكنه فقد بعودته إلى الحياة المدنية ثرواته فى وقت قصير وعمل بائعا للنبيذ[1].**

كما رأينا، فقد ضُم المماليك الفرنسيون، الذين فصلهم ماتيو دو ليسبس عن البكوات، إلى خدمة محمد على، ليكونوا الحرس الشخصى للباشا بقيادة عبد الله التولوزى[*][2]، وقد كان هذا الحرس مخلصا تماما للباشا. ذات يوم، كان محمد على يجوب المدينة عندما التقى أحد قادة الجيش الذى دعاه لتناول قدح من القهوة؛ وعندما تهيأ الباشا للنزول من فوق حصانه إذا بعبد الله يلمس كتفه قائلا:

لا قهوة اليوم إلا فى القلعة.

---

(1) *Nerval (G.),* مرجع سبق ذكره، ص 95.

(*) نسبة إلى مدينة تولوز الفرنسية، وهى تبعد نحو 680 كم جنوب باريس. (المترجمة)

(2) اسمه الحقيقى دورو، وكان دخله يتراوح ما بين 30 إلى 40000 قرش، ولكنه بدده، وتوفى بالطاعون عام 1816.

فهم محمد على واستأنف طريقه؛ لقد كانت القهوة مسمومة[1].

لقد أنقذ المماليك الفرنسيون الباشا مرات عديدة من مواقف صعبة. ففى 28 أكتوبر 1807، عندما حاصر الألبان منزل محمد على فى الأزبكية، قرر الباشا أن ينقل خزينته وأثاثه الثمين إلى القلعة. وليخرج من المنزل تنكَّر وخرج تحت حماية المماليك الفرنسيين.

إن إخلاصهم للباشا – بلا شك – هو الذى أنقذهم من مذبحة القلعة التى وقعت فى 1 مارس 1811؛ فعندما حضروا إلى المأدبة التى أعدها محمد على على شرف البكوات المماليك فإن:

> **الحاكم، عندما تقدموا إليه، لامهم على مجيئهم دون أن يطلب منهم ذلك؛ ويأمر من السيد أسرع كيايا بك إلى احتجازهم فى غرفة وزير الحرب، محمد بك[2].**

إن حقيقة أن المماليك الفرنسيين قد تم إنقاذهم من مذبحة القلعة، ذُكرت فى العديد من المصادر المعاصرة[3].

---

(1) *De Vaulabelle,i. p.49.*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 213 *Gouin (E.).*

(3) *Marcel (J.J.), op.cit. p.7*: إن المماليك الفرنسيين الذين كانوا موجودين فى هذا العصر بالعاصمة، والذين لم يكن هناك نفس الأسباب للتشكك فيهم، كانوا الوحيدين الذين استثنوا من المذبحة، وفقا لأوامر الباشا الرسمية.

فى عام 1813، لم يكن تحت إمرة عبد الله التولوزى سوى خمسين مملوكا فرنسيا تقريبا، وقد قتل البعض منهم وتقاعد البعض الآخر.

من بين المماليك الفرنسيين الذين تمكنا من اقتفاء أثرهم، نذكر على سبيل المثال: سليم دافينيون الذى خلف عبد الله التولوزى بعد موته فى قيادة الحرس، واسمه الحقيقى كومب، وعلى لوفران، وكابتن دو مورات، ومصطفى دو جرونوبل، وفرانسوا روزينيانا المعروف بيوسف كاشف، الذى قاد حملات دروفيتى للتنقيب، وبيير جارى، وإسماعيل رشوان حامل الطبلة القديم وموطنه الأصلى إقليم لوت-إيه-جارون (الفرنسى)، وفبيت مملوك عثمان البرديسى، وصلاح الدين الذى تمكن من اقتفاء أثره حتى عام 1812، ولومير الذى توفى فى 1802، أثناء دفاعه عن سباستيانى.

برز المماليك الفرنسيون فى الإشراف على صناعة البارود أو العمل باعتبارهم مرشدين للمسافرين الأجانب. فى عام 1817، سجل المهندس المعمارى باسكال كوست، أنه لم يبق منهم إلا نحو مائة تقريبا من العجزة المصرح لهم بالعمل باعتباره مترجمين للمسافرين الأوربيين.

الفصل السادس

الركائز الثلاث للتجديد
في مصر

بعد سقوط الإمبراطورية الأولى، فضل عدد من الجنود والمدنيين مغادرة فرنسا التى يحكمها البربونيون، رغبة منهم فى الاندماج فى بلدهم المضيف.

وفقا لجيرار دو نرفال، فإن الجنود الفارين عام 1815، قد قاموا وبكامل حريتهم بتبنى دين وعادات الشعوب التى منحتهم اللجوء، ولا سيما وأن الغالبية منهم والذين ولدوا أثناء الثورة لم يعرفوا مطلقا عقيدة لهم سوى محبة الرب[*] أو المحافل الماسونية[1].

(*) محبة الرب هو مذهب فلسفى قائم على الإيمان برب قادر وطيب، من غير عبادة. (المترجمة)

(1) مرجع سبق ذكره، ص *Cité par Bélorgey (J.M.), 155*

لقد اختلفت مصائر هؤلاء الرجال، حيث سطع نجم بعضهم بينما خبا نجم البعض الآخر[1]

لقد كان محمد على يعرف كيف يجتذبهم ويحتفظ بأفضلهم ويقنعهم بخدمته بحماس:

> **لقد كان محمد على حفيا، إذ كان يستقبل كل المسافرين الذين يمثلون أمامه بحفاوة غير مألوفة لدى أمراء الشرق، وكان يسأل ويناقش ويبدو متلهفا بصفة خاصة لمعرفة ما الذى منح أوربا التفوق الذى تحظى به على العالم. لم يكن يحتاج لأكثر من ذلك حتى يتمكن من أن يجتذب ويجلب إليه المسافرين إلى مصر الجديدة. علماء، وأدباء، وأطباء، وفنانين، ومدربين، كان يلزمه كل التخصصات[2].**

وهكذا،

> **فى عام 1836، قال محمد على فى ديوان قنا: من بين كل الأوربيين الذين عملوا فى خدمتى ثلاثة قدَّموا لى خدمات جليلة: سليمان باشا "سيف**

---

(1) من بين حالات الفشل، يمكن ذكر حالة المساعد أندريه كادو (قادر أغا) الذى بعثه محمد على لإقرار السلام فى صعيد مصر. ولما لم يعد لديه مهنة انتحر عام 1830. انظر *Bibliothèque égyptologique (31) p.417.*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 15 *Hamont (N.P.),*

"Séve، وسوريزى بك (Cerisy)، وكلوت بك (Clot)[1].

- سليمان باشا وإصلاح الجيش

فيما يتعلق بمجال إصلاح الجيش، فقد كان السلطان سليم الثالث سابقا لمحمد على فيه، إذ كان قد شكَّل عام 1794، فيلقا جديدا من المشاة يدعى *"Nizam i djedid "* "النظام الجديد" تم تدريبه على الطريقة الأوربية على أيدى ضباط إنجليز وفرنسيين وألمان. وفى عام 1802، تم إدخال نظام جديد للتجنيد فى الأناضول يهدف إلى تطوير التجنيد وتكوين ضباط جدد.

فى مصر، فكر الحكام العثمانيون بعد رحيل الفرنسيين فى إصلاح الجيش على غرار النموذج الفرنسى. كان حصرف باشا مؤسس هذه الحركة، فقد كون جماعة من العبيد السود يشبه زيها زى الفرنسيين: سترات قصيرة من القماش الأحمر، وسراويل من القماش الأزرق، والزى بأكمله ضيق ومحكم.

أوكلت قيادة هذا الفيلق إلى ضابط علَّم هؤلاء المجندين الجدد التدريبات والمناورات وفقا للنظام الفرنسى. وكانت الأوامر تعطى بالفرنسية[2].

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص *Marcel (J.J.), 155*
(2) *Djabarti, Chroniques (traduction), Le Caire, 1892, t.VII, p.112.*

كما شكل أيضا فرقة من العبيد البيض التى:

أوكل قيادتها لضابط فرنسى علمهم التدريبات العسكرية وكيفية استخدام البندقية[1].

وجد محمد على فى شخصية الكولونيل سيف ما يؤهله لأن يكون الصانع الرئيسى لإصلاح الجيش.

إن الكولونيل سيف[2] (1788-1860) هو ابن لجزاز أصواف، وقد دخل فى جيوش نابليون وحقق أمجادا أثناء حملة روسيا، حيث كان ضابطا مرافقا للمارشال "نى: *Ney* ثم لجروشى: *Grouchy*" فى واترلو. غادر فرنسا أثناء الرستوراسيون، حيث ذهب يقدم خدماته لشاه فارس، لكن محمد على جنده أثناء مروره بالقاهرة. لقد كلفه الباشا بمهمة تدريب الجيش المصرى الجديد وقال له:

انجح وأيا كان طموحك فإن كرمى سيكون أبعد من ذلك[3].

أثار اعتناقه للإسلام فى يونيو 1824، جدلا واسعا فى ذلك العصر بين الأوساط الأوروبية. لقد كان عليه أن يتحول إلى الإسلام من أجل الارتقاء فى

---

(1) المرجع السابق.

(2) *La bibliographie de référence demeure: Vingtrinier (A.), Soliman pacha, Paris, 1866.*

(3) *Planat (J.), Histoire de la Régéneration de l'Egypte, Paris, 1830, p.26.*

الدرجات القيادية، ذلك أن أى مسيحى لم يكن ليصبو إلى بلوغ مناصب ذات مسئولية عليا فى الجيش.

وهكذا، إذا كان قد غير معتقه الدينى فلأنه اعتقد أنه لن يغير ربه، وإنه إذا كان عليه الاختيار فإنه من الأفضل أن يصبح أميرا يرتدى قلنسوة من الحرير على أن يصبح متسوّلا يرتدى قلنسوة من اللباد[1].

بعض المعاصرين أمثال مورييه تساءلوا:

لقد اعتقد السيد سيف، على غرار مينو، أن عليه التحول إلى ديانة بلده المضيف، سواء انطلاقا من اقتناعه أو أنه أراد أن يسقط آخر الحواجز ،التى تفصله عن الرتبة المنيفة التى يتقلدها[2].

عندما التقى به بارديو عام 1849، كان يرى أنه:

من المؤسف أن يتسبب الارتداد الدينى فى طمس هذه الخصال البراقة. إن رتبة البكوية

---

(1) *المرجع السابق، ص 59.*

(2) مرجع سبق ذكره، الفصل الثالث والعشرون، ص *Mourie: (P.)*,241

والمناصب المساعدة لم تكن كافية بالنسبة له؛ لقد أراد الحصول على القيادة التى لم يكن من الممكن منحها لمسيحى. لقد تنازل عن ديانته إذن من أجل الحصول على "نيشان الباشوية". أشك فى أنه سيكون مسلما أفضل مما كان عليه وهو مسيحى[1].

فى عام 1835، قام أبراهام نوروف، رحَّالة روسى، بوصف هذا التحول الذى فرضته الظروف بشكل مختلف قائلا:

لقد فقد الكثير من ثقة محمد على به عندما خرج عن المسيحية لغرض ينتفع به. وعندما خابت آماله حين وجد أنه لم يكسب شيئا من تغيير ديانته، شعر سليمان باشا بالخجل، وكان، كما لو أنه يريد أن يمنح نفسه الثقة، كثيرا ما يردد: أقولها لكم باعتباره مسلمًا صالحًا[2].

أما هامون، فقد رسم صورة أخلاقية لسيف الذى أصبح سليمان:

---

(1) *Pardieu (Ch.), Excursion en Orient, Paris, 1851, p.41.*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 106 *Volkoff (O.).*

إن سليمان باشا ليس مداهنا على الإطلاق، بل إنه يحب الصدق. لقد وُهب ذوقا رفيعا، وخلف مظهر الشخصية الخفيفة غير المكترثة يخفى الكثير من الفطنة والبصيرة.

أما نوبار، فقد نحت صورة لسليمان باشا فى بعض الكلمات:

إنه حقا لمتذمر فى مزاجه وطبعه ولغته.

لقد منحت مصر لسليمان باشا حياة تلائمه. فمنذ بداية استقراره فى مصر عاش على الطريقة الشرقية تماما، خدم كُثر، خيول أصيلة، ومائدة ممدودة للجميع، حشدت لديه كل العقول. كان يستقبل فى قصره بالقاهرة كل مواطنيه الذين يمرون بمصر، وعاش عيشة بذخ أثارت الفضائح فى بعض الأحيان.

نقش على شاهد قبره:

هنا يرقد أمير عظيم ارتقى مرتبة مهمة منذ أن عاش على طريق الإسلام. لم يخش ألمه فى المعركة من أجل زيادة ازدهار مصر. ولذلك كتبت العناية الإلهية: سليمان باشا فى رحاب رحمة الله.

إخلاصه للباشا لم يكن يخالجه أدنى شك:

لم أحب أبدا سوى ثلاثة رجال، لأن ثلاثة رجال فقط هم من أسدوا لى خيرا: أبى ونابليون ومحمد على.

ألهمت شخصية سليمان باشا المؤلفين؛ وهكذا جعل منها "شارل إدموند *Charles Edmond*" أحد أبطال روايته "*Zéphirin Cazavan en Egypte*"[1]: بيطار يوسف. رغم أن المؤلف قد ابتعد قليلا عن قصة سليمان باشا، لكنه كان من السهل التعرف على الشخصية من خلال تلك الفقرات التى كان بيطار يوسف يصف فيها حملة روسيا أو فرنسا[2]، أو عندما استقبل ماشرو (*Machereau*) الفنان السان سيمونى (جندل *Gendel* فى الرواية) أو عند ذكر زوجته اليونانية[3].

لقد أراد المؤرخون المعاصرون مثل جوان أن يظهروا العلاقات بين إبراهيم باشا وسليمان باشا على أنها علاقات مثالية. لكن صبرى غيَّر من هذه الرؤية، مستشهدا بالكولونيل دوهاميل:

---

(1) *Paris, 1880.*

(2) *المرجع السابق، ص215 إلى 217.*

(3) كان سليمان باشا قد التقى وتزوج أثناء حملة المورة بامرأة يونانية اسمها سيدى ماريا، وكان لهما أربعة أطفال، ولد: إسكندر بك وثلاث فتيات، زهرة التى تزوجت من الجنرال مراد باشا، ونازلى التى تزوجت من شريف باشا، وخُسرة التى لم تتزوج.

> إن سليمان بك (الكولونيل سيف فيما سبق) رجل ذو بصيرة وعسكرى ماهر يمثل وجوده بالنسبة له أمرا مفيدا للغاية. ومع ذلك، أبعده ولم يستخدمه رغم حاجته إليه[1].

لذلك، فإنه من المحير أن يتمكن شارل إدموند من وضع أقوال شديدة الانتقاد تجاه إبراهيم باشا على لسان بيطار يوسف (المقصود سليمان باشا). لقد جمع الكاتب العديد من الشواهد أثناء رحلته إلى مصر عام 1869، لحضور افتتاح قناة السويس. لقد جعل بيطار يوسف يقول:

> فى موقعة قونية حاصرت ثلاث فرق من أفضل قوات السلطان؛ لكن إبراهيم باشا نسب لنفسه مجد المناورة. كلانا يعرف أنه لم يكن قد شارك فى هذه الموقعة حتى بضربة سيف، بل بقى مختبئا خلف تل صغير، ولم يكن يعتقد فى الانتصار إلا بعد باقة الورد الأخيرة[2].

تردد هذا التلميح المزعج المستتر عن إبراهيم باشا فى فقرة من خطاب القنصل "كوشليه: *Cochelet*" عام 1839، حول سوء تفاهم وقع بين الرجلين:

(*1*)مرجع سبق ذكره، ص 468 *Sabry (M.)*.

(*2*)مرجع سبق ذكره، ص *218* *Edmond (Ch;)*

أظن أن سليمان باشا قد غادر الجيش بالأحرى إثر الخلاف الذى نشب من جديد بينه وبين إبراهيم باشا. علمت عن طريق السيد "سيلييه: M.Cellier" أنه كان قد أعرب بوضوح عن استيائه قائلا بعد معركة نزيب - التى نسب إليه النجاح فيها تماما، مثلما هو الأمر بالنسبة لموقعتى حمص وقونية- إن إبراهيم باشا لم يوجه إليه الشكر؛ وبدا عازما على ألا يخدم معه بعد ذلك. إن هذا النكران للجميل من جانب القائد العام المصرى إنما يعد أمرا غير عادى، ولا سيما وأنه من المؤكد أنه بدون المناورة الماهرة التى قام بها سليمان باشا، الذى رد الفيلق التركى على عقبيه، لكان الجيش المصرى قد مُنى بالهزيمة. أما إبراهيم باشا، فعلى العكس عرَّض جزءا من سلاح فرسانه للخطر من خلال هجمة طائشة[1].

فى 1819، رغب محمد على فى إصلاح الجيش، وأمر القوات بأن يتدربوا وينظموا أنفسهم وفقا للتنظيم الفرنسي. وعين لهم مدربا هو سيف الذى

(1) خطاب "كوشليه: *Cochelet*" لوزير الشئون الخارجية فى 1 أكتوبر 1839 – *Correspondance politique.Egypte IX,fo.57-62.*

ضم إليه أطقمًا من فرنسيين آخرين، هم "دومرج: ***Daumergue***، و"كادو: ***Cadot***" و"كيسون *Caisson*"[1]. تم إنشاء *المدرسة العسكرية للمشاة* عام 1820، واستقرت فى الصعيد عام 1821. إلا أن العسكريين الفرنسيين وجدوا عنتا فى جعل الجنود يتقبلون النظام والتدريب، إذ لم يكن سهلا على الطلاب الضباط المتخرجين فى صفوف أعلى تقبل هذه الشدة. كما أنشأ سيف بالقرب من معسكر التدريب بإسنا مستشفى عسكرى يديره الطبيب "دوساب: ***Dussap***".

لما أبدى الجنود الأتراك تحفظا فى التدريب، نظم محمد على عام 1823، جيشا مكونا من الفلاحين المصريين محاطا بضباط أجانب ومجهزا على الطريقة الغربية.

تابع الباشا والمحيطون به تقدم هذا الجيش الجديد، وقدموا دعمهم لسيف. وكان عثمان نور الدين، لواء الجيش، يترجم بنفسه إلى التركية الأوامر العسكرية الفرنسية التى شكلت الأساس لضباط المستقبل.

> **كما هى الحال فى فرنسا، فإن دورة الدراسات كانت تشتمل على استخدام الأسلحة، نظام صف الجند، التحركات الأولية للفصيلة والسرية، والانتقال من الرتل إلى خط القتال، ومن خط القتال إلى الرتل[2].**

لاحظ جول بلانا عام 1823:

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص *General Weygand, 161*
(2) مرجع سبق ذكره، ص *Planat (J.) 70*

> **كان الجيش يتألف من أفواج مكونة من خمس كتائب، كل كتيبة مكونة من 800 رجل، مما يعنى أن قوام الجيش هو 24000 رجل.**
>
> **كان تنظيم الكتائب مستنسخا من تنظيم الجيش الفرنسى، باستثناء أن المساعد، أى ضابط الصف، كان هنا معاون يسار، حيث يفوق رتبة القائد، وأن رتبة مساعد اليمين (ضابط الصف) تفوق تلك وتتبع مباشرة قائد الكتيبة[1].**

لقد تم إصلاح كل ما كان من شأنه أن يسهم فى تطوير الجيش، كما تم إدخال نظم جديدة. وهكذا، أسس "جونون: *Gonon*[2] فى القاهرة ترسانة بالقلعة؛ وبفضل مراقب قديم لمصنع فرساى هو "جيمان: *Guillemain* أنشئ مصنع للأسلحة عام 1823. كما تم تشكيل لجنة للمتفجرات مهمتها البحث عن أفضل المواقع لتأسيس مخازن للمتفجرات. أما عن تأسيس مدرسة الطب البيطرى التى كان يديرها هامون فيرجع، السبب فى إنشائها إلى مشاكل متابعة خيول الجيش. وفى 1826، تم تأسيس مدرسة للموسيقى يديرها مدير فرنسى يدعى "كلود

---

(1) المرجع السابق، ص 70.

(2) *Ibid, p.72.*، كان الحاكم يوفر له حماية شديدة. من بين يديه خرجت ميكانيكية ثقب المدفع وتشغيله، والمواقد ذات المصابيح، والمسابك، وغير ذلك من الأعمال الأخرى المهمة. فى البداية، أغرقه محمد على بالهدايا، لكن أمره انتهى معه نهاية سيئة؛ حيث سمعه يقول عنه: جونون عزيز على جدا، ولكننى لن أستعين به فى كل بشلقيتى. فغادر مصر ومات عندما وصل ليفورن.

كاريه: *Claude Carré*"، وكان من أوائل الألحان التى تم عزفها نشيد المارسييز(*) *La Marseillaise*(1) أسست أيضا مدرسة لسلاح الفرسان بالجيزة وكان يديرها "فارين بك: *Varin bey*"، وكانت تشتمل على سريتين من الطلاب واثنتين من القوات. وعند زيارة "بارديو *Pardieu*" لفارين عام 1849، لم تكن تبقى إلا سرية واحدة من مائتين وخمسين طالبا. وقد كانت هذه المدرسة تحتل مبانى من ملكية مراد بك. فى البداية، كان الطلاب يحددون موعد التدريب وفقا لمواعيد الصلاة:

> **لقد استلزم الأمر كل سلطة إبراهيم باشا لإصلاح هذا التجاوز، وعزم على أن يتدبروا أمرهم لتأدية صلاتهم بحيث لا يضر ذلك بالتدريب أو الخدمة.**

-كلوت بك وإصلاح النظام الصحى

يعود أصل عائلة "أنطوان بارتليمى: *Antoine Barthélemy*" إلى ضواحى إقليم جرونوبل؛ وقد شارك والد كلوت بك فى حملة إيطاليا. ولد كلوت بك فى 5 نوفمبر 1798، وسرعان ما انجذب لدراسة الطب، حيث حصل على دراسته الطبية الأولى على يد الطبيب العسكرى سابى: *Sapey* مما مكنه من الحصول

(*) النشيد الوطنى الفرنسى. (المترجمة)

(1) مرجع سبق ذكره، الجزء الثانى، ص 167. *Hamont (N.P.)*.

على محل للدراسة باعتباره تلميذًا خارجيًا فى كلية مارسيليا عام 1813. لكنه فى عام 1825، عزل من المستشفيات ثم من كلية طب مارسيليا لأسباب غير معروفة. من المحتمل أنه كان ضحية لمؤامرة[1]، وهو الأمر الذى جعله يقبل عرض "تورنو: *Tourneau*[2]"، وهو تاجر فرنسى فى خدمة الباشا أرسل إلى مارسيليا لتعيين أطباء. وصل كلوت إلى مصر عام 1825، وبرفقته عشرون طبيبا آخر؛ وقد تمكن من شفاء محمد على من التهاب معوى أصابه، فسرعان ما أصبح طبيب الباشا الخاص وكسب ثقته. ثم بدأ عمله فى الإصلاح الصحى؛ وتمكن بفضل خدماته أن يرتقى إلى رتبة البكوية عام 1833، ثم إلى رتبة الجنرال عام 1835. كانت له صداقات مع عدد من الفرنسيين الذين يعملون فى خدمة الباشا ومنهم سليمان باشا، كما تدل هذه الرسالة التى وجهها إليه عام 1835:

مصادفة سعيدة جعلتنى أعثر على غرض كان يمتلكه الجنرال كليبر. يرتبط هذا الغرض بذكرى أحد أعظم قادة الجمهورية الفرنسية وأحد أجمل عصور مجدنا الوطنى. لقد فكرت فى أن هذه القطعة من الأثاث لا يمكن أن يكون لها مقصد لائق أفضل من أن تهدى إلى جنرال، يكون منافسا

---

(1) *Archives du Ministère des Affaires Etrangères. Correspondance politique. Egypte X, fo.71-74.*

(2) ضابط قديم من الخيالة.

جديرا لمالكها الأول، وأرجو أن تتقبلوها بوصفها دليل على المحبة الصادقة من جانب مخلصكم.

كان كلوت بك معروفا فى أوربا، لأن الملك لويس فيليب منحه لقب كونت، كما جعله البابا كونتا رومانيا. وبعد وفاة محمد على، عاد إلى فرنسا عام 1849.

غادر كلوت بك مصر نهائيا، بعد أن أصبح مغضوبا عليه منذ ارتقاء عباس باشا سدة الحكم، بعد أن قضى بها خمسة وعشرين عاما من الخدمة. ومع ذلك، منحه الوالى معاشا كبيرا للتقاعد يؤول جزئيا لابنه الأكبر[1].

أعاده سعيد باشا إلى مصر عام 1856، حيث تولى أمر إعادة افتتاح مدرسة الطب التى كانت قد شارفت على الانهيار بعد رحيله[2]. وبهذه المناسبة، لقَّبه سعيد باشا المفتش العام الشرفى للخدمة الطبية المدنية والعسكرية

---

(1) *Purdieu (Ch.)* ، مرجع سبق ذكره، ص 21.

(2) بشأن إعادة افتتاح مدرسة الطب عام 1856: تقع مدرسة الطب على ضفاف النيل بمقربة من القاهرة، فى مكان رحب وخلاب كان الطلاب يلتحقون بالدراسة على نفقة الحكومة، كما كان لهم راتب، ويخضعون لنظام طلابنا، وكان هناك أساتذة أوربيون ومصريون من أهل الجدارة هم من يقومون بالتدريس: *in Merruau (P.), op.Cit.p.86*.

وأعطى مكافأة من 100000 فرانك لكل من أولاده[1]. فى هذا الوقت، التقى به نيرفال أثناء عشاء أعده قنصل فرنسا، حيث كان لوبير: *Lubert*" حاضرا أيضا[2]:

> **هذان السيدان، أو إذا أردتم هذان الأفنديان، وهو اللقب الذى كان يمنح لكل شخص مميز فى مجال العلوم أو الآداب أو الوظائف المدنية، كانا يرتديان بمنتهى الراحة الزى الشرقى. كانت صفحة النيشان البراقة تزين صدورهما، وكان من الصعب تمييزهما عن المسلمين العاديين. إن الشعر الحليق واللحية المرسلة وسمرة البشرة الخفيفة التى تكتسب فى البلاد الدافئة سرعان ما تحول الأوربى إلى تركى مقبول[3].**

توفي بمارسيليا فى 28 أغسطس 1868.

وصف كلوت بك فى *(Aperçu sur l'Egypte)*[4] **(لمحة عن مصر) الجوانب المختلفة لعمله. لقد**

---

(1) المرجع السابق، ص 212، 213.

(2) مدير سابق لأوبرا باريس، وأيضا المؤرخ الرسمى لسعيد باشا. كتب نوبار فى مذكراته، *op.cit, p.15*: جاء لوبير بك، وهو مدير سابق لأوبرا باريس أثناء حكم شارل العاشر، إلى مصر بحثا عن الثروة ، وقد وجدها فى صورة أربع زنجيات ومنصب المؤرخ الرسمى، حيث جعل من تلك الزنجيات حريما له ومن الوظيفة منصبا أسمى.

(3) *Nerval (G.),* مرجع سبق ذكره، ص 107.

(4) *Paris, 1840.*

اهتم أولا بالمستشفيات العسكرية وإلى الدرجات التى يجب إعطاؤها لنظام الترقية ورواتب ضباط الصحة. كما قنن زيهم بجعلهم يرتدون نفس زى الضباط مع استبدال الشارة بالكتفيات:

بالنسبة لضباط الصحة، فقد تم اعتماد الصولجان الطبى المكون من الثعبان الذى يحيط بهراوة ويقع بين سعفتين. يحمل المعاونون الشارة من الفضة؛ أما المساعدون فلهم الثعبان من الذهب والباقى من الفضة؛ ويزيد للرائد من الدرجة الثانية سعفة من الذهب؛ وللرائد من الدرجة الأولى سعفتين من الذهب؛ أما القادة فلهم الصولجان من الذهب؛ وللمفتش الخاص يكون الصولجان مرصعا بالألماس؛ أما بالنسبة لأعضاء مجلس الصحة فيزيدون بسعفة من الألماس[1].

تم استكمال خدمة الجيش الصحية بإنشاء صيدلية مركزية بالقاهرة، مكلفة بتجهيز الأدوية لكل الجيش.

---

(1) مرجع سبق ذكره، الجزء الثانى، ص 402. *Clot Bey*.

أسس كلوت بك أيضا، بدعم من الباشا، مستشفى أبى زعبل، وأنشأ بها مدرسة للطب عام 1827. بنيت المدرسة على مسطح مربع كامل ينتهى بفناء رحب، وأنشئت وسطه الحمامات، والمطابخ، والصيدلية، والمدرج. ويقدم لنا بلانا وصفا لتنظيم المستشفى:

يمثل المسطح مربعا كبيرا تحتوى كل وجهة منه على ثمان فى قاعات تستوعب أربعين مريضا: وهكذا يمكنه استيعاب 1280 مريضًا. تفصل بين القاعات دهاليز طويلة جيدة التهوية تسهل من عملية التواصل الداخلى، مع عزل الأنواع المختلفة من الأمراض[1].

لإطلاق مدرسة الطب:

تم البحث عن مائة شاب عربى متعلم؛ ومنحوا زيا موحدا ولقب طالب بمدرسة الطب[2]. لقد شكل هؤلاء الطلاب، الذين كانوا يسكنون ويأكلون ويلبسون بل وأيضا تدفع لهم رواتب على نفقة الدولة، كلية أكثر منها مدرسة بالمعنى الذى نعطيه لهذه الكلمة فى أوربا[3].

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 96.*Planat (J.)*
(2) المرجع السابق، ص 153.
(3) مرجع سبق ذكره، الجزء الثانى، ص 411;*Clot bey*

أشار بلانا إلى أنه لتخطى التحفظات التى أبداها رجال الدين، وخاصة فيما يتعلق بالتشريح، كان يتم البحث بشكل منهجى عن كل ما من شأنه أن يعلى قيمة الطب فى الحوليات العربية[1].

واجه كلوت بك العديد من الصعوبات التى اعترضته لممارسة التشريح. وهكذا، واتته فكرة لمواجهة التحفظات وهى؛ استخدام جثث العبيد غير المسلمين بعد التأكد من موافقة الباشا والسلطات الدينية.

عرض هامون، وله أسبابه، الصعاب التى واجهت طبيب الباشا بحيادية:

> **إن دورى باعتبارى مؤرخًا يضطرنى لأن أقول كل الحقيقة، يجب أن أعلن أن قصة السيد كلوت هى على الأقل مبالغ فيها جدا. لم يحدث مطلقا أن اعترض العلماء أو زعماء الدين على تشريح الجثث البشرية. لقد كان محمد على يحكم بصفته الحاكم المطلق عندما تم إنشاء مؤسسة أبى زعبل، وفى هذا الوقت، كان الشيوخ أكثر من غيرهم حرصا على عدم مخالفة إرادة محمد على[2].**

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 98. *Planat (J.).*

(2) *Hamont (N.P.). t.II, p.91.*

أنشئ داخل المستشفى أيضا قسم للتوليد، وعلى رأسه كانت الآنسة "جولت: *Mlle Gault* "هي طالبة توليد في باريس، وقد عينت رئيسة للقابلات. لقد كان هذا الأمر عملا ماهرا حقيقيا من قبل كلوت بك ذلك أن:

> **المسلمات لا يمكنهن تلقى تعليم على يد مسيحيين. وهكذا، فقد واتت كلوت بك فكرة مدهشة، وهى تدريب إماء حبشيات لاحقا، أمر محمد على بقبول طالبات مسلمات[1].**

وفى هذه الانطلاقة، أنشئت مدرسة الصيدلة عام 1829.

كان كلوت بك يعتزم تكوين طبيب لكل 3000 نسمة، وصيدلى لكل 10000 نسمة[2]. كانت مدة الدراسة خمس سنوات؛ ولاحتياجات التعليم[3]، أمر بترجمة 152 عملا. وقد تم إلحاق هؤلاء الطلاب بعد ذلك بالخدمة الصحية بالقاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط.

كان على كلوت بك أن يكافح أيضا أوبئة الطاعون والكوليرا، كما أدخل التحصين ضد الحصبة. وقد كافح وباء الكوليرا عام 1831، ثم وباء الطاعون عام 1835؛ وفى إشارة للامتنان منحه الباشا لقب بك، وهو لقب لم يكن قد منح حتى ذلك الحين إلى غير مسلم.

---

(1) *Kertenian (R.), L'oeuvre de Clot-bey médecin marseillais in Toutes les Egyptes, Marseille, 1998, p.238.*

(2) مرجع سبق ذكره، الجزء الأول، ص 221. *Général Weygand*

(3) انظر مقال: *Anne-Marie Moulin, L'esprit et la letter de la modernité égyptienne, l'enseignement medical de Clot bey, in La France et l'Egypte à l'époque des vice-rois 1805-1882, Le Caire, 2002.*

وعندما جاء "باريزت[1]: *Pariset* عام 1828، على رأس بعثة طبية أرسلتها فرنسا أشاد بالعمل الذى تم إنجازه فيما يتعلق بمكافحة الطاعون: وقدم للباشا تقريرا أثنى فيه على كلوت بك، وشجع محمد على على إرساء المدرسة بالقاهرة لأنها:

لن يكون لها إلا وجود مزعزع طالما لم تكن بقلب مدينة كبيرة وأغدق عليها بالمال[2].

تم نقل المدرسة ومستشفى أبى زعبل عام 1837 إلى :

قصر العين، فى نفس موضع مزرعة إبراهيم بك، حيث كان الفرنسيون قد أرسوا مشفاهم العسكرى أثناء الغزو[3].

عقب الانتهاء من بعثته، تلقى باريزت من كلوت بك عبدا زنجيا صغيرا اصطحبه معه إلى باريس، بالإضافة إلى سيف وزى تركيين. سخر كلوت بك من الدكتور باريزت لحرصه الشديد على الحصول على زى تركى الذى كان من وجهة نظر طبيب الباشا غير ملائم له ويجعله يبدو مضحكا.

---

(1) "باريزت: *(E.) Pariset*" (1770-1847). باعتباره سكرتيرا دائما لأكاديمية الطب عام 1822، فقد كلف بالتوجه إلى مواطن الأوبئة لدراستها، وهو سبب زيارته لمصر، موطن وباء الطاعون. وقد أعلن عند عودته إمكانية العدوى (*pour la contagion*) مما أدخله فى جدل مع معارضى هذا الرأى.

(2) *Mémoires d'A.B. Clot-bey, Publication de la Bibliothèque privée du roi Farouk 1er, Institut Français d'Archéologie orientale, Le Caire, 1949, p.104.*

(3) *مرجع سبق ذكره، الجزء الثانى، ص 91. Clot-bey,*

في عام 1832، استطاع كلوت بك، الذى كان مروّجا نشيطا لإنجازات الباشا، أن يقنع الباشا بأن يدعه يرحل إلى فرنسا مع اثنى عشر من أفضل الطلاب لمنحهم تدريبا إضافيا فى الطب. وقد تم توزيع هؤلاء الطلاب على مستشفيات فال-دو-جراس: *Val-de-Grâce*"، ولوتيل ديو: *l'Hotel Dieu*، و"لاشاريتيه: *La Charité*". لقد كان هدف هذه الرحلة علميا: وسياسيا فى آن واحد، فبإظهار هؤلاء الطلاب للعيان فى أرجاء فرنسا، أوضح كلوت بك مدى اتساع ونجاح الإصلاحات التى تتم فى مصر:

> **إنها بحق حملة دعاية! فبعد خمسة عشر يوما، رحلوا إلى ليون حيث قاموا أيضا بزيارة المستشفى. وعندما وصلوا إلى باريس فى 13 نوفمبر، أدوا بشكل مذهل يوم 18 اختبارا بالأكاديمية الملكية للطب[1].**

ترك كلوت بك وطلابه انطباعا عظيما طوال الجولة. ارتدى كلوت بك الزى التركى، بذلك اللباس الأحمر الذهبى المرصع بالشارات الماسية؛ إذ كان يحترم أمر الباشا الذى أراد أن يظهر كلوت بك أمام أعين الفرنسيين على أنه موظف فى الحكومة المصرية، وليس ممثلاً فرنسيًا منتدبًا لخدمة مصر.

---

(1) *Louca (A.), Voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIXème siècle, Paris, 1970, p.47.*

أثناء رحلته الثانية إلى فرنسا عام 1840، قدم كلوت بك لمتحف الملك لويس فيليب للتاريخ بفرساى صورة للباشا. فعندما عرض عليه الملك صورة للسلطان، لفت كلوت بك نظره إلى أن صورة الوالى غير موجودة، وأهداه منمنمة للباشا كان يحملها معه بغرض استنساخها؛ وقد قام الرسام "كوديه: *Couder*" بعمل نسخة طبق الأصل منها.

وعند عودته إلى مصر، نظم خدمة طبية صحية فى الأقاليم.

لقد كانت الانتقادات التى وجهت لسياسة الصحة العامة التى انتهجها كلوت بك عديدة؛ وهو ما أجبره للرد فى كتابه (*Aperçu general sur l'Egypte*) على بعض المشنِّعين ومنهم محرر جريدة أزمير الذى كتب:

إن مدرسة أبو زعبل لم تكن يوما سوى تباهٍ
سخيف استغله مشعوذ ماهر[1].

من بين من عارض عمل كلوت بك بشدة، نجد هامون الذى رسم لهذا العمل لوحة سلبية فى (*l'Egypte sous Méhémet Ali*) *: مصر تحت حكم محمد علىّ*، متوخيا الحذر للتخفيف من حدة العبارات الشرسة معترفا له ببعض الفضل:

ومع ذلك، فإن هذه الملاحظة لا يمكن أن
تقلل من الفخر الذى حازه السيد كلوت الطبيب،

(1) مرجع سبق ذكره، جزء ثانٍ، ص 434. *Cité par Clot-bey*.

لكونه قد أرسى دعائم التعليم الطبى لدى المصريين[1].

لقد كانت الانتقادات التى وجهها هامون لكلوت بك عديدة منها؛ أن التعليم لم يكن منتظما، ولا يتبع الترتيب المنطقى لدراسات الطب، كما كان الطلاب جاهلين:

كانت الغالبية العظمى تكاد لا تعرف سوى بعض المفاهيم السطحية جدا عن المواد المدرسة على مدار العام الدراسى[2].

بل إنه يتهم كلوت بك بأنه زوّر الامتحانات لإنقاذ مؤسسته:

قام كل طالب من هذه الفئة بسحب بطاقة ملفوفة مدونٍ عليها سؤالاً يعرفه من قبل ويجب أن يجيب عنه فى الحال[3].

بل والأخطر أن هامون يتهم كلوت بك بأنه لجأ إلى نفس الأسلوب أثناء التفتيش الذى قام به دكتور باريزت:

---

(1) مرجع سبق ذكره، جزء ثانٍ، ص *Hamont (N.P.)*,91

(2) المرجع السابق، ص 93.

(3) المرجع السابق، ص 100.

كما هى الحال فى السنوات الأخرى، أعطى السيد كلوت الأسئلة للتلاميذ. وفى الواقع، أزال تقرير السيد سكرتير الأكاديمية أى شك، بل وخلف فى نفس الباشا انطباعا فى صالح مدرسة الطب تماما[1].

اغتاظ هامون بسبب إخراجه من مصر، وشعر بالحنق من الكتاب الذى خصصه كلوت بك لتسجيل تفوق الإصلاحات التى أنجزها الباشا فى كل المجالات. ولذلك يأتى كتابه ذو اللهجة اللاذعة والناقدة عن قصد باعتباره ردًا على كتاب كلوت بك الدفاعى. لقد كان هناك الكثير من المبالغات والإساءات فى كلامه، ولذلك فمن المهم قراءة شهادة "مورو: *Merruau*" فى عهد سعيد باشا، وهو كتاب يشتمل على قدر من التراجع عن الإساءة:

مما لا شك فيه أنه لا يمكن لتلاميذ تم تجميعهم بالمصادفة، أن يشكلوا من المحاولة الأولى ضباط صحة أكفاء. أيا كانت مهارتهم فهم بالتأكيد أفضل كثيرا من الجراحين والأطباء الدجالين الذين كانوا يمارسون من قبلهم فن التطبيب فى البلاد بطريقة بربرية جدا. بطبيعة الحال، فإن مثل

---

(1) المرجع السابق، ص 102.

> **هذه المؤسسة تكون معيبة فى البداية لكنها كانت تتمتع بمستقبل عظيم وتستحق أن نشجعها وأن نوفر لها الاستمرارية[1].**

لقد حلل مورو وضع المؤسسة انطلاقا من قدراتها على الانخراط فى الفترة الزمنية؛ فمن السهل أن ندرك أنه فى عام 1856، عندما تمت إعادة افتتاح مدرسة الطب فى عهد سعيد باشا[2]، كانت مجهزة بكل العناصر اللازمة للنجاح تماما. وفى هذا الصدد، فإن إنجاز كلوت بك لا جدال فيه، حتى وإن كان طبيب الباشا فى نهاية حياته قد خفف من حماسه الذى اتسم به خلال سنوات 1840:

> **لقد تحدث ببعض التحفظ عن الحكومة الحالية لمصر، مما يجعلنا نخمن أنه لا يتقاسم أيًا من الأوهام التى تتخيلها أوربا عن التجديد المزعوم فى ذلك البلد، وعن قدرة الأتراك على الإلمام بحضارتنا[3].**

ومع ذلك، فلابد من محاولة البحث عن أصل بعض الانتقادات وقصور الفاعلية فى الخدمة الطبية العسكرية وخاصة أثناء الحملة على سوريا.

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 85 *Merruau (P.)*.
(2) سعيد باشا، ابن محمد على وتولى الحكم من 1854 إلى 1863.
(3) *Poitou (E.), Un hiver en Egypte, Paris, 1855, p.13.*

يبدو أن مشكلة اللغة هي سبب النتائج المثيرة للجدل لمدرسة أبو زعبل، لأن الأساتذة كان يُدرسون باللغة الفرنسية، وكانت المحاضرات تترجم بطريقة تفتقد للدقة. ولمعالجة هذا الأمر، طلب كلوت بك من رفاعة الطهطاوى ترجمة كتب طبية من الفرنسية إلى العربية، ووضع معجم فرنسي عربي للمصطلحات الطبية[1]. يبدو أيضا أن الأطباء العسكريين المصريين كانوا غير مؤهلين بما يكفي لتشخيص أمراض مثل مرض الزهرى الذى دمر الجيوش؛ وقد كتب كلوت بك لاحقا دليلا صغيرا حول المسألة أسماه: "كنز الصحة: *Trésor de la santé*".

من بين الأطباء الفرنسيين فى مصر يجب أن نذكر بصفة خاصة "دوساب *Dussap*" وهو ضابط صحة شاب جاء أثناء الحملة على مصر، وقد اختار البقاء فيها ومات بالطاعون عام 1835.

> **لقد ظل فرنسيا قلبا وروحا، وأثبت ذلك دائما بأن جعل من كل واحد من مواطنيه يأتى لزيارته ضيفا وصديقا[2].**

أيا كانت الانتقادات والنقائص، فإن كلوت بك نجح خلال خمسة عشر عاما فى إرساء سياسة حقيقية للصحة العامة، وهو عمل ضخم وتمدنى وصاحب رؤية، ولكنه يتميز بصفة خاصة بحداثته العظيمة.

"لوفيبير دو سوريزى: *Leféburе de Cerisy*"، (1789-1864) وإصلاح البحرية

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص *Fahmy (H.),27*

(2) *Voilquin (S.), Souvenirs d'une fille du people, Paris, 1978, p.252. Première edition en 1865.*

بعد إتمام دراساته بمدرسة البوليتكنيك[*]، عين عام 1817، مساعد مهندس بإدارة الإنشاءات البحرية بطولون. ساعدته قرابته بالماركيز "كليرمون تونير: *Clermont Tonnerre*" على أن يشرف بنفسه على إنشاء فرقاطتين حربيتين طلبهما الباشا عام 1824؛ لكن هاتين الفرقاطتين "لارميد *L'Armide* " و"لو سيبيون: *Le Scipion*" دمرتا بموقعة نوارين فى 20 أكتوبر 1827. كان من الطبيعى أن يفكر فيه الباشا لإنشاء ترسانة بالإسكندرية، وتم إبرام عقد التزام فى 26 أكتوبر 1828، حدد فيه محمد على مهمة لوفيبير دوسوريزى:

> **أريد أن تجعلوا هذه الميناء تعج بالسفن. ابنوا لى ترسانة تنافس ترساناتكم فى فرنسا وإيطاليا وإنجلترا. لا ينقصنا المال ولا الرجال، وأنا أعطيكم سلطة مطلقة وغير محدودة للتصرف والقيادة: لن يسائلكم غيرى[1].**

والتزم الباشا بوعده، إذ تم توفير نحو 5000 عامل فى مواقع العمل!

قبل وصول سوريزى ذكر بلانا هذه الملاحظة:

(*) مدرسة البوليتكنيك أو مدرسة التكنولوجيا المتعددة الملقبة أيضا ب *X*، هى مدرسة المهندسين الفرنسية التى تأسست سنة 1794، تحت اسم المدرسة المركزية للخدمات العامة. تقع تحت إمرة وزارة الدفاع الفرنسية برتبة مدرسة عمومية للتدريس والبحث، وهى عضو مؤسس منذ 2007 بـ *Paris tech*(مدرسة العلوم والتكنولوجية بباريس)، وهى من أحد اقطاب البحث والتعليم العالى الفرنسى والأوربى. (المترجمة)

(1) Cerisy Bey in Bulletin de l'Institut d'Egypte, t.VII, p.80.

قام ضباط أوربيون بتفتيش ترسانة الإسكندرية، التى كانت حتى ذلك الحين تعانى من الفوضى التى تغطى على الاختلاسات، ما تعانى من استغلال بلال أغا، نائب الحاكم فى المنطقة.تم إجراء بعض التنظيم فيما يتعلق بترتيب المواد، وإن لم يتم التفكير فى إخضاعها لإدارة مراقبة[1].

كما سبق أن ذكرنا، فإن وصول سوريزى تزامن مع فقدان أول أسطول لمحمد على فى موقعة نوارين، إذ دمر كل الأسطول الذى تم إنشاؤه قبل عام 1827 فى يوم واحد.

إن امتلاك أسطول حربى كان بالنسبة للباشا وسيلة للإعلان عن قوته وفى نفس الوقت حماية نفسه بفاعلية ضد أى هجوم يأتى من البحر المتوسط. وهكذا، بدأ منذ 1824، يأمر بإنشاء سفن بحرية: فرقاطات، وطرادات، وبواخر[2] فى مارسيليا وبوردو وليفورن وتريست. فى عام 1827، قبل كارثة نوارين، كان الأسطول الحربى يضم تسع طرادات وأربع بواخر وست صيادات.

عندما وصل سوريزى إلى الإسكندرية كان عليه أن يفكر فى كل شىء، وهكذا اختار مكانا ملائما للترسانة الجديدة، ووضع التصميم، وأنشأ الأرصفة، كما شيد كل الإنشاءات اللازمة، وفتح مصنعا لصناعة الأشرعة فى دمياط. وفى خلال عامين، تمكن من أن يزوّد الإسكندرية بترسانة تحتوى على العديد

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 172 ,*Planat (J.)*

(2) مرجع *سبق ذكره، الجزء السادس، ص 83* ,*Hanotaux (G.)*

من الأرصفة، ومخزن للذخيرة البحرية وورش للسباكة والحدادة والأدوات الملاحية وصناعة الحبال وما إلى ذلك.

بمجرد وصول سوريزى طلب من الحكومة الفرنسية، بتكليف من الباشا، أن ترسل إليه عمالا من ترسانات طولون. وقد كتب القنصل "ميمو : *Mimaut*" فى رسالته للوزير قائلا:

> **تجدر الملاحظة بأنه ثمة شرطًا فى عقد العمال المعينين ينص على عودتهم إلى فرنسا بمجرد رجوع السيد دو سوريزى[1].**

وأرفق قائمة مفصلة بالعمال المطلوبين:

رئيس عمال نجارين "روبول".

رئيس عمال نجارين "ميج".

رئيس عمال نجارين جينسولنج، التلميذ السابق بمدرسة رؤساء العمل بالورش البحرية.

الرئيس الثاقب "توفو".

رئيس عمال البوصلات "هوج".

---

(1) A.E-Correspondance consulaire. Carton Alexandrie 1828-830 in Douin (G.), L'Egypte de 1828 à 1830, Correspondance des Consuls de France en Egypte, Paris, 1935, p.124.

عشرة عمال نجارين من الدرجة الأولى،

يجيدون تصميم النماذج.

ستة من الثاقبين المهرة[1].

تم الحصول على الموافقة فى نوفمبر 1829.

بفضل المراسلات القنصلية كان فى الإمكان المتابعة خطوة بخطوة لعمل سوريزى، الذى حقق تقدما رغم المكائد التى لا مفر منها والمنافسة بين الأجانب الموجودين فى خدمة الباشا. وهكذا نقرأ فى يوليو 1829، التأمل التالى:

اقتنع الباشوان[2] أخيرا، رغم المكيدة الإيطالية التى أحبطت الآن، أن التشييد الفرنسى هو الأفضل على الإطلاق. فلقد أثبت لهما مهندسنا السيد دو سوريزى، أن الفرقاطات المشيدة فى ليفورنو والبندقية[*] تفتقد لكل السمات العسكرية[3].

أشار كلوت بك هو الآخر إلى العراقيل التى كان على سوريزى التغلب عليها:

---

(1) *المرجع السابق، ص 124.*

(2) محمد على وابنه إبراهيم باشا.

(*) مدينتان إيطاليتان، الأولى تقع فى إقليم توسكانا وتعد أهم الموانئ الإيطالية، والثانية وتعرف أيضا بفينيسيا، وتطل على البحر الأدرياتيكى بشمال شرق إيطاليا. (المترجمة)

(3) *Douin (G.)*، مرجع سبق ذكره، ص 133.

كان عمال مالطا وليفورنو يحرضون على العصيان عمال ترسانة طولون، الذين أتى بهم فى السنة الثانية ليكونوا على رأس كل مجموعة من مجموعات الطاقم. لم تثر كل هذه التهديدات خوف السيد دو سوريزى، وفشلت المكائد تباعا فى مواجهة إرادته القوية ومثابرته. لقد قام الوالى، باعتباره الرجل الأعلى فى كل شىء، بصم أذنيه فى وجه أعدائنا، ولم يلق بالا إلا لأعماله التى توالت بكل نشاط[1].

فى أبريل 1830، كان أسطول الباشا البحرى يضم:

بارجتين حربيتين مزودتين بـ 100 مدفع، و6 فرقاطات مزودة بـ 60 مدفعا، و7 طرادات حربية بها من 18 إلى 14 مدفعا بحريا، وسفينتى نقل، و4 مراكب شحن بثلاث صوارٍ، و12 زورق إنقاذ، وزورقًا بخاريًا، و5 صيادات تحوى من 6 إلى 10 مدافع[2].

كان بعض هذه السفن يخضع لقيادة فرنسية:

---

(1) مرجع سبق ذكره، الجزء الثانى، ص 241 ,*Clot-bey*

(2) *المرجع السابق، ص A.E- Correspondance politique, Egypte II fos 17-19,226*

- البيرة (فرقاطة أنشئت فى مارسيليا) وقوام طاقمها 50 رجل وتقع تحت قيادة "بيسون: *Besson*"[1].

- الأمازون (طراد أنشئ فى مارسيليا) وقوام طاقمه 200 رجل بقيادة "فيرلاك: *Verlac*".

- طراد أنشئ فى "جنوة: *Gênes*"[*] وقوام طاقمه 200 رجلاً بقيادة السيد دوجيستان: *De Gestin*".

منذ ذلك التاريخ ورغم رحيل دوسوريزى[2]، عام 1815، لأسباب صحية، فإن الأسطول المصرى لم يتوقف عن التطور.

فى عام 1840، أوضح مسح للأسطول المصرى بميناء الإسكندرية، وهو مسح قام به القنصل العام لفرنسا، أن هناك 11 سفينة مزودة بـ 100 إلى 80 مدفعا، فضلا عن 5 فرقاطات، و5 طرادات، و6 سفن شراعية، ومركبين شراعيين، و3 زوارق بخارية[3].

لقد أوجز كلوت بك انطباع المعاصرين عندما قال:

---

(1) بيسون هو بحار فى عهد نابليون الأول، وقد حاول أن ينقذه بعد موقعة واترلو، بأن اقترح عليه أن يجعله يهرب من روشفور. ولقد تم فصله من البحرية الملكية لهذا السبب، ومن ثم انتقل إلى خدمة محمد على، انظر *l'étude de Garreau (R.), Besson-bey, Antibes, 1949*.

(*) مدينة وميناء بحرى فى شمال إيطاليا. (المترجمة)

(2) كان خليفته فرنسيًا أيضا ويدعى هنرى (*Henri*).

(3) *مرجع سبق ذكره، الجزء الثانى، ص 85* *Hanotaux (G.)*,

إن السرعة الخيالية التى أنجزت بها كل من الترسانة والأسطول شىء يذهل العقل، ويكشف عن القدرة الكاملة للعبقرية[1].

(1) المرجع السابق، ص 91.

الفصل السابع

بعثة بوابيه *(Boyer)*

تابع محمد على إصلاح جيوشه بتعيين مدربين جدد عام 1824، ووفقا لعادته، لم يمر بالدوائر الرسمية وإنما فضل إرسال المخلص "تورنو: *Tourneau*"، وهو تاجر من مارسيليا كان مقيما بالإسكندرية؛ للبحث عن كوادر جديدة.

فى باريس، التقى تورنو بضباط قدامى كانوا قد خدموا فى مصر، وهم *المصريون*؛ وقد وقع اختيار مبعوث الباشا على "بوابيه: *Boyer*[1]". وفى 6 أكتوبر 1824، صدر مرسوم من شارل العاشر يأذن له وللضباط الذين يرافقونه بأن يكونوا فى خدمة الباشا مع الحفاظ على حقوقهم المدنية.

يشير بلانا إلى أنه:

---

(1) "بيير - فرانسوا بوابيه: *Pierre-François Boyer*"، (1772-1851) قائد الفيوم السابق. جعله نابليون جنرالا وبارونا للإمبراطورية، وقد صنف فى الاستيداع عام 1820، وقد استحق لقب بيير القاسى نظرا لما اتسم به من شدة.

وقّع عقدا مدته خمس سنوات يلتزم وفقا
لبنوده بتنظيم القوات المصرية خلال هذه المدة[1].

وصل بواييه إلى مصر فى نوفمبر 1824 ويرفقته:

- كولونيل جودان (*Gaudin*[2]).
- الإخوة دوتارليه (*de Tarle*[3]).
- الملازم لوديو (*Ledieu*).
- جامفيل-بوجول (*Jameville-Pujol*).
- دودوفينيو (*de Duvignault*[4]).

ركز بواييه جهوده بصفة أساسية على تشكيل فيالق جديدة للمشاة وعلى تنظيم القيادة العليا؛ وسرعان ما وفر التعزيزات التى طلبها إبراهيم باشا أثناء حملة المورة. وفى غضون ثلاثة أشهر، تم تكوين الفيالق السابع والثامن والتاسع. لقد تمكن بواييه بلا شك من تكوين الجيش المصرى، ولكنه كان فى نفس الوقت عميلا استخباراتيا لعمليات مستقبلية؛ إذ كان غزو مصر مرة ثانية أثناء حكم شارل العاشر لا يزال موضع اهتمام![5].

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص *Planat (J.), 66*
(2) كان قائد الفيلق السابع والعشرين فى الحرب على البرتغال.
(3) تم تسريحهم بسبب عدائهم للبربونيين.
(4) جراح الجيش.
(5) *Samir Saul et Jacques Thobie,* مرجع سبق ذكره، ص 195.

أنهى بوابيه تعاقده عام 1826، عقب مكيدة كان ضحيتها وتعرض لشجب الباشا؛ وتكشف هذه القصة عن المناخ الذى كان يعيش فيه هؤلاء الضباط.

لقد حذف معظم المؤرخين المُمَوَّلين، فى منتصف الخمسينيات، العقبات التى واجهها هؤلاء الرجال، وتركوا لنا قصة عظيمة خالية من أى صعوبات؛ لكن قراءة الروايات المعاصرة تعطينا إيضاحا مختلفا تماما.

يقول بوابيه دون أن يدارى مديحه للباشا:

> **رجل واحد لم يعد هنا، إنه ليس المواطن ولا المعاصر: إنه محمد على. وهو أيضا الوحيد الذى أراد تمدين مصر.**

ولكنه فى المقابل أكثر انتقادا عندما يتحدث عن حاشية الباشا:

> **وفقا للمرسوم، فأنا أقدم هنا نصائح ولا شىء أكثر من ذلك، وعلى السلطات التركية أن تقوم بالباقى. ما من شعب على وجه الأرض أكثر ارتيابا، وأكثر جهلا، وأكثر عجرفة، وأكثر وحشية، وأوهن عزما من الأتراك[1].**

---

(1) Cité dans l''article de Samir Paul et Gacques Thobie, Les miliaires français en Egypte des années 1820 aux années 1860, in La France et l'Egypte à l'époque des vices-rois, مرجع سبق ذكره، ص 181.

وفي اتفاق حول نفس الرأى، يكتب بلانا:

> **إن ظهور الضباط الفرنسيين فى مصر ولد شعورا بالإستياء لدى الأجانب المستخدمين فى القوات المصرية[1]. إذ تشكلت عصبة من بعض المتآمرين الذين تعرضت امتيازاتهم للتهديد: لقد كان وضعا أطلق عليه معارضة النظام الفرنسى[2].**

أما هامون، فبحدته الشديدة، يثنى على جهود الباشا، موضحا أن جهوده تلك كأنها لم تكن بسبب حاشيته من الأتراك والأرمن. وقد هاجم بصفة خاصة بوغوص بك ولم يجامله:

> **رجل بلا كلمة اتخذ من الكذب والخداع إلها له[3].**

وهكذا، فقد شُوهت سمعة كبار الضباط المقربين من الباشا، أما الآخرون فقد تعرضوا للاعتداءات البدنية من أجل إقصائهم فضلا عن تثبيط معنوياتهم والتعجيل برحيلهم:

---

(1) يشير إلى الأتراك.
(2) مرجع سبق ذكره، ص *Planat (J.),.73*
(3) مرجع سبق ذكره، *الجزء الأول*، ص *Hamont (N.P.), 439*

لقد تعرض أوربيون يعملون فى خدمة محمد على للضرب من قبل بعض الأتراك. فبينما كان الجنرال بوابيه موجودا بمصر، تم القبض على السيد ب.....، وهو صيدلى بأركان حرب كانكا، وألقى به على بطنه حيث جلد بالسوط، كما تعرض السيد دلـ....، وهو طبيب بدرجة رئيس، للضرب بأمر من أحد أقارب الوالى[1].

كان سليمان باشا هو الوحيد فقط الذى قاوم وتغلب على العقبات، ويرجع هذا جزئيا إلى اعتناقه للإسلام.

من المناسب أيضا، لتوضيح مدى نجاح أو صعوبة اندماج هؤلاء الجنود، أن نعقد مقارنة مع الجيوش العثمانية التى استعانت أيضا بأوربيين فى صفوفها. فأثناء المواجهات بين مصر والباب العالى، أبدت الجيوش المصرية تفوقا كبيرا على أرض الواقع؛ وقد استعان الباشا بسيف واستعان السلطان بهيلموت فون مولتكه (*Helmut Von Moltke*)، لكن الفرق يكمن فى أن السلطان لم يقم بإدماج الغربيين فى جيوشه؛ وإنما اقتصر دورهم على النصح والمشورة، أما محمد على فعلى النقيض من ذلك، فقد عينهم ضباطًا حتى فى بعض مناصب القيادة، كما أنه كان يكافئهم بسخاء، فضمن بذلك ولاءهم[2].

---

(1) المرجع السابق، ص 271.

(2) مرجع سبق ذكره، ص 271 .*Fahmy (K.)*

ومع ذلك يجب الإشارة إلى أن ثمة فرقًا يوجد بين معاملة هؤلاء الذين تم تعيينهم بأمر من الباشا وهؤلاء الذين جاءوا ليجربوا حظهم:

> **ما من أحد منبوذ هنا مثل الضباط الذين جاءوا من تلقاء أنفسهم. نعتقد أن البؤس هو الذى أجبرهم على مد أيديهم للباشا. وهذا هو السبب فى أنهم لم يمنحوا إلا ما أريد لهم[1].**

رغم كل المكائد والدوافع المختلفة، فإنه تم تكوين جيش قوى ومنظم وفقا لمبادئ حديثة. لقد كان هذا الجيش، كما سنرى لاحقا، أداة لا يستهان بها لطموحات الباشا متوسطة وبعيدة المدى.

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 52 ، *Boyer au Caire à Belliard cite dans Douin (G.),53*

الفصل الثامن

باسكال كوست (*Pascal Coste*)
(1878 - 1787)

معمارى فى خدمة صاحب السمو والى مصر

ولد فى مارسيليا، وتلقى تعليمه الأول فى التصميم والهندسة المعمارية طالبا على يد "ليدو: *Ledoux*"(*) وأنهى دراساته لدى "بيرسييه: *Percier*" وفونتين: *Fontaine*" وهما المهندسان المعماريان لنابليون الأول. اختاره محمد على عام 1817، باعتباره مهندسًا معماريًا من خلال صديقه "جومار: *Jomard*" المراسل الثقافى للباشا فى فرنسا. فى يناير 1818، وصل إلى القاهرة وقدمه بوغوص بك للباشا فى قصره بالقلعة؛ وكان محمد على حفيا به كعادته:

> **استقبلنى صاحب السمو استقبالا طيبا، ودعانى للجلوس على الأريكة حيث تُقدم القهوة والغليون، دلالة على الاحترام، معبرا عن سروره لاستقبال الفرنسيين الذين يودُّون فعلا مساعدته فى مشاريع إصلاحاته[1].**

(*) مهندس معمارى فرنسى متخصص فى تنظيم المدن. (المترجمة)

(1) *Mémoires de Pascal Coste cités dans Pascal Coste, Toutes les Egypte, Marseille, 1998, p.34.*

لقب كوست بناء على قرار مؤرخ فى سبتمبر 1821، بـ: معمارى فى خدمة صاحب السمو والى مصر.

لكن صحته تدهورت إثر لدغة عقرب، ونصحه كلوت بك بالعودة إلى فرنسا وكان ذلك فى 7 نوفمبر 1827. وقد نشر عام 1837، كتابا ضم 76 لوحة من تصميماته ومسوحاته بعنوان: *الهندسة المعمارية العربية وآثار القاهرة* محققا" من خلاله شهرة واسعة. كما استحق عن تصميماته ومسوحاته للمساجد جوائز فى معارض 1831، و1833، و1835[1].

لقد كان عمل باسكال كوست عملا عظيما، إذ عمل فى كل المجالات وكان مهندسا ومعماريا فى ذات الوقت.

توجه كوست فى بداية عمله إلى شمال مصر، حيث اهتم بأعمال هندسية مدنية، مثل إنشاء مصنع ومخزن للبارود بجزيرة الروضة، وإنشاء خط برق جوى بين الإسكندرية والقاهرة.

لكن عمله الأعظم فى هذا المجال هو بلا شك قناة المحمودية التى شغف بها. لقد كان الباشا يتمنى منذ عام 1817، أن يعيد فتح القناة القديمة الموصّلة بين الرحمانية وأبو قير بغرض تنمية التجارة، وقد بدأت الأعمال بالفعل، ولكنها، تباطأت نتيجة لعدم توفر مسئول مختص. كلف كوست بإدارة

(1) *Jacobi (D.), Pascal Coste, une décennie en Egypte, 1817-1827 in la France et l'Egypte à l'époque des vices-rois, op.cit.p.117.*

الموقع وأرسى معسكره بالقرب من عمود السوارى(*) بالإسكندرية. لكنه واجه وباءً فظيعًا من الطاعون ومن ثم مذبحة حقيقية للعمال، إذ لقى 6900 رجل حتفهم خلال شتاء 1818-1819. إن الخسائر الإنسانية الجسيمة التى وقعت من أجل حفر هذه القناة كثيرا ما ألقت نوعا من فقدان الثقة فى أعمال التهيئة العظيمة التى تمت فى شمال البلاد. وتم افتتاح القناة فى ديسمبر 1819.

عمل كوست أيضا فى قصور الباشا بالقاهرة والإسكندرية؛ إذ تعرض قصر الوالى بقلعة القاهرة للدمار نتيجة حريق شب فيه فى مارس 1824؛ فتم تكليف كوست من أجل:

> **مشروع قصر يضم قصره، الديوان والوزارتين، وزارة الداخلية ووزارة المالية بملحقاتهما؛ على أن يُشَيد بقلعة القاهرة محل أبنية قديمة موزعة بشكل سيئ ومهدمة[1].**

إن قصر القلعة يعد قصرا حقيقيا على النمط الغربى محتذيا نسق قصر فرساى: ساحة واسعة أمام القصر، درج ضخم يقود إلى حجرات متتالية فى غاية الفخامة. الحجرات متداخلة، والقاعات ذات أبعاد كبيرة، والنوافذ مستطيلة وكثيرة.

(*) تعود نسبة العمود باسم عمود السوارى إلى العصر العربى، حيث يعتقد أنها جاءت نتيجة ارتفاع هذا العمود الشاهق بين 400 عمود أخرى والتى تشبه صوارى السفن، ولذلك أطلق عليه العرب عمود الصوارى، السوارى فيما بعد، ويعرف أيضا بعمود بومبيوس. (المترجمة)

(1) *Wiet (G.), Mohammed Ali et les Beaux Arts, Le Caire, s.d.p.108.*

كان الإلزام الوحيد المفروض على كوست هو فصل سكن الباشا عن سكن نسائه. أما الغرف الأكثر روعة فقد كانت الديوان والحمامات.

إلا أن غادة قصر شبرا تبقى هى العمل العظيم الذى قام به كوست للباشا. وفيما يلى يلقى علينا المهندس المعمارى أوامر الباشا:

> **كان الباشا يريد بناء فرساى صغيرًا، بما فى ذلك من أيكات، ومتاهات، ومضمار للخيل، وحوض كبير محاط بمجموعة من الأروقة، مع أربعة أجنحة للديوان، ومسجد للصلاة وممرات طويلة تحفها الأشجار. ولقد قدم له هذا المشروع فى نفس الوقت مع مشروع القلعة، إلا أن المعماريين الأتراك والأرمن استولوا بدسائسهم على مشاريعى ولم ينفذوا منها إلا الحوض الكبير مع رواق الديوان بحديقة شبرا، وشوّهوا خططى[1].**

التصميم فى مجمله مقتبس كله من "التريانون: *Trianon*[*] بصفى أعمدته وجمود مظهره فى الشكل العام. أما أجنحة الزوايا الأربع فسمتها الزخرفية مستوحاة من الغرب والشرق فى آن واحد: فقد زخرفت قاعة الطعام برسوم مقتبسة من لوحات من كتاب وصف مصر، أما قاعة البلياردو فكان بها

---

(1) المرجع السابق، ص 134 ,*Cité par Wiet (G.)*

(*) التريانون *Trianon*، هو اسم للقصرين اللذين بنيا فى حديقة قصر فرساى. بنى التريانون الكبير عام 1687، من أجل لويس الرابع عشر، وبنى الصغير (1762-1768) من أجل لويس الخامس عشر.(المترجمة)

بناء على هيئة أطلال مستوحى من عمل "إيبير روبير: *Hubert Robert*[*]. على حين كان الجناحان الآخران مزينين بالأرابيسك أو بالزخارف العثمانية.

شيد حوض الماء فى الوسط بنفس أسلوب فرساى بجنيياته المنسقة بنفس الذوق؛ كما أحيطت أركان الحوض بأسود وتماسيح من الرخام تقذف الماء من أفواهها، بينما الفوارة الكبرى كانت فى المنتصف. لقد كان الحوض عميقا بما يسمح لقوارب صغيرة بالسير فيه.

آل القصر، بعد وفاة الباشا، لأحد أبنائه وهو حليم باشا الذى احتفظ به إلى أن تم إبعاده عن مصر تحت حكم الخديو إسماعيل.

فى قصر رأس التين، شيد كوست مقصورة صغيرة تطل بسعة على البحر كان الباشا يقيم فيها جلساته؛ وقد قام العديد من المسافرين والدبلوماسيين بوصفها قائلين: قاعة كبيرة مليئة بالنوافذ ومطلة على البحر، وتلفها من الجوانب الثلاثة أريكة حمراء كبيرة. خصصت الزوايا للأماكن الشرقية، وميِّزت بوسادة من الحرير القزمزى المذهب.

كُلِف كوست أيضا بتقديم تصميم لمسجد يكون مثوى لرفات الباشا بقلعة القاهرة. فى الواقع، تم توفير المساحة المطلوبة بعد هدم ديوان صلاح الدين

(*) إيبير روبير (1733-1808) هو أحد أهم الفنانين الفرنسيين خلال القرن الثامن عشر برز بصفة خاصة باعتباره رساما للمناظر الطبيعية وللوحات. من أشهر أعماله (أروقة تحت الأطلال، والمنزل المربع، وشلال تيفولى، والباستيل فى الأيام الأولى لتقويضه *Galeries en ruine, la- Maison Carrée, La Cascade de Tivoli, la Bastille dans les premiers jours de sa démolition)* (المترجمة)

بناء على أوامر الباشا. قرر باسكال كوست زيارة آثار العاصمة الدينية حتى يتسنى له أن يقدم للباشا مشروعا يأخذ فى الاعتبار السجل المعمارى للقاهرة، ويكون مندرجا ضمن هذا السجل المعمارى التقليدى. ومن أجل القيام بدراسة متعمقة للأبنية الدينية ويصبح بإمكانه العمل دون ضغوط، طلب كوست من الباشا أن يمنحه وثيقة تصرح له بزيارة المساجد:

> **حرر من فوره فرمانا وضع عليه خاتمه، وفيه أصدر أمرا لكل رؤساء المساجد ليتركوا لى حرية الحركة والقياس والرسم بداخل وخارج هذه الآثار، وأن يوفروا لى الحماية فى مواجهة من قد يعترض على هذا الأمر[1].**

وضع 76 تصميما لأشهر المساجد بالقاهرة: مسجد ابن طولون، ومسجد حسن[*]، ومسجد سنان، ومسجد قلاوون. أما بالنسبة لمسجد الأزهر الذى طلب محمد على تجنب تكرار معماره، فقد لجأ كوست للحيلة من أجل زيارته:

> **فكرت فى الذهاب لزيارة مدير هذا المسجد الجامعى، وقد استقبلنى استقبالا وديا وقدم لى الغليون والقهوة. أخبرته أن الباشا كان قد كلفنى**

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 99 *Pascal Coste, Toutes les Egypte,*

(*) ربما تقصد مسجد السلطان حسن.(المراجع)

بالمجىء للتعرف على الحالة السيئة لبلاط المسجد ولقاعات الدراسة حتى يتسنى استبدالها؛ وقد استقبل راضيا رغبة الباشا فيما يتعلق بمسجده. لما كان بلاط قاعات الدراسة مغطى إما بالسجاد أو بالحصير فقد قمت برفعه، وتمكنت بهذه الطريقة من قياس كل أجزاء الأثر فى مجموعه، وإلقاء نظرة داخلية على الفناء وتفاصيل أخرى دون أن يقلقنى الطلاب. ومازال المدير ينتظر إعادة التبليط. وقد واتتنى الفرصة لأقص القصة على محمد على الذى لم يتمالك نفسه من الضحك[1].

قدم كوست للباشا عام 1825، تصميمات لم ترق له، لأنها كانت مستوحاة كثيرا من المعمار المحلى. لاحقا، شيَّد محمد على لنفسه مسجد سنانيا[*] أكثر اقترابا من ميوله العثمانية العميقة.

---

(1) *المرجع السابق، ص 107.*

(*) نسبة إلى خوجة معمار سنان أغا، والمعروف أيضا باسم معمار سنان، وهو أشهر معمارى عثمانى عاش فى القرن العاشر الهجرى فى أوج العصر الذهبى للعمارة العثمانية وكان أشهر المعماريين خلال حكم السلاطين الأربعة: سليم الأول وسليمان الأول وسليم الثانى ومراد الثالث. (المترجمة)

لم يقتصر عمل كوست على هذه الإنجازات فقط، بل لقد كون شبابا مصريين ودربهم فى مهنة العمارة. لقد قام، وقد ارتدى الزى التركى، بمسح البلد كله، إذ جابه برفقة مملوك مترجم وحفنة من التلاميذ.

كنت دائما أقوم برحلاتى برفقة تلاميذى وأدواتى[1].

كان له بلا شك، من خلال طريقته هذه فى التعليم، الفضل فى إرساء مدرسة البوليتكنيك التى أنشئت بعد رحيله.

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 79 *Pascal Coste, Toutes les Egypte.*

الفصل التاسع

فرنسيون آخرون فى خدمة الباشا

من ضمن الفرنسيين الآخرين الذين عملوا فى خدمة الباشا، لابد أن نذكر بصفة خاصة جوميل: *Jumel*" وكايو: *Cailland*".

"لويس - أليكسيس جوميل: *Louis-Alexis Jumel* (1785-1823) تلقى تدريبه فى ليون حيث عمل بوصفه عاملاً. انتقل بعد ذلك إلى "سافوا: *Savoie* حيث التحق بأحد مصانع الغزل ليصبح فى غضون سنوات قليلة رئيسا للعمال. غادر جوميل أنيسى (*Annecy*) عام 1816، لينتقل فى بداية العام 1817، إلى "لاكلوز: *La Cluse*" على رأس منشأة كبيرة للغزل والنسيج وتصنيع الأجهزة الميكانيكية. وفى عام 1817، سافر إلى مصر، وأصبح مديرا لمصانع الغزل بالقاهرة بعد أن:

> **كنت أول من جعل الباشا يرى الغزل، رغم أن "موريل دانيسى: *Morel d'Annecy*" وشخصًا آخر كانا يعملان هنا منذ فترة طويلة لنفس السبب، وقد جعلنى هذا محلا لكل ثقة سموه، حيث أشرف الآن على تأسيس منشأة كبيرة ستبدأ العمل خلال عدة أشهر بكامل قوتها[1].**

---

(1) Lettre citée in Documentation sur le Jumel, Belfort, 1942, p.19.

وقد كان المصنع فى بولاق. كان جوميل يتمنى تطوير الإنتاج دون الاعتماد على القطن الأمريكى، ولذلك ظل منذ 1819، يبحث عن أجود نوع من القطن فى مصر حتى وجده فى حديقة "ماهو بك: *Maho Bey*:

> **نحو عام 1820 ترك أحد الدراويش، لدى عودته من السودان، لماهو بك، أحد رفاق محمد على، بعض البذور التى جلبها معه من رحلاته باعتباره تذكارًا للحفاوة التى استقبل بها. وقد قام ماهو بك، باعتباره تركيًا محبًا للبستنة، بزراعتها فى حديقته التى مازالت موجودة فى طريق شبرا. وقد نمت هذه البذور وفى غضون من خمسة إلى ستة أشهر أعطت تيلة غزل عرف جوميل، باعتباره فرنسيًا يعمل فى خدمة محمد على، أنها قطن عالٍ الجودة[1].**

وقد أدرك نجاح محاصيل السنوات 1821، و1822، و1823، ومات بالقاهرة فى 17 يونيو 1833.

"فريدريك: كايو: *Frédéric Caillaud*" (1787-1869) ولد فى نانت لأب يعمل حدادا، وقد تعلم مهنة صناعة الحلى التى مارسها لبعض الوقت فى

(1) مرجع سبق ذكره، ص 60 *Mémoires de Nubar pacha,*

باريس حتى عام 1809، ليلتحق بعد ذلك بدروس علم المعادن التى يقدمها متحف التاريخ. بدءا من 1813، زار روما ونابولى وهرقلانيوم، ثم سافر إلى القسطنطينية حيث التحق بالعمل فى بلاط السلطان لتنفيذ أعمال الصياغة. وبعد أن جمع قدرا وفيرا من المال، رحل إلى مصر.

فى الإسكندرية، التقى بدروفيتى الذى عرف شغف كايو بالآثار القديمة ووجد فيه منافسا له. قاما معا برحلة وصلت حتى الشلال الثانى من النيل، ولدى عودتهما إلى القاهرة قدمه دروفيتى للباشا الذى عينه عالم معادن رسميًا، كلف بمهمة ارتياد مناطق بالبحر الأحمر للكشف عن مناجم الزمرد، وفى عام 1818، رجع للباشا بعشر ليبرات(*) من الزمرد. عاد إلى فرنسا عام 1819 بعد رحلة قام بها لواحة الخارجة جلب منها بعض الآثار القديمة.

فى 1820، عاد من جديد إلى مصر، ولكن هذه المرة مكلفا من الحكومة لشراء آثار قديمة، وقد وُضِع بيير-كونستان ليتورزك، أحد الطلاب الضباط بالبحرية تحت تصرفه.

أقنع دروفيتى إسماعيل باشا، ابن الوالى، الذى خرج فى حملة إلى السودان، أن يصطحب كايو لاكتشاف مناجم الذهب. لكن حملة الفرنسى توقفت عند أسوان لأنه اتهم بأنه يريد القيام بالاكتشافات لحسابه الخاص. وبعد العديد من الصعوبات، ومع تصاريح جديدة من محمد على قبل إسماعيل باشا انضمام كايو ومساعده إلى الحملة فى 18 فبراير 1821. تقدم الاثنان فى

(*) الليبرة 500 جرام. (المترجمة)

يونيو 1821، ضمن القوات بطول النيل الأزرق، وقد ارتديا زيا تركيا وحملا أسماءً مستعارة، مراد أفندى لكايو وعبد الله الفقير لليتورزك. بعد تراجع قوات إسماعيل باشا فى فبراير 1822، رحل الفرنسيان وحدهما فى مغامرة، ووصلا إلى الأقصر في يوليو 1822. خلال هذين العامين من الاستكشاف، زار كايو المدن القديمة لمملكة كوش، وكان أول من بلغ مروى(*)، وعاد منهما برسومات ذات دقة بالغة، كما جمع ليتورزك قدر كاف من المعلومات لاستكمال خريطة مصر.

"بيير- نيكولا هامون: *Pierre-Nicolas Hamont*"، **(1805-1848)** وصل إلى مصر بناء على طلب الباشا الذى طلب من الحكومة الفرنسية طبيبين بيطريين لتأسيس مدرسة بيطرية بمصر. وهكذا، تم تعيينه هو وشخص آخر يدعى "بريتو: *Prétot*" الذى سرعان ما غادر مصر لأسباب صحية، وقد وصلا إلى مصر فى أكتوبر 1828، بعد موقعة نوارين. أقاما فى رشيد لأن الباشا حدد لهما هذا المكان باعتباره الموضع الذى يوجد به أكبر عدد من

(*) مملكة كوش تنسب إلى كوش بن حام واتخذت هذا الاسم إبان تتويج كاشتا أول ملوك الأسرة الخامسة والعشرين النوبية الذى غزا وضم مصر، والمنطقة من حوض نهر النيل التى تعرف بالنوبة كانت موطن ثلاث ممالك كوشية حكمت فى الماضى، الأولى بعاصمتها كرمة (2400-1500ق.م)، وتلك التى تمركزت حول نبتة (1000-300ق.م)، وآخرها مروى القديمة (بجراوية حاليا) (300 ق.م - 300م). كل من هذه الممالك تأثرت ثقافيا، اقتصاديا، سياسيا وعسكريا بالإمبراطورية المصرية الفرعونية الواقعة فى الشمال، كما أن هذه الممالك الكوشية تنافست بقوة مع تلك التى فى مصر، وذلك لدرجة أنه خلال الفترة المتأخرة من تاريخ مصر القديمة، سيطر ملوك نبتة على مصر القديمة، وحكموا باعتبارهم فراعنة الأسرة الخامسة والعشرين. (المترجمة)

القطعان التى تباد كل عام بسبب الأوبئة. وسرعان ما تم إرسال طلاب لهما، وخرجت إلى النور أول مدرسة بيطرية، وكانت الدروس تقدم فيها بواسطة مترجم.

كان المترجم يتسم بضعف الإرادة والكسل والبطء، ولم يكن يفهم المصطلحات التقنية، وينقل أفكار المعلم بشكل سيئ. لم تكن وظيفة المترجم تروق له كما كان يكيد لنا لدى الوالى[1].

كان يحرض الطلاب على الثورة، وسرعان ما تدهور الوضع.

وصلت تقارير إلى الباشا تقلل من شأن عمل الفرنسيين، لأن العلم البيطرى لم يكن معترفا به، واصطدما بكثير من التحفظات؛ إذ قال لهم محافظ طنطا:

أنتم معشر الأوربيين لا تؤمنون بالله جل جلاله. ومع ذلك، فكل شىء مقدر وكل شىء مكتوب، وإذا حدث على سبيل المثال، وكان هناك فى هذه اللحظة وفيات فى القطعان، فإن هذه الوفيات ليست إلا عقابًا من الله. هل تدعون أن بإمكانكم وقفها؟[2].

---

(1) مرجع سبق ذكره، الجزء الثانى، ص *Hamont (N.P.), 127*

(2) *المرجع السابق، ص 128.*

وهكذا، تم استدعاء هامون وطلابه إلى القاهرة، حتى يبت فى أمره إبراهيم باشا، الذى ارتاب هو الآخر فى قدرات هامون. ونتيجة لذلك وحتى يفصل نهائيا فى المسألة، أمر بنقل هامون إلى أبو زعبل، بالقرب من مستشفى كلوت بك، ليعالج خيول الجيش:

سنرى إذا كنت فعلا أقدر من أهل البلد على
شفاء الأمراض التى تصيب الحيوانات المنزلية[1].

وهكذا أسس هامون مدرسة بيطرية حقيقية بمساندة الأوربيين ذوى النفوذ وكل من كان يحظى برضا الوالى، وتم إنشاء مستشفى تسع 140 حصانًا تضم قاعات للتشريح، بالإضافة إلى عنابر وقاعات طعام ومساكن لكبار الموظفين المختلفين، كما تم تأسيس كرسى باللغة الفرنسية.

ولما كانت التقارير المقدمة تقارير جيدة، فقد حظيت المدرسة بالكثير من الإمكانات، إلا أن النجاح الذى تحقق جر العديد من المكائد، والتى كثيرا ما رددها هامون:

إذا كان هناك أطباء أوربيون، قد تجمعوا معا
من جهة وعرقلوا عملياتنا، فإن الأتراك، الذين
كُشِفت ممارساتهم الخفية، قد استعادوا من جهة

---

(1) المرجع السابق، ص 137.

أخرى موقفهم الأول وأخذوا يثيرون الشك حول جدوى الأطباء البيطريين الأوربيين[1].

نجح هامون فى إقناع الباشا بضرورة إلحاق طبيب بيطرى فى كل كتيبة بأبى زعبل، على أن تكون له نفس رتبة الطبيب العسكرى.

إلا أن السبب وراء رحيل هامون من مصر، إذا ما كان علينا تصديق كلوت بك، يرجع إلى سماجة الطبيب البيطرى التى أدت إلى إبعاده:

بوصفه فرنسيا فلم يكن يقع تحت طائلة القوانين التركية، كما أنه لم يتم التفكير فى ضرورة المطالبة بتطبيق القانون الفرنسى ضد أعمال الاختلاس أو الأعمال الأخرى[2].

إذا كنا لا نزال نصدق كلوت بك، فإن الكراهية التى كان يكنها هامون له دفعته بعد أن تم إبعاده إلى الهجوم على إنجازاته، مما كلفه إثر تحقيق قام به قنصل فرنسا أربعين يوما من الاحتجاز قبل مغادرته لمصر[3].

لقد كان سليمان باشا وكلوت بك وسوريزى بك هم الذين يُذكرون باستمرار أكثر من غيرهم فى المراسلات القنصلية، لأنه كان ينظر إليهم

---

(1) المرجع السابق، ص 148.
(2) مرجع سبق ذكره، ص 110 *Mémoires d'A.B.Clot-Bey,*
(3) المرجع السابق.

باعتبارهم الأكثر أهمية فيما يتعلق بتأثير فرنسا فى مصر. كما أن مساعدى هؤلاء الرجال الثلاثة كانوا موضع اهتمام فى الرسائل الدبلوماسية.

فى خلال السنوات 1830، بلغ عدد الفرنسيين الذين يعملون فى خدمة الباشا نحو 70 شخصا، وقد تجاوزوا هذا العدد لاحقا. أما الإيطاليون، فقد كان عددهم أقل بكثير ولم يبلغوا مناصب ذات مسئولية. وبالنسبة للإسبان فقد كانوا خمسة أو ستة وكذلك كان الإنجليز تقريبا[1].

يقيم "بريس دافين: *Prisse d'Avenne*[*]" هذا الإسهام الغريب بقسوة ملحوظة، إذ يقول:

> **لقد كان هؤلاء الأجانب المسيحيون أو المسلمون، الذين كانوا دائما مفضلين على الجنس العربى وحققوا ثراءً على حسابه، مكروهين من قبل الأمة، التى خدموها رغم ذلك؛ وأصبحت المؤسسات التى كانت من المفترض أن تجدد شكل البلد، وتمنحه مكانا مشرفا فى العالم السياسى، أمرا كريها لنفس الأشخاص الذين كان من الممكن أن تكون مدعاة لفخرهم[2].**

---

(1) مرجع سبق ذكره، الجزء السادس، ص 91 *Hamotaux (G.).*

(*) "إميل بريس دافين: *Emile Prisse d'Avenne*" (1807–1897) عالم فرنسى متعدد المهارات؛ إذ كان كاتبا وعالما ومهندسا ولغويا، كما كان مستكشفا وعالما بالآثار المصرية، وهو مؤسس المجلة الشرقية والجزائرية، ومن أشهر أعماله: الآثار المصرية، وتاريخ الفن المصرى، والفن العربى. (المترجمة)

(2) *prisse d'Avenne (P.), L'Egypte sous la domination de Mohamed Ali, 1847, p.54.*

يتسم رأى "جاك تاجر *Jacques Tagher*"، وهو مؤرخ مصرى خلال الخمسينيات من القرن العشرين، بنفس الشدة، إذ يتناول الموضوع ذاته مقتصرا على الإسهام الفرنسى:

> **عندما يكتب "بوجولا: Poujoulat[1]" إن كل ما تم إنجازه فى مصر تحت حكم محمد على كان بفضل الفرنسيين، أو أن مصر الجديدة كانت صنيعة إرادة قوية تساندها العبقرية الفرنسية، فهو إنما غفل عن أن يقول إن الفرنسيين الذين عيّنهم الباشا لم يكونوا جميعا خداما صالحين، وأن فرنسا كثيرا ما تجاهلت الوالى الذى وضع أمله فيها[2].**

إن هذه الانتقادات قاسية ولا تأخذ فى الاعتبار ما كان الباشا يفكر فيه بشأن هذه الإسهامات الخارجية. فباعتباره رجلا براجماتيا وفطنا، كان ينتقى من يريد من بين كل من يرغبون فى خدمته:

> **كان يعتبرهم مثل الألماس الخام الذى يجب أن تشتريه جملةً وتخمينًا. ومع الاستخدام، نكتشف أن عددا كبيرا لا يساوى شيئا ولا يصلح إلا للتخلص**

---

(1) فرنسى معاصر لمحمد على.

(2) *Tagher (J.), Mohamed Ali jugé par les Européens de son temps, Le Caire, 1952, p.77 et 78.*

منه؛ ولكن الأمر ينتهى دائما بالعثور وسط الكومة
على حجر نفيس يعوّضكم عما أنفقتموه مائة مرة.

إن سيف وكلوت وسوريزى هم الماساته الثلاث. كان هناك بالتأكيد الكثير من المغامرين، والرجال عديمى الذمة الذين لم يكونوا يهدفون إلا لتحقيق الثراء السريع، ولكن كم من الفرنسيين، المعروفين أو المجهولين، خدموا بإخلاص قضية ومثلا أعلى وحاكما لإحياء آمال شبابهم أو لتجريب نظريات جديدة. إن هامون وآخرين ممن اضطروا للرحيل لأسباب متعددة، وانتقدوا الباشا بصفة عامة بدافع الحقد، لم يستطيعوا مع ذلك الامتناع عن مدح الإصلاحات التى أسهموا فيها وأن يثنوا عليه ويبجلوه. ودون التشدق بكل ما هو جميل أو التغنى بالأمجاد الوطنية، فإن إسهام الفرنسيين فى إرساء مصر محمد على يعد إسهاما أساسيا. لقد اعتمدت عليه الأغلبية، لأنهم كانوا عملاء للدولة المصرية؛ فسليمان باشا لم يكن ليأمل أن يحقق نجاحا فى مهنته بعيدا عن مصر. إنهم على حد سواء البديل بل والضامن لصنيع الباشا فى مصر.

الفصل العاشر

أسرة الباشا

كان محمد علىّ يكن لعائلته محبة عظيمة،
لقد كان حنونا ويحب أبناءه حبا جما[1].

أشير فى السجل الذهبى للعائلة الملكية أن الوالى أنجب 17 ولدا و12 بنتا[2]، إلا أن الكثيرين منهم ماتوا فى سن صغيرة. سوف نتناول بالذكر هؤلاء الذين لعبوا دورا فى تاريخ مصر فحسب.

من بين هؤلاء الأبناء، لعب كل من إبراهيم باشا وطوسون باشا وسعيد باشا وحليم باشا دورا سياسيا. أما عباس باشا، بن طوسون باشا، فقد كان حفيده الوحيد الذى شغل مناصب مهمة أثناء حياته.

إبراهيم باشا (1789–1848) الذى عاون أباه طوال فترة حكمه لكنه لم يقاسمه كل وجهات نظره حول حكم مصر. وبعيدا عن عبارات الثناء التى امتُدِح بها فى المناسبات، تتبدى لنا صورة أكثر تباينا عند قراءة وصف

---

(1) مرجع سبق ذكره، الجزء الأول، ص *Hamont (N.P.)*,439
(2) انظر فى الملاحق القائمة كاملة.

المعاصرين؛ إذ يصف لنا "مارسيل: *Marcel*" تكوينه الجسمي دون مجاملة قائلا:

لم تعوض أى من سماته الجسمية ما ينقصه من النبل أو الجمال فى شكله أو هيئته؛ إنه دائما سيئ الملبس مما يزيد من بشاعة مظهره الخارجي إنه بدين للغاية[1].

ومن حيث أخلاقه:

إن الأمير سريع الانفعال وغضوب للغاية، إنه متقلب الأطوار، وعنيد، وسيئ الظن، وحقود أكثر مما يمكن أن يصفه أى تعبير[2].

إن هذه السمات الشخصية تؤكدها الطرفة التى رواها مسافر روسى يدعى أومانتز عام 1842:

أثناء إحدى مباريات الشطرنج بين إبراهيم باشا وأحد الوجهاء، نشب خلاف بينهما. لم يكن الوجيه يرغب فى التنازل، وربما يكون قد سمح

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 37 .*Marcel (J.J.)*
(2) المرجع السابق.

لنفسه بالتفوُّه بتعبير غير لائق. فإذا بإبراهيم باشا يخرج مسدسا ويقتله فى الحال[1].

كان إبراهيم باشا معروفا ببخله، وحماسته تجاه العمليات التجارية ولاسيما فى مجال الأدوات العسكرية:

إن بخله لا مثيل له وشراهته تتجاوز بكثير خشونة أبيه. ناهيك عن الاتجار الحقير والبغيض الذى كان يمارسه أثناء الحملات، بل وأيضا أثناء السلم بثياب وطعام الجنود[2].

إن إبراهيم باشا بخيل. ففى سوريا، كان معه مبلغ كبير من المال، ومع ذلك كان يترك الجنود دون مال أو خبز أو ثياب[3].

القائد العام الذى صار بخله مضربا للأمثال[4].

كما كان مشهورا بميله للزراعة:

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 147 *Volkoff (O.),*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 37 *Marcel (J.J.).*

(3) مرجع سبق ذكره، *الجزء الثانى، ص 49* *Hamont (N.P.)*

(4) *المرجع السابق، الجزء الأول، ص 186.*

شغف إبراهيم باشا بالاقتصاد الزراعى، وانصرف إليه ووجد فيه متعته، بل يمكننا القول بالتأكيد أنه شجع الزراعة(1)

نسب المؤرخون المصريون بدءا من صبرى إلى أيامنا هذه إبراهيم باشا إلى أنفسهم وجعلوا منه "أول مصرى" فى العائلة الملكية. من الصحيح أنه ومن خلال تصريحاته كان يؤكد على كونه مصريًا بل ويمكن اعتباره أبا للعروبة.

أنا لست تركيا، لقد جئت إلى مصر صغيرا جدا، ومنذ ذلك الحين غيرت مصر دمى وأنا عربى تماما(2).

لم يخطئ الدبلوماسيون عندما دونوا فى تقاريرهم أنه:

جاء إلى مصر صغيرا جدا، واعتبر نفسه كأنه من هذا البلد، وبدا وكأنه يجعل من نفسه عربيا(3).

وصل إلى مصر فى سن السابعة عشر عام 1805، وهو الوقت الذى عُين فيه حاكما للقلعة. كان معروفا أنه يتحدث ثلاث لغات: العربية والتركية

---

(1) المرجع السابق، ص 187.

(2) مرجع سبق ذكره، ص 242 *Cité par Fahmy (K.),*

(3) *Lettre de Huder à Guillemot du 10 mars 1830. A.E. correspondence diplomatique. Egypte I fo. 312-322*

والفارسية، ولكنه كان يعبر عن أفكاره أفضل بالعربية، وهو ما يفسر الصورة المليئة بالثناء التى رسمها صبرى له:

لقد كان إبراهيم مصريا، وقد تفوق على والده بمتابعة تحقيق فكرة محددة، وهى استقلال مصر وعظمتها. لقد كان يتماهى مع المصريين[1].

فى 1839، وضع قنصل فرنسا "كوشليه: *Cochelet*" صورة حذرة جدا عن ذلك الذى سيصبح خلفا لمحمد على. إذ قدمه دون حماسة ولكنه عقد أهمية كبيرة على مقارنته بأبيه:

إن إبراهيم باشا، الذى تربى فى مدرسة محمد على، قد يتفوق عليه فى بعض الأمور. لن تكون له نفس الرؤى السامية، ولكنه سيكون إداريا. فيما يتعلق بالتجارة، فإن أفكاره أقل مالية من أبيه، لكن لديه استقامة فى العقل كما أنه مقتصد. لقد أدخل زراعات كثيرة وأنجز أعمالا مفيدة للبلد، بالإضافة إلى مهاراته العسكرية المعروفة. يتمتع بشخصية بها كثير من الصراحة. قد لا يكون قادرا على تحقيق مركز مثل مركز أبيه، ولكنه سيعرف كيف يحافظ

(1) مرجع سبق ذكره، ص 469 *Sabry (M.)*

على القوة التى ورثها. أعتقد أيضا أنه سيكون مرتبطا بفرنسا[1].

باعتباره جنديًا باسلاً وقائدًا بلا جدال، كان كثيرا ما يدخل فى نزاعات مع كبار ضباطه:

بعد أن سئم حسين بك، قائد إحدى كتائب المشاة، والجنرال سليم بك، وهو مملوك قديم للباشا الكبير... إلخ، من معاملة القائد العام السيئة لهم، انتقلوا للخدمة فى عاصمة الإمبراطورية التركية. كان من الصعب على اللجنة العسكرية أن تعيش فى وئام. كان مماليك محمد على يقولون: بموت سيدنا، لن نخدم ثانية لأن ما من أحد يستطيع أن يعيش تحت أوامر إبراهيم باشا[2].

إن الصورة التى تظهر حتى الآن عن علاقة الابن بأبيه صورة معتدلة فى المجمل؛ لكنه لاحقا، وكما سوف نرى، سوف تنشأ بين إبراهيم باشا ووالده معارضة صامتة تبدأ هادئة لتظهر بعد ذلك بطريقة أكثر وضوحا: إنهما شخصيتان مختلفتان تتعارضان فى مفهومهما بشأن مصر.

---

(1) *Lettre de Cochelet au ministre des Affaires Etrangères du 20 Août 1839. Correspondance diplomatique.Egypte VIII, fo.311-312.*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 46، 195 *Hamont (P.N.)*,

طوسون باشا (1793-1816) أرسل لمحاربة الوهابيين عام 1811.
كانت الحفلة التى أقيمت على شرفه هى الذريعة التى سمحت بتجميع كل الزعماء المماليك بقلعة القاهرة فى شهر مارس للقضاء عليهم فى تلك النهاية المأساوية التى نعرفها. فى 6 يوليو 1816، مات فى برمبال بالدلتا لدى عودته من شبه الجزيرة العربية.

> **كانت بشرته بيضاء، جسيمًا وسمينًا، وذا لحية طويلة. كان شجاعا وطيبا ومحبا للعرب كما كان مسلما صالحا. كان يعترض فى بعض الأحيان على تصرفات أبيه؛ وكانت القوات تخشاه وتحترمه فى ذات الوقت، لأنه من جانب كان يقتل أى جندى يقترف أبسط مخالفة للنظام، ومن جانب آخر كان يمنح نعمه لهؤلاء الذين يحسنون التصرف ويتسمون بالطاعة. كان الضباط والشعب كله تقريبا يحبه ويأملون أن يخلف أباه[1].**

وفقا للجبرتى[2] أيضا، فإن محمد على، عند نما إلى علمه مرض ابنه، انتقل إلى شبرا، حيث ظل يتجول من حجرة إلى حجرة دون أن تواتى أحدًا الشجاعة لإخباره بأن طوسون باشا قد وافته المنية.

---

(1) Djabarti, *Chroniques*, Le Caire, 1895, traduction, T.IX, p.215.
(2) المرجع السابق، الجزء الثامن، ص 251 و 267.

إسماعيل باشا (1795-1822) بعد استيلاء أخيه طوسون باشا على مكة، كان عليه أن يحمل مفاتيح المدينة المقدسة إلى السلطان بالقسطنطينية. لدى عودته، تم إطلاق طلقات مدفعية تحية له من القلعة، وشبرا وبولاق والجيزة[1]. وقد عاد بصحبة ابنة عارف بك، سليلة إحدى عائلات القسطنطينية العريقة والتى تزوجها بعد عدة أيام.

قاد الحملة إلى السودان فى 1820، وفى 1821، بلغ ملتقى النهر الأبيض بالنيل الأزرق بقلب السودان الشرقية. وقد شن حملة عنيفة كانت ثمنا لحياته فى 1822 بشندى؛ فبعد أن هدد أحد ملوك سنار[*]، الملك نعيم نمر، إذا لم يسلمه 2000 من العبيد، أحرق الملك السودانى خص[**] إسماعيل باشا الذى مات محترقا.

سعيد باشا (1822-1854- 1863) إنه بالتأكيد أكثر الأمراء المحبوبين من قبل المعاصرين الفرنسيين.

> **لقد كان فرنسيا بالقلب، وكان يستقبل بحفاوة كل ما هو فرنسى[2].**

---

(1) المرجع *السابق، ص 25.*

(*) إحدى المدن السودانية التى تقع على النيل الأزرق، وهى عاصمة لولاية بنفس الاسم. (المترجمة)

(**) كوخ من القش فى البلاد الحارة. (المترجمة)

(2) مرجع *سبق ذكره، ص 150* *Audouard (O.)*

تربى على يد فرنسيين مثل "كونيج: *Koenig*" المستشرق صاحب الأفكار التحررية، وفرديناند دو ليسبس الذى ساعد أباه محمد على فى بداياته.

هيئ للبحرية، وأبحر وهو فى سن الثانية عشرة على متن فرقاطة كان قائدها العام ضابطا فرنسيا. وقد تعلم الأمير الشاب، ومعه ثلاثون شابا من عمره، قيادة السفن من خلال دروس القائد الملقاة باللغة الفرنسية.

اعتلى الحكم عام 1853، بعد موت عباس باشا، وقد استُقبل جلوسه على العرش بالترحيب بعد الحكم الطاغى الذى اتسم به ابن أخيه.

كان إسماعيل باشا محبا لعائلته، إذ أعاد كل من فر إبان حكم عباس باشا.

من حيث بنيته الجسمانية كان:

> **أكولا وضخما، ولكنه حليما محب للحياة ولذاتها، مرحا ودعويا، وكان يشرب بشكل يثير الدهشة، وكانت يده كبيرة لدرجة أنه كان يستطيع أن يلطم الفيلة، كما كان ذا وجه عريض وبألوان داكنة[1].**

رغم تبذيره وشخصيته غريبة الأطوار، فإن سعيد باشا كان مجددا عظيما، إذ قام بإصلاح الإدارة، وأدخل كوادر مصرية فى الجيش، وأنعش السياسة التعليمية بأن أعاد من جديد إرسال بعثات مدرسية، كما أعطى دفعة للأشغال العامة.

---

(1) *About (E.), Le Fellah, Paris, 1873, p.173*

حليم باشا (183i-1894) أمضى فى فرنسا فترة شبابه، وكان شابا غير مكترث، كما كان صديقا لعائلة الملك لويس- فيليب (*Louis Philippe*). وقد عقد مع فرنسا علاقات وثيقة فى الأوساط السياسية.

بعد موت عباس باشا، ساعد أخاه سعيد باشا لاعتلاء العرش. عين حاكما عاما للسودان وهو منصب شغله لفترة قصيرة من الوقت. بعد اعتلاء ابن أخيه إسماعيل للعرش، آثر حليم باشا الابتعاد، إذ كانت تسود بين الاثنين عداوة خفية انتهت عام 1867، بنفى حليم باشا. كان حليم باشا ماسونيا(*) وأستاذا عظيما لها فى الشرق، وعرف بأفكاره التحررية.

عباس باشا (1816-1854) هو حفيد محمد على وابن طوسون باشا، وقد ولد فى جدة عندما كان أبوه يحارب الوهابيين. عندما وافت المنية طوسون باشا، حوّل محمد على كل حبه لحفيده الذى كان يعده لمسئوليات كبرى. لم يتلق مطلقا تعليما أوربيا كما هى الحال بالنسبة لأبناء الباشا الصغار سعيد وحليم، أو حتى مثل أبناء عمومته أبناء إبراهيم باشا: أحمد رفعت وإسماعيل.

بدا عباس فى عيون معاصريه باعتباره أميرًا شرقيًا فى منتصف الطريق بين الإمبراطور الرومانى ذى الأصول السورية إيل جبل(**) *Héliogabale* والأمويين. وكان يستمتع بالعيش فى الصحراء بين البدو.

(*) الماسونية معناها الحرفى هى البنائين وفى الفرنسية سموا (Franc-maçon)؛ أى البنائين الأحرار. هى عبارة عن منظمة أخوية عالمية يتشارك أفرادها عقائد وأفكار واحدة فيما يخص الأخلاق والميتافيزيقا وتفسير الكون والحياة والإيمان بخالق إلهى. (المترجمة)

(**) هو إمبراطور رومانى سورى انجنسية من ناحية أمه، وقد قضى شبابه باعتباره كاهنًا لإله الشمس الحمصى إيل جبل. (المترجمة)

لقد كان أميرا حقيقيا من الشرق القديم. كان متحديا، عابس الوجه، غير مكترث بمصائر البلد الذى عهد الله إليه بشئونه. كان يحب الانسحاب إلى الخفاء بقصوره والانعزال وسط حراسه ليعيش حياة طغاة الشرق الجافلين الشهوانيين؛ حيث يختلط الدم بالمجون[1]

كان دخوله إلى بيروت عام 1839 أحدوثة ومثارا للحديث.

إن عباس باشا، القائد هنا، ليس برجل دولة ولا رجل حرب، ويتذكر الجيش أنه رآه يصل إلى بيروت، أثناء الثورة قبل الأخيرة، مرفوعا على محمل كما تحمل النساء[2].

كان حاكما للقاهرة أثناء حكم محمد على، وكان اعتلاؤه للعرش عام 1849، مُرَحبا به فى البلاد فى بداية الأمر؛ لكن هذا الوضع سرعان ما تدهور لأن عباس باشا كان عنيفا وقاسيا ومستبدا. فقد أبعد أفراد عائلته عن الحكومة، واتهمه هؤلاء بأنه حاد بإرث محمد على، وفضل أغلبهم النفى إلى القسطنطينية، الأمر الذى أثار حنق عباس باشا بشدة:

---

(1) *Merruau (P.), L'Egypte contemporraine, Paris, 1858, p.7*

(2) *Lettre de L.de Weimars au ministre des Affaires Etrangères du 10 décembre 1840. Correspondance politique. Egypte XII, fo 311-313*

لو أن العجوز يخرج من قبره، لشنقهم جميعا. عندما كنت أشتكى من إبراهيم ذهبت إلى الحجاز، لكن لم تواتن أبدا فكرة التماس مساندة أعداء أسرتنا فى القسطنطينية[1].

بوصفه رد فعل لسياسة جده، كان يتمنى تحرير بلده من قبضة الأوربيين:

كان جدى يعتقد أنه حاكم مطلق؛ لقد كان كذلك بالنسبة لنا، وبالنسبة لخدمه، وبالنسبة لأبنائه. ولكنه كان عبدا للقناصل العامة[2].

أغلق عددا كبيرا من المؤسسات التى أنشأها محمد على، وطرد الكثير من الأوربيين. وقد مات مقتولا فى 14 يوليو 1854.

أحمد بك الدفتردار، هو زوج نازلى هانم، ابنة محمد على، وهو ينتمى لعائلة كبيرة فى القسطنطينية. شارك فى حملة السودان جنبا إلى جنب مع إسماعيل باشا، حيث اشتهر بالقسوة، وهناك العديد من الطرائف حول هذا الموضوع[3]. من بين القصص الطريفة المروجة، وإن تعددت رواياتها، يحكى

(1) مرجع سبق ذكره، ص 254 *Mémoires de Nubar Pacha,*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 531 *Benedetti de,*

(3) مرجع سبق ذكره، ص 114 *Audouard (O.),*

أن الدفتردار كان سيشق بطن أحد الجنود للتأكد من أنه قد شرب اللبن الذى رفض أن يدفع ثمنه.

> **إن هذا الرجل يجرى فى عروقه دم نمر وفهد**[1].

كان يعارض أى تحديث للجيش، وكان الباشا يخشاه لأن:

> **بعض الكلمات التى أفلتت أثناء السكر تجعلنا نعتقد أنه فكر أكثر من مرة فى الاستيلاء على الحكم**[2]

وافته المنية فى 8 يونيو 1833.

نازلى هانم (1799-1833) زوجة الدفتردار. حولت الشائعات المستمرة حياتها إلى حياة فاضحة جعلتها تبدو كأنها "مارجريت دو بورجونى: *Marguerite de Bourgogne*[*] . رسم كل الرحالة صورة للأميرة تفتقد للمجاملة، باستثناء "بواتو: *Poitou*" الذى كان متوازنا فى وصفها فى قصة رحلته:

---

(1) المرجع السابق.

(2) مرجع سبق ذكره، ص 48.*Marcel (J.J.)*

(*)هى ابنة دوق بورجونى(1290-1315)، وقد تزوجت من ابن ملك فرنسا عام 1305. فى 1314، قام ملك فرنسا بالقبض عليها بتهمة ارتكاب الزنا مع أحد الفرسان، وقد كان الأمر فضيحة كبيرة هزت الملكية وعرفت لدى الأجيال التالية بفضيحة برج نسلة *Affaire de tour Nesle*) نسبة إلى البرج الذى كانت الأميرة تلقى منه بعشاقها إلى نهر السين. (المترجمة)

ثارت حولها أيضا شائعات مشنومة، وتم تناقل قصص تذكرنا بمارجريت دو بورجونى وأساطير برج نسلة. إلا أن ما من شىء يثبت لنا صحة هذه الأفعال. لقد أثرت سمعة زوجها البشعة عليها كثيرا، ورفاقنا لم يذكروا لنا عنها إلا خيرا[1].

كانت تعتنى بإبراهيم باشا لدى موته. ويقدم لنا نوبار باشا إحدى الصور النادرة لها:

كان من المفترض أن أخته (نازلى هانم) تختبئ خلف حجاب أسود يبسطه الخصيان بينها وبيننا. لقد نسوا أن المرايا التى كانت تغطى كل جدران الغرفة كانت تعكس وجهها بأنفها المعقوف مثل منقار طير جارح[2].

توحيدة هانم (1791–1830) زوجة محرم بك، حاكم الإسكندرية. نعرف عنها أن زوجة أحد المبشرين كانت تعلمها اللغة الإنجليزية والرسم. كانت تعيش حياة هادئة.

اليكنيون أبناء الأخت: وهما أحمد باشا وإبراهيم باشا، والأول هو الأكثر معاونة لخاله. إذ شارك فى الحملة على الوهابيين وحصل على حكومة

---

(1) *Poitou (E.), Un hiver en Egypte, Paris, 1857, p.338*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 49 *Nubar,*

الحجاز، كما استأنف عملية إقرار السلام بعد رحيل إبراهيم باشا حيث استقر في جدة. استدعى للقاهرة في 1832، وشارك في الحملة على سوريا[1].

ليس لدينا الكثير من الوثائق عن زوجات وحريم الباشا.

زوجته الأولى أمينة، أم إبراهيم وطوسون وإسماعيل، وقد وافتها المنية عام 1824. كانت قد استُقبلت عند وصولها إلى القاهرة في احتفال فخم كما يروى الجبرتي:

> **تم إخطار كل النساء بالتوجه إلى بولاق لاستقبال زوجة الباشا. وقد اعتذرت السيدة نفيسة المرادية[2] متعللة بمرضها وعدم قدرتها على مغادرة غرفتها، إلا أن عذرها لم يقبل.**
>
> **وفي صباح الأربعاء، خرج حشد من النساء على ظهور خمسمائة حمار مؤجرين، واتجهن إلى ميناء بولاق ليعدن إلى القاهرة مصطحبات القادمة الجديدة إلى الأزبكية. تم إطلاق المدافع بكثرة من القاهرة والأزبكية، وتدفقت الهدايا من كل مكان،**

---

(1) المرجع السابق، ص 44.
(2) أرملة مراد بك.

وهى هدايا تمثلت بصفة خاصة فى أغراض لاستعمال النساء والأطفال[1].

بالإمكان عرض هذه الصورة لأمينة هانم:

طوال حياة هذه الزوجة، وهى سيدة قوية وسامية، كان يعاملها باحترام جم؛ أما هى فكان لها أشد تأثير عليه. كان يعتبرها، كما يقول الآخرون، جنيَّة تتولى أمر حظه. كان الشعب يوقرها ويحبها، ودائما ما كان نفوذها يتجلى فى العدل والرحمة: إذ كان كل وقتها مشغولاً بقراءة المظالم[2].

(1) مرجع سبق ذكره، ص *Djabarti,*205

(2) مرجع سبق ذكره، ص 190 *Wiet (G.),*

الفصل الحادى عشر

حياة الباشا الداخلية

من الناحية الشكلية، فإن الباشا رجلٌ قصير القامة قوى البنية ثاقب العينين. ويقدم لنا الكونت "بنيديتى: *Benedetti*" الذى التقى بالباشا خلال عام 1840 صورة جميلة جدا عنه من الناحية الشكلية والأخلاقية:

> **لقد كان لهذا الرجل شديد الخشونة، الذى بلغ القوة المطلقة بفضل الحيلة والقوة فى آن واحد، دون أى تدريب، من شأنه أن يقتن مزاجه العنيف، كان لديه الحدس بالأشياء التى تكتسب بالتعليم. وقد شرع، بعد أن أخذ على عاتقه مهمة إحياء حضارة مصر الهامدة، فى تمدين نفسه شخصيا، وقد نجح فى ذلك تماما. فى بعض الأحيان، كان يتمتع برقة الشخص الأنيق. له وجه دقيق ونظرة خارقة وفم فتىّ دائما، وعندما عرفته كان جذابا بسحر أساليبه الخفية باستمرار. كان يعتنى جيدا بنفسه، ولم يكن يرتدى قفازات، وهى زينة نادرا ما**

تستعمل لدى الشرقيين، إلا أن يديه الناعمتين لم يكن بهما أثرا لحياته الأولى[1].

لقد كان الباشا، وفقا لأقوال كل معاصريه، بسيطا ومتواضعا في حياته الداخلية. كان نشيطا أثناء النهار ويستيقظ مبكرا، إذ يصحو في الرابعة صباحا. لم يكن يحتاج إلا لوقت قليل من النوم، ولذلك:

كان الأوربيون الذين ينامون معه في نفس الخيمة يتذمرون لانزعاجهم طوال الليل بسبب الأسئلة التي كان يطرحها عليهم. كان يستمر في حديثه بينما يغط هؤلاء في النوم[2].

ونحو عام 1825، اتبع الباشا، بناء على نصائح كلوت بك، نظاما غذائيا لمعالجة التهاب معوى أصابه وكان يسبب له الأرق والحمى. كان معتادا على احتساء زجاجة نبيذ كل ليلة اعتقادا منه أن النبيذ يعطي القوة للشخص المسن ويمنحه نوما هادئا. وقد نجح كلوت بك في إقناعه بالتخلي عن هذه

(1) مرجع سبق ذكره، ص 512 *Benedetti de*
(2) *Saint-John, Egypt and Nubia, Londres, 1845, p.44.*

العادة، وأعطاه، بدلا عن ذلك أقراصا، طلب الباشا ألا تشتمل فى مكوناتها على الأفيون. ونام الباشا وكانت الأقراص مصنوعة من لب الخبز[1].

كان يتناول غداءه غالبا مع أوربيين، فى الثانية عشرة ظهرا، حيث اختار – بناء على نصائح كلوت بك– وجبات أوربية يعدها طهاة فرنسيون[2]، مستخدما السكاكين، والملاعق، والشوك، على حين:

> **كان يتناول عشاءه عند المغرب وسط العامة، ولا يقدم له حينئذ سوى الأطباق التركية. وكان يأكل بيديه مستخدما إياها على الطريقة الشرقية لتقطيع اللحم[3].**

عندما يستقبل الزائرين، نجده غالبا يجلس على أريكة على الطريقة الشرقية. وفى الإسكندرية بقصر رأس التين، كان يفضل بصفة خاصة غرفة تطل نوافذها على الميناء. فى عام 1831، قام فرنيناك دو سان مور *(Verninac de Saint Maur)* الذى جاء بحثا عن مسلة الأقصر، بوصفه لنا بدقة:

> **فى إحدى زوايا قاعة الاستقبال بقصر رأس التين، بين نافذتين تسمحان برؤية البحر والميناءين، يجلس محمد على بلحيته البيضاء**

---

(1) Mémoires d'A.B.Clot bey. S.d.p. 55.

(2) Clot-bey, Histoire de Méhémet Ali, Marseille, s.d.p.54.

(3) Douin (Ct), Mission de Boislecomte, Le Caire, 1927,p.141.

الطويلة على الطريقة الشرقية ممسكا بالغليون فى يده، متكئا بجسده على وسادات فخمة تحيط به من كل الجوانب. إن الوقار الذى كان يضفيه على كل عادات جسمه وبساطة زيه الأنيقة يتركان انطباعا بالاحترام[1].

لقد كان ملبس الباشا دائما بسيطا للغاية، إذ يرتدى زيا من القماش الأزرق وحزامًا من الكشمير، ومع جوارب من الحرير الأبيض، ونعال صفراء، وعمامة من الموسلين الأبيض يكتمل الشكل النهائى. لم يرتد قط قطعة من المجوهرات، وإنما خنجرا أو غليونا مزينا بالألماس أو الأحجار الكريمة. وغالبا ما يختار للمساء ملابس المماليك الطويلة.

لاحقا، ارتدى الزى العثمانى للنظام "*Nizâm*"[*]، وهو عبارة عن سترة طويلة مزخرفة العُرَى يشدها على القوام حزام من المعدن والرأس مغطى بطربوش؛ وقد ظهر بهذا الشكل فى صوره الرسمية الأخيرة.

كانت سكناه أيضا مزخرفة بلا تكلف؛ ففى رأس التين، كانت غرفة طعامه بسيطة وصغيرة، وكذلك كان الحمام. أما الأروقة فقد كانت مغطاة بستائر على الطريقة البحرية. كان يفضل على غرفة بها وسائل الراحة الأوروبية

---

(1) *Verninac de Maur, Voyage du Luxor en Egypte, Paris, 1835, p.56.*

(*) هو نظام عسكرى جديد أدخله السلطان سليم الثالث لتدريب القوات التركية على الطريقة الأوروبية ليحلوا محل الإنكشارية. (المترجمة)

موجودة بقصره فى الإسكندرية، غرفة أخرى على النسق التركى؛ حيث كان الفراش مبسوطا على الأرض فى وسط الحجرة، ومحاطا بقبة قصيرة تحمل ناموسية.

إن الباشا:

يعرف كيف يميز فى سلوكه الخاص بين
الرجل والحاكم[1].

وقد دفعه ذلك لأن يتخلى عن عادات البساطة عندما يكون عليه استقبال ضيوف ذوى مكانة؛ وهكذا، زود قصوره بأطقم من بورسولين السيفر[*] (*Sèvres*)، والكريستال والفضة الأوروبية والتى تصلح للاستخدام فى كل حفلات الاستقبال المعدة على شرف أشخاص مميزين، مثل دوق دو مونبونسييه *(Duc de Montpensier)*، نجل لويس – فيليب، عام 1846.

كان يحب استقبال الأجانب العابرين، حيث ينطلق معهم فى مناقشات يديرها بمهارة ومستمتعا بها.

(1) مرجع سبق ذكره، ص *Douin (Ct), 141*

(*) السيفر : هو خزف فاخر من صنع مدينة سيفر بفرنسا. (المترجمة)

كان الباشا يتمتع بفن خاص جدا فى جذب انتباه مستمعيه، بل وفرض رؤيته على من يحيطون به[1].

إذا ما اشتد النقاش، كان يحدث أن نجد الباشا وقد أرجع عمامته إلى الوراء. إن عادة استقبال الضيوف بهذه الحرية الشديدة أثارت غضب حفيده عباس باشا، الذى قال لاحقا:

لا أريد أن يكون الوضع كما كان فى عهد جدى، فيكون قصرى نوعا من المقهى أو مكانا للالتقاء تدخل الناس إليه لتبادل أطراف الحديث، إذا لم يجدوا ما يشغلهم[2].

من ضمن مجالات تسليته، كان يلعب البلياردو، وهى لعبة كانت فى ذلك الحين نادرة إلى حد ما فى الشرق. كان يمتلك قاعة للبلياردو بقصر رأس التين بالإسكندرية وفى قصر شبرا. كما كان يلعب أيضا بالورق "الكوتشينة" أو لعبة الداما[*]، أو الشطرنج الذى كان يجيد لعبه، وقد باغته أحد المسافرين فى قاعة كان يلعب بها الشطرنج، حيث وجده:

---

(1) *Cadalvene et Breuvery, L'Egypte et la Turquie, Paris, 1836, p.207.*

(2) مرجع سبق ذكره، الجزء الأول، ص 14 *Hamont (N.P.)*.

(*) لعبة الداما، هى لعبة شعبية ووسيلة تنافس وتسلية بسيطة، تلعب بين شخصين فقط على رقعة بها خانات 8×8 باستعمال قطع على شكل أقراص. (المترجمة)

مقرفصا على أريكة، وقد رفع عمامته ليحك رأسه، ثم مد ساقيه ليلعب بنعليه الموضوعين على الأرضية الخشبية أمامه: وفى النهاية أخذ يخلع معطفه الفرو ويرتديه عدة مرات[1].

لم يكن يتردد فى التسلية مع صغار الضباط أو حتى الجنود، وهكذا فى شبرا:

كانت أفضل تسلية له هى؛ أن يذهب مع حراسه مساءً قبيل غروب الشمس للجلوس على ضفاف النيل والتصويب على قدور من الفخار؛ لقد كان راميًا ماهرًا[2].

عندما يكون هناك ما يشغل باله نجده يتجول فى سكناه:

خطوته تتسم بثقة وانضباط العادات العسكرية على غرار الإمبراطور نابليون، كان يتجول عادة وقد عقد يديه خلف ظهره[3].

---

(1) *Fontanier, Voyage dans l'Inde et dans le Golfe Persique par l'Egypte et La Mer Rouge. Paris, 1844, p.15.*

(2) *Belzoni, Voyages en Egypte et en Nubie, t.I, p.19.*

(3) *Labat, L'Egypte ancienne et moderne, Paris, 1840, p.124.*

كان الباشا رحالا، يتنقل من قصر إلى آخر؛ إلا أن الإقامة التى كان يفضلها هى بلا جدال قصر شبرا: *سان كلود: Saint Cloud*[*] المصرى الذى كان قصرا ومنزلا ريفيا فى آن واحد. كان يقيم فيه بصفة عامة أثناء الأعياد وحتى تشتد درجة الحرارة، حيث ينتقل حينها إلى الإسكندرية. كان الباشا ينجذب لقصر شبرا لسببين: الغادة الشهيرة، حيث يحب أن يستريح، كما أنه فى نفس الوقت مكان مناسب ينصرف فيه إلى شغفه بأمور البساتين.

إن الغادة، كما سبق أن رأينا، عبارة عن حوض مستطيل قليل العمق يحيط به صفان من الأعمدة، حيث يأتيه الباشا كثيرا لمشاهدة لعب ورقص نسائه. كما كان يركب القوارب حيث:

> **يضاء السياج بمصابيح غاز، وفى ليالى الصيف يتنزه الباشا فى قارب ذهبى يتولى تحريك مجاديفه نساء من حريمه[1].**

ليس لدينا إلا القليل جدا من الشهادات عن حريم الباشا، لكننا نعرف أن الباشا كان مغازلا:

> **كان يحب النساء دون أن يكون عاشقا متدلها لهن[2]**

(*) هو قصر ملكى فرنسى شيِّد فى موقع رائع يطل على نهر السين على بعد 10 كم غرب باريس. وقد هدم ولم تعد تبقى منه سوى حديقة كبيرة تابعة للدولة الآن. (المترجمة)

(1) *مرجع سبق ذكره، ص 402* *Pauty,*

(2) مرجع سبق ذكره، الجزء الثانى، ص 437. *Hamont (N.P.),*

كانت الحديقة الأكثر أهمية هى حديقة قصر شبرا التى اعتبرت فى ذلك الحين إحدى أجمل حدائق الشرق، وبحوزتنا أوصاف كثيرة لها. تبلغ مساحتها نحو اثنى عشر إلى ستة عشر هكتارا(*).

يخترق الحديقة ممر مستقيم يتفرع إلى ممرات أصغر، وتحف أشجار السرو والسنط وأشجار الفاكهة والأشجار الصمغية وأشجار الحور والنخيل الطرق التى تشكل عند بعض التقاطعات مفارق طرق صغيرة وأماكن للاستراحة. كانت أرضية الممرات معبدة ومغطاة بأحجار صغيرة ملونة مشكلةً زخرفة كالبساط. وكانت نباتات النرجس والأقحوان والورود والدفلى تتداخل مع أشجار السرو، أما منتصف أحواض الزهور فقد زرعت بالنباتات العطرية مثل أشجار الليمون بالإضافة إلى أشجار البرتقال والرمان.

وفى شبرا تمت أقلمة أشجار اليوسفى. فى الواقع، قام يوسف أفندى، الذى أرسله الوالى لدراسة الزراعة بمدرسة البساتين بجرينيان (*Grignon*)، بالتوقف أثناء عودته إلى مصر فى مالطا حيث اشترى نباتات اليوسفى. وعند وصوله إلى مصر، أهدى هذه النباتات للباشا الذى أعاد زراعتها فى شبرا موكلا إلى يوسف أفندى أمر الاهتمام بنشرها.

لقد كان شغفه بأمور البساتين وزراعة الحدائق، الذى يشترك فيه مع إبراهيم باشا، شديدا لدرجة أنه ضاعف من عدد الحدائق سواء بالقاهرة أو الإسكندرية. لقد زرعت هذه الحدائق بأشجار البرتقال والليمون واللوز والخوخ والتوت؛ كما أنه كان يرسل من يبحث له فى كل القارات عن النباتات النافعة ونباتات الزينة.

(*) الهكتار يساوى 10.000 متر مربع. (المترجمة)

وقد أولى هذه الأعمال اهتماما كبيرا كما تدل على ذلك أقلمة نبات الداليا؛ لدرجة أن البستانى الذى لم يعتن بهذه الزهرة الواردة حديثا من أوربا عوقب بالضرب بالسوط عدة ضربات. ولدينا نماذج عديدة للعقوبات التى وقعت على البستانية المهملين. يجب القول بأن الباشا كان فى تجاربه المتنوعة لزراعة الحدائق: زراعة البرقوق أو البلوط، صلبا مثلما كان فى الأمور السياسية. وفى يوم من الأيام، قال له بستانى برباطة جأش أثناء تعرضه للعقاب:

ليس بإمكاننا إخضاع النباتات مثلما نفعل مع الرجال[1].

وقد قام الباشا، الذى أعجبته بلا شك هذه الملاحظة، بإرسال هدية له بعد عدة أيام.

(1) مرجع سبق ذكره، ص 24 *Marcel (J.J.).*

الفصل الثاني عشر

شامبليون ومحمد علىّ

وصل "شامبليون: *Champollion*" إلى مصر لأول مرة عام 1828، على رأس حملة فرنسية توسكانية انتهت عام 1830، وكان هدف الحملة هو عمل مسوح مختلفة لصعيد مصر. كانت الحملة تضم أعضاء من تخصصات متنوعة، فهناك رسامين: روسيلينى *Rosselini*، و"شيروبينى*Cherubini*، و"دوشين: *Dushesne*"، و"بيرتين: *Bertin*، و"لوهو *Lehoux*، و"أنجيليلى *Angelelli* "، و"نيستور لوت[1] *Nestor l'Hôte*"، وعالم رياضيات: روسيلينيى وهو عم الأول، وعالم طبيعة: "رادى: *Raddi*"، وطبيب ورسام: "ريتشى: *Ricci*"، ومهندس معمارى: "بيبنت: *Bibent*".

تم استقبالهم بالإسكندرية فى 18 أغسطس من قبل القنصل دروفيتى الذى وفر لهم سكنا وكان دليلا لهم؛ لكنه لم يكن محبذا لوصول البعثة التى يمكن أن تعكر اتجاره بالآثار. كان على شامبليون وأصدقائه القيام بالزيارة المعتادة للباشا وابنه إبراهيم باشا بالإسكندرية والقاهرة، قبل البدء فى أعمالهم. ولهذا الغرض، حصل دروفيتى على موعد يوم 24 أغسطس، يَمثُل فيه شامبليون أمام الباشا بالإسكندرية للحصول على الفرمانات اللازمة. استقبلهم

---

(1) تم تجميع مذكرات نيستور لوت عن الحملة من قبل جون لوفوبير وديان هارليه Jean lefebure et Diane Harlé فى *Lettres, journaux et dessins inédits*. paris,1993

محمد على استقبالا طيبا وسط رجال بلاطه، مبديا حفاوة ولطفا ممتدحا الطبيعة العلمية لرحلة شامبليون:

> **وقد سأل (محمد على) السيد شامبليون إلى أى مدى يريد أن تصل أبحاثه، وإذا ما كان سيذهب ليرى قمة الفرعون (الهرم على ما أعتقد)، كما قال أيضا للسيد دروفيتى إنه علم بالوعكة التى ألمت به وسأله عن صحته؛ وقدمت لنا القهوة فى أقداح صغيرة وغير محلاة، كما هى العادة المتبعة فى البلد، وقد خرجنا من هذه الزيارة فى غاية السعادة. بدأ محمد على فى سن تناهز الستين؛ إنه قصير القامة، وثيابه فى غاية البساطة، وله لحية بيضاء. وجهه كثير الانفعالات تملوه الرقة والدماثة، وعيناه وإن أحاطت بهما التجاعيد، وأصبحتا ضيقتين فإنهما تشعان روحا وحيوية. أما سكناه، فزينتها فى نفس بساطة شخصيته[1].**

بعد شهر من هذه المقابلة، اتخذت الجماعة الصغيرة طريقها إلى القاهرة عبر قناة المحمودية.

---

(1) المرجع السابق، ص 52.

وفى القاهرة، كان شامبليون فى ذهابه إلى الصعيد وإيابه منه، يلتقى بالباشا وابنه إبراهيم باشا ليقنعهما بحماية الآثار بصورة فاعلة. وقد أقنع شامبليون إبراهيم باشا بأهمية وجود حملة مصرية توجه للبحث عن منابع النيل، وكان يأمل أن يعين رئيسًا علميًا لها لكن لخيبة أمله كان لينان ***(Linant)*** هو الذى اختير لهذا المنصب.

وأثناء زيارة أخرى، أثار شامبليون فكرة الحصول على مسلة الأقصر[1].

لم ينس الباشا الإعراب عن امتنانه للعالم الذى جاء ليحيى التاريخ القديم للبلد الذى يحكمه. وهكذا، أثناء عشاء لدى الباشا حضره الدكتور باريزت الذى اضطر للتدخل إثر وعكة صحية ألمت بإبراهيم باشا، لم يفت الباشا أن يختم هذه الحادثة قائلا:

> **أحدهما أعاد الحياة لابنى، والآخر أعاد الحياة لأمجاد بلدى القديمة[2].**

وفى مناسبة أخرى، قال له:

> **من كل مذاهب أوربا، لست بحاجة أنا وشعبى إلا لمذهب من يفك رموز الهيروغليفية[3].**

بعد بعثته بالصعيد، حذر شامبليون الوالى من التدمير الذى لاحظ أن الآثار تتعرض له:

---

(1) انظر الفصل المخصص للمسلة.

(2) *Bibliothèque égyptologique 31, p.417*

(3) المرجع السابق، ص 417.

من الملح بل ومن الضرورة القصوى أن يقوم عملاء سموه، باعتبارهم يعرفون جيدا رؤاه المحافظة، بإتباع هذه الرؤى وتنفيذها بقدر استطاعتهم؛ إن أوربا كلها ستكون ممتنة للإجراءات الفاعلة التى يريد أن يتخذها سموه لضمان حماية المعابد والقصور والمقابر، وكل أنواع الآثار التى مازالت تشهد على قوة وعظمة مصر القديمة، كما أنها تمثل فى نفس الوقت أجمل زينة لمصر الحديثة. لابد من الإسراع لوضع حد لهذا التخريب البربرى الذى يحرم العلم كل لحظة من آثار ذات فائدة عظيمة[1].

أدرك الباشا أهمية الحفاظ على هذه الآثار وأصدر باستمرار فرمانات لحمايتها. إلا أن الأوامر التى كان يصدرها باستمرار فى هذا الصدد لم تنفذ كما ينبغى كما تدل على ذلك شواهد مختلفة. فيذكر "البارون دو بوالوكونت: *de Boislecomte*" - فى تقرير مؤرخ فى 19 يونيو 1833:

لقد قلت للباشا إنه، رغم الأوامر التى أصدرها، فإن آثار مصر القديمة مازالت تتعرض

(1) المرجع السابق، ص 445.

للتدمير كل يوم، وأن الأحجار المغطاة بالنقوش والرخام الثمين تؤخذان لصناعة الجير[1].

وقد قال الباشا، الذى كان يعرف الكثير، للقنصل "ميمو: ***Mimaut***" بشأن الأوامر التى يعطيها:

سأكون مندهشا لعدم اتباعها، فأنا تقريبا الوالى الذى تعد أوامره الأكثر احتراما، ولكننى لا أستطيع أن أستلزم أية طاعة فى الامتثال للأوامر من قبل الأوربيين؛ فأنا أكثر تساهلا تجاههم، وقد أحمل على الاعتقاد بأنهم بالأحرى، أكثر من أهل البلد، هم من يخربون الآثار التى يريدون بيعها أو تصدير أطلالها[2].

إن هذا الرد الذى وجهه الباشا لميمو، كان يقصد ميمو مباشرة، ذلك أن قنصل روسيا كان قد وشي بقنصل فرنسا الذى أرسل، فيما أرسل، القوائم الزمنية لأبيدوس، والتى وصفها بمكر *المتحف الخاص لقنصل فرنسا العام*[3]. كما تبادل القنصلان، الفرنسى والإنجليزى، دروفيتى وسالت، صراعا محتدما للحصول على أجمل القطع. وهكذا، استطاع الباشا أن يبرئ نفسه بسهولة إلى

(1) مرجع سبق ذكره، ص 23,*Wiet (G.)*

(2) *Douin (Ct), La mission du baron de Boislecomte, Le Caire, 1927, p.61.*

(3) *Cattaui (R.), Les archives russes en Egypte, Le Caire, 1931-1936, p.363.*

حد ما من هذه الانتقادات، وإن لم يسعه إلا الاعتراف بعدم القدرة على فرض احترام أوامره فى كل مكان. وقد اعترف "فريدريك كايو: *Frédéric Cailliaud*" أيضا بأن الأوربيين انطلقوا فى سلب ونهب جامحين:

> **لا يسعنا إلا تأييد الإجراءات الصارمة التى اتخذها أخيرًا محمد على، الذى أعلن نفسه حاميا للآثار المصرية، والتى لا يحترمها كما ينبغى رعايا دول أكثر تقدما[1].**

كما نشر كايو استنكار الباشا تجاه انتهاك المقابر الأثرية وتجارة المومياوات:

> **وهكذا فإن واحدا من الأتراك، الذين نعاملهم على أنهم برير، لم يتمكن من أن يتحمل مشهدا ربما لم يثر بعد دهشة أى مسافر أوربى[2].**

يبدو أن بعض الأوربيين قد انقسموا ما بين تمنيهم حماية الآثار ورغبتهم فى الحصول على أكبر قدر منها بوصفه نوعًا من الغرور الوطنى. وفى هذا

---

(1) *Cailliaud (F.), Voyage à Méroé, au Fleuve Blance, au-delà de Fazoql dans le midi du royaume de Sennar, à Syouah et dans cinq autres oasis, Paris, 1823-1827, T.III, p.300*

(2) *Cité par le général Weygand in Histoire militaire de Moahmmed Aly et ses fils, Paris, 1936, t.I, p.130*

المجال، بلغ التنافس بين فرنسا وإنجلترا ذروته. وقد شارك شامبليون نفسه بطريقة ما فى هذا الأمر، إذ تمكن من الحصول على نقش ثلاثى اللغة يستخدم بوصفه عتبة لأحد مساجد القاهرة؛ وقد أعفى نفسه من مسئولية هذا الأمر قائلا:

فرصة رائعة لمواساة فرنسا على خسارتها الفادحة لأثر رشيد.

واعترافا بالعمل الذى أنجزه شامبليون، منحه الباشا فى 4 نوفمبر 1829، وهو يوم عيد ملك فرنسا، سيفا ذهبيا يقدر بـ 4000 فرانك، وطلب منه أن يقوم أحد الرسامين المرافقين له برسم بورتريه له ولإبراهيم باشا. كتب شامبليون متحمسا لنستور لوت قائلا:

فلتأت إذن، جهز ألوانك، واغسل شاتك، وتعال لتنل أول تكريم يمنحه باشا للفنون الجميلة على الإطلاق! إنها لثورة لصالح الرسم، ولديك شرف الاستفادة منها[1].

(1) مرجع سبق ذكره، ص 229 *Nestor l'Hôte*,

إلا أن بورتريهات الباشا وابنه لم ترسم فى ذلك الحين، وإنما حُمل نستور لوت أثناء رحلة له عام 1838، على تنفيذ بورتريه نصفى للباشا وبورتريه فارسى لابنه.

فى 29 نوفمبر، سلم شامبليون للوالى *لمحة عن تاريخ مصر:* "*Notice de l'Histoire de l'Egypte*".

وعند مغادرته لمصر فى 26 فبراير 1830، قال هذه الكلمات:

أخيرا سيسمح لى آمون العظيم بتوديع هذه الأرض المقدسة. سأغادر مصر مفعما بهبات أهلها القدامى والحداثى.

الفصل الثالث عشر

البعثات المدرسية

تعود فكرة إرسال شباب مصرى للدراسة فى باريس إلى عام 1812، عندما طرح جومار، الملقب بالمصرى[1]، الفكرة على محمد على من خلال دروفيتى. عادت الفكرة للظهور من جديد عام 1826، عندما قام بوغوص بك بعمل بحث لمعرفة أى من فرنسا أو إيطاليا هو الأصلح لاستقبال الطلاب المصريين. وقد اختار الباشا فرنسا رغم نصائح المحيطين به والتى تميل نحو إيطاليا، ربما لتأثره بحجة قد أدلى بها دروفيتى:

> **إن رؤية مسلم فى باريس لا تثير نفس النفور الذى تثيره فى المدن الإيطالية، حيث الأحكام الدينية المسبقة أكثر شدة وشيوعا، كما أن ظروف الحرب التى يشنها صاحب السمو الآن ضد اليونان قد تثير أيضا مشاعر أكثر حدة من الكراهية وتؤدى إلى مصادمات غير مرغوبة[2].**

---

(1) جومار (آدم - فرانسوا) *Jomard (Edme-François)* (1777-1863)، وقد لقب بهذا اللقب بعد مشاركته فى الحملة الفرنسية على مصر بوصفه مهندسا جغرافيا. عاد إلى فرنسا عام 1800 ليشارك عام 1803، فى تحرير كتاب وصف مصر. فى 1859، عين رئيسا شرفيا للمعهد المصرى.

(1) *Louca (A.) Voyageurs et écrivains égyptiens en France au IXeme siècle, Paris, 1970.p.37.*

فى أبريل 1826، أبحرت أول بعثة لتصل إلى مارسيليا فى 15 مايو:

أرسل أربعون طالبا إلى فرنسا[1].

من الأربعين طالبا المبعوثين:

كان هناك 16 من الأتراك والشراكسة أو الأرمن، ومعظمهم مولود بالقسطنطينية، هذا بخلاف العثمانيين المولودين بالقاهرة؛ أما المصريون فكانوا خمسة[2].

كان أصغرهم سنا فى الخامسة عشر من عمره، وأكبرهم فى السابعة والثلاثين، ولم يكن أحد منهم يتكلم الفرنسية، وكانت اللغة الأم لغالبيتهم هى التركية. وقد تم جمعهم فى منزل بشارع كليشى تحت إمرة جومار، حيث يدرسون تحت قيادة معلمين مهرة:

كان البعض يدرس الإدارة العسكرية أو الإدارة المدنية؛ والبعض الآخر الهندسة، والمدفعية، والكيمياء والطب. أما هؤلاء الذين يتم تهيئتهم للملاحة، فكانوا يدرسون الهندسة وحساب المثلثات

---

(2) مرجع سبق ذكره، ص 88 *Merruau (P.),*

(3) مرجع سبق ذكره، ص 40 *Louca (A.),*

إلى أن يتم قبولهم فى مدرسة البحرية. بينما يدرس البعض الآخر الهندسة والإحصاء والفيزياء تمهيدا لدراسة الميكانيكا والهندسة المائية. كما كان هناك من يدرس الرسم والطباعة؛ أو انصرف لدراسة الزراعة أو المناجم والتاريخ الطبيعى: إلا أن الجميع كان يتعلم الفرنسية والرياضيات والتاريخ والجغرافيا[1].

يقر هامون أن جومار، وكذلك كل الأساتذة المعينين لهذه المهمة، قد عملوا بجد لنجاح هذه المهمة، وأضاف:

دروس، تدريبات، كتب، آلات، لقد تم توفير كل شيء بسخاء؛ وعلى حين كان الفرنسيون فى مصر يواجهون عراقيل شديدة لإرساء مؤسسات نافعة، كان المصريون المقيمون فى باريس، تحت النفوذ القوى لمديرهم، يتمتعون بكل التسهيلات الممكنة لينكبوا على دراسة التخصصات التى تنقل إليهم. لم يأل محمد على شيئا لنجاح هذه

(1) مرجع سبق ذكره، ص 88 و89 *Merruau (P.).*

المدرسة، إذ كان ينفق مبالغ طائلة، كان يريد أن يتعلم رعاياه كل ما يتعلمه الأوربيون[1].

كان يوم دراستهم ينقسم كالتالى: فى الصباح: قراءة وكتابة ومحادثة، وبعد الظهر: رسم وقواعد اللغة وحساب وجغرافيا.

وفى شهر يوليو 1827، خضعوا لاختبار عام، وفى السنة التالية فى 1 مارس 1828، عُقد لهم اختبار عمومى أمام نظارة من المستشرقين والأكاديميين والجنرالات:

تناولت الاختبارات التحريرية والشفهية مادة التعبير الفرنسى، والتحليل المنطقى والصرفى، والجبر، والهندسة والرسم؛ وفيما يتعلق بالتعبير، طُلب منهم التحدث عن أكثر ما أدهشهم فى فرنسا[2].

وكانت الإجابة التى حازت الجائزة هى التى عبر فيها كاتبها (مظهر) عن تحمسه للحدائق والمتاحف والمسارح وحلبات التزلج!

---

(1) مرجع سبق ذكره، الجزء الثانى، ص 188و189 *Hamont (N.P.).*
(2) مرجع سبق ذكره، ص 44. *Louca (A.).*

صنف الطلاب بعد ذلك إلى دراسات متخصصة: القانون، الاقتصاد، الكيمياء، الترجمة، الطب، النقش والطباعة الحجرية.

أما النتيجة العامة فقد قيمها جومار على أنها طيبة ونافعة؛ وباعتباره شكرًا له على خدماته، منحه محمد على لقب بك وأهداه علبة نشوق مرصعة بالألماس.

تم إرسال طلاب جدد في 1829، و1830، و1832. وفي 1833، أصبحت المدرسة المصرية تضم مائة وخمسة عشر طالبا.

كان ثمة تباين في النتائج؛ فمن جهة أكد هامون وآخرون فكرة أن الطلاب الذين تم تدريبهم أخيرًا لم يوظفوا عند عودتهم إلى مصر بما يتناسب مع كفاءاتهم الجديدة. وقد أعطى ماكسيم دو كومب (*Maxime du Camp*) مثالا لأحدهم يدعى خليل أفندى الذى بعد أن ألم بصناعة الحرير فى ليون عين بالقاهرة فى تجليد الكتب.[1] إلا أنه ومن جهة أخرى كان هناك نجاحات جلية يذكر منها عبدى ومختار، حيث أصبح الأول رئيسا للمجلس الأعلى والثانى وزيرا للمعارف العامة، وكذلك محمود نامى الذى أصبح وزيرا للمالية.

ويعد رفاعة **الطهطاوى** (1801-1873) أحد الرجال الرئيسيين لهذه البعثات. ولد رفاعة فى سوهاج بصعيد مصر، وينتمى لأسرة من الوجهاء، ويتمتع بسمعة طيبة، إذ يعود أصله من ناحية الأم إلى إحدى أشهر القبائل بالمدينة، وهى قبيلة الخزرج التى كانت معاصرة للأنصار، أما من ناحية أبيه

---

(1) *Du Camp (M.), Souvenirs Littéraires 1822-1894, réédition, Paris, 1962, p.133.*

فينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب، ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم(1). درس بجامعة الأزهر، وفى عام 1826، اختير لمرافقة أعضاء البعثة المدرسية باعتباره إمامًا لهم. قام أثناء إقامته بفرنسا بعمل حقيقى باعتباره وسيطًا ثقافيًا(2). وقد تعلم الفرنسية وتخصص فى الترجمة:

> **درس وترجم أعمالا تمثل تيار العقلانية السياسية (بالمعنى الواسع) والفلسفية لعصر التنوير: أعمال مونتسكيو مثل "روح القوانين" و"تأملات فى أسباب عظمة الرومان وانهيارهم"، وأعمال روسو مثل "العقد الاجتماعى" و"مغامرات تيليماك"(3).**

> **أثارت بعض أجزاء "روح القوانين" و"العقد الاجتماعى" إعجابه الشديد(4)**

كان يرصد المجتمع الفرنسى، وبدا شغوفا بمعرفة كل شىء، كما خالط المستشرقين مثل "سيلفستر دو ساسى: *Sylvestre de Sacy*" وكوسين دو

---

(1) *Rachid (A.), Rifaa at Tahtawi et Suzanne Voilquin L idéologie et conscience de classe in le Miroir égyptien. Marseille, 1984, p.226.*

(2) تعبير استخدمه أنور لوقا فى مقالته وساطة الطهطاوى 1801-1873 *La médiation de Tahtawi 1801-1873 in la France et l'Egypte à l'époque des vices-rois, Le Caire, 2002, p.59.*

(3) *Delanoue (G.), Les Lumières et l'ombre dand l'Egypte du XIXème siècle.Limites d'une acculturation in Le miroir égyptien,* مرجع سبق ذكره، ص 215.

(4) مرجع سبق ذكره، ص 59 *Louca (A.).*

بيرسوفال (*Caussin de Perceval*)؛ ودوّن كل انطباعاته فى دفتر يوميات سفره وسعى لفهم الحضارة الأوربية. وكان رأى رفاعة الطهطاوى فى الفرنسيين أنهم أنصارٌ لعقلانية الفلاسفة:

> **يمكن مصاحبة هؤلاء الناس، الجديرين بالتقدير والنافعين، لأننا نعرف جوهرهم منذ زمن طويل[1].**

لقد سقطت كل أحكامه المسبقة عندما ذهب إلى فرنسا، ولم يقلل هذا من شأنه؛ كما تعرف أيضا على فلسفة الإنسانية وعالمية المعارف، واعترف بأن:

> **أفضلية اللغة العربية، التى تعد حكرا على الإسلام، والمختارة لتكون لغة قرآن الله، ليست إلا وهما[2].**

ولقد راقب ثورة 1830، ووضع فى يومياته ترجمة للميثاق. وعند عودته إلى مصر عام 1831، درّس التاريخ والجغرافيا فى أبى زعبل، كما كان أيضا مترجما وأستاذا للترجمة.

فى عام 1841، أسس مدرسة المترجمين، مدرسة الألسن، التى كانت الدراسة تستمر بها من خمس إلى ست سنوات؛ وكان عمر الطلاب عند التحاقهم بها يتراوح ما بين أربعة عشر إلى ثمانية عشر عاما. كانت المناهج تتضمن اللغات الفرنسية والعربية والتركية، والرياضيات، والتاريخ والجغرافيا. وفى نفس

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 216 *Cité par Delanoue (G.),*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 65 *Louca (A.), La médiation de Tahtawi,*

العام، تم ضم المدرسة الإعدادية إلى مدرسة الألسن، لأن التلاميذ يجب أن يبدءوا دراسة اللغة الفرنسية منذ بداية التحاقهم بالمدرسة.

تمت طباعة يوميات سِفره *تخليص الإبريز* فى تلخيص باريز *(l'extraction de l'or pour faire connaître le résumé de Paris)* بأمر من محمد على عام 1834، ثم ترجم إلى التركية عام 1839. أمر الباشا بتوزيع العمل مجانا على الموظفين وتلاميذ المدارس. وقد ترجم أيضا عددا من الأعمال من الفرنسية إلى العربية، ولا سيما كتب الطب.

من الأسباب التى تساعد الفرنسيين على التقدم فى علومهم، يجب أن نذكر سهولة لغتهم وكل ما يجعلها لغة عظيمة[1].

نُفِى رفاعة الطهطاوى إلى السودان أثناء حكم عباس باشا، ثم عاد إلى القاهرة تحت ولاية سعيد باشا.

توقفت البعثات المدرسية أثناء حكم عباس باشا، إذ استُدعِى الشباب المصرى الذى يتلقى تكوينه فى باريس. إن هذا التوقف المفاجئ، الذى يفسره كثير من المؤرخين المصريين والفرنسيين على أنه تخلٍّ عن سياسة الحداثة التى تبناها محمد على، يجب بالأحرى أن ينظر إليه من الزاوية الجديدة التى

(1) *At Tahtawi, Relation de voyage à Paris (1826-1831), traduit par Anouar Louca, Paris, 1957, p.37s*

يريد أن يفرضها الوالى الجديد على العلاقات مع الأوربيين بصفة عامة. كان عباس باشا يعتقد أنه من الأفضل تكوين هذه الكوادر فى مصر بدلا من إرسالها إلى الخارج وخاصة فرنسا. وهكذا، على سبيل المثال، أعاد فتح المدرسة العسكرية لأبناء كبار الموظفين بقيادة سليمان باشا[1].

(1) مرجع سبق ذكره، ص 552 ,*Vingtrinier (A.)*

الفصل الرابع عشر

مسألة الزرافة

بدأت هذه القصة عندما واتت كل من دروفيتى، الحريص على إرضاء الملك شارل العاشر، ومحمد على، المستعد دائما لاستمالة الحكومة الفرنسية، فكرة إرسال هدية لم يسبق لها مثيل: زرافة تكون الأولى من نوعها فى فرنسا. كان من المعروف أن ملك فرنسا يولى اهتماما خاصا لحيواناته النادرة الموجودة بحديقة النباتات، وأن هذه الهدية غير المسبوقة ستكون محل تقدير.

فى خريف 1826، أمر الباشا بصيد زرافة من السودان. بعد ذلك بوقت قصير، وجد بعض الجنود زرافتين صغيرتين فى عمر الشهرين تقريبا، فقتلوا أمهما وأرسلاهما إلى القاهرة. قام دروفيتى، الذى استنفره هذا الصيد، بالإلحاح فى طلب الحيوانين؛ لكن قنصل إنجلترا تقدم بنفس الطلب، فقرر الباشا إرسال زرافة إلى فرنسا وأخرى إلى إنجلترا. وحينئذ كتب دروفيتيى- بلهجة المنتصر- إلى بارون دو داماس (*de Damas*) وزير الشئون الخارجية للملك شارل العاشر:

يسرنى أن أنقل إلى سعادتكم أن الحظ كان مواتيا لنا؛ فزرافتنا فى الواقع قوية ونشيطة، أما

تلك التى آلت إلى ملك إنجلترا فهى ضعيفة ولن
تعيش طويلا(1).

فى الحقيقة لقد تكبدت الزرافتان عناء كبيرا بالفعل أثناء نقلهما من السودان إلى القاهرة.

وفى هذا الصدد تتابعت الرسائل المتبادلة بين علماء المتحف، القلقين بشأن طريقة نقل الزرافة، ودروفيتى. تم اتخاذ الإجراءات اللازمة، فقد تقرر إرسال الزرافة، التى لم تفطم من الرضاعة بعد، برفقة ثلاث بقرات توفر لها ما تحتاجه يوميا من اللبن (20 إلى 25 لترا من اللبن)، كما سيرافقها ثلاثة من الخدم السودانيين، أحدهم ظل معروفا إلى وقتنا هذا وهو عاطر.

فى أكتوبر، كان كل شيء جاهزا لنقل الزرافة، التى أطلق عليها اسم *زرافة*، ومرافقيها. وقد اتخذ دروفيتى كل الاحتياطات اللازمة لتسافر هذه الهدية الثمينة فى أفضل الظروف. تم النقل على متن سفينة سردينية اسمها ***(I Due Fratelli)*** وكلّف الخزانة العامة الفرنسية مبلغا زهيدا قدر بأربعة آلاف وخمسمائة فرانك.

بعد 17 يوما من السفر رست السفينة فى مارسيليا فى 23 أكتوبر 1826. كانت الصحف التى تسرد أخبار وصولها، تتحدث عن *الجميلة*

---

(1) تظل الدراسة المرجعية هى مقال جابرييل داردو ***Gabriel Dardaud*** فى ***(la revue des Conférences en Orient, no.1, Janvier 1951, intitulé l'aventure de la Girafe).***

المصرية أو *الجميلة الأفريقية*. وأمام التخوف من شتاء قارص جدا، فُضِّل أن تمضى الزرافة هذا الفصل بولاية مارسيليا التى واجه حاكمها ولعا حقيقيا؛ فالجميع يريد أن يرى الزرافة، وكان عليه إذن أن يغربل الزيارات. وبعد أن أعيته الحيل، انتهى به الأمر بأن نظم حفلات استقبال لإبداء الإعجاب *بالزرافة*.

وخوفا من أن يصيبها الملل، كانوا يخرجون بها للتنزه فى وقت معين كل يوم؛ وكانت هذه النزهات تثير سرورا شديدا لدى السكان الذين يرونها وهى تمشى بخطوات واسعة تمكنها من بلوغ ضواحى مارسيليا.

وقد ظل الملك مطلعا على صحة الزرافة من
خلال نشرات بعنوان "مسألة الزرافة".

فى نهاية الربيع وبداية الصيف، عندما أصبح الجو لطيفا، تم تنظيم رحلتها عبر فرنسا. وقد قدر "جوفروى سانت هيلار: ***Geoffroy Saint Hilaire***" أنه بمعدل 27 كيلومترا فى اليوم، يمكنها أن تبلغ باريس فى 52 يوما. وخوفا من أن يصيبها البرد، صنع لها غطاء واقٍ من المطر من النسيج المصمغ بأزرار من الأمام، وقد نقشت عليه من جانب شارات الباشا، ومن الجانب الآخر شارات ملك فرنسا.

يا لها من قافلة مدهشة: الزرافة، والبقرات الثلاث الحلوب، والسودانيون الثلاثة تتبعهم عربة جيوفروى سانت هيلار التى يجرها الخيل. وصلت زرافة

إلى حديقة النباتات فى 30 يونيو 1827، وأخذت قسطا من الراحة قبل أن ترحل فى 9 يوليو إلى سان كلود من أجل عرضها على شارل العاشر. وقد أكلت بتلات الورد من يد الملك.

لقد أراد جلالته أن يرى هذا الحيوان الفريد وهو يمشى، بل وهو يجرى أيضا. كان بلاط الملك كله حاضرا، وبدت خطواتها، وخاصة فى العدو، رائعة للغاية[1].

فى عام 1827، قدم 600.000 باريسى لزيارتها فى حديقة النباتات، حيث نفقت عام 1845. كان عاطر يعتنى بها، إذ كان يمشطها بعناية كل يوم مستخدما فرجون[*] له مقبض مزود بعصا طويلة.

كانت الزرافة سببا فى ظهور موضة بأشكال متعددة[2]؛ إذ ارتدت الأنيقات فساتين بلون الزرافة مع تعدد الألوان، فهناك الزرافة العاشقة أو الزرافة فى المنفى، مع مظلات بلون الزرافة فضلا عن تمشيط الشعر بأمشاط بلون الزرافة.

---

(1) *Le Moniteur, mercredi 11 juillet 1827.*

(*) أداة تحمل أنصال قصيرة مسننة، وتستخدم لتمشيط شعر الخيل. (المترجمة)

(2) *Influence de la girafe de Charles X sur l'art populaire in Art populair, t.IV, 1933.*

كما صممت أطقم صحون "جيان: *Gien*" وقد زينت برسم يصور زرافة تتنزه برفقة عاطر، بالإضافة إلى صناعة بندول الساعات والأسِرّة على شكل الزرافة.

كان الهوس بالزرافة لا يقاوم، وقد حظيت الزرافة حتى نفوقها، بمكانة عظيمة.

الفصل الخامس عشر

حرب المورة

فى الفترة ما بين 1823 إلى 1826، كان هناك تدخل من قبل مصر فى المورة بناء على طلب الباب العالى؛ وفى هذا الصراع، يجب التمييز بين مرحلتين:

- **الأولى**: لا تخص سوى الإمبراطورية العثمانية؛ فالسلطان محمود الثانى، الذى أراد قمع ثورة قامت فى إقليم من أقاليم الإمبراطورية العثمانية، طلب المساعدة من محمد على.
- **الثانية**: بدأت عندما أصبح الصراع دوليا، أى عندما ساندت الدول الكبرى اليونانيين لاستعادة استقلالهم.

كان الروس دائما ما يحفزون اليونانيين، وبصفة عامة شعوب البلقان المسيحية، على الثورة. فمنذ عام 1815، تكونت شبكات لتحريض اليونان على التمرد، فقد أسند القيصر ألكسندر (*Alexandre*) لمساعده ألكسندر إيبسيلانتى (*Alexandre Ipsilanti*) تولى هذا الأمر، وتحالف على تيبيلان(*)، حاكم يانينة، مع اليونانيين عام 1820، للتمرد، وكان ذلك بمساعدة الشهير إيبسيلانتى. لكن هذه

(*) هو حاكم مدينة يانينة بإقليم إبيروس بشمال غرب اليونان، وقد حاول الاستقلال عن الدولة العثمانية فى بداية القرن التاسع عشر. (المترجمة)

الثورة سرعان ما توقفت حيث رأى "مترنيخ(*): *Metternich*" أنها تمثل خطرا على مصالح النمسا فى أوربا الوسطى. خان القادة اليونانيون المأجورون إيبسلانتى الذى حنق عليه القيصر أيضا. ومنذ أن انتهت ثورة حاكم يانينة اتخذ اليونانيون بدءا من 1821، من المورة معقلا لهم أسسوا فيه حكومتهم فى "نافبليو: *Nauplie* (**)".

كانت المهمة التى طلبها السلطان محمود الثانى فى الأصل تتمثل أولا فى قمع ثورة الكريت عام 1823. وقد قام محمد على بذلك سريعا وكوفئ بمنحه بشلقة كانديا(***)، التى مثلت بالنسبة له كسبا ذا أهمية كبيرة بسبب موقع الجزيرة، المجاورة لمصر.

لكن الإخفاقات المتكررة للجيوش العثمانية فى المورة، المركز الرئيس لثورة اليونانيين، دفعت السلطان لأن يطلب من محمد على التدخل. وافق الباشا متحفظا لأنه كان يتمتع بعلاقات تجارية طيبة مع اليونانيين. فى 16 يناير 1824، أرسل السلطان فرمانا إلى الباشا أسبغ فيه عليه بالمديح، ملقبا إياه بمبيد الخائنين، ويأمره بإخضاع المورة التى منحه بشلقيتها. ولذلك لقب بوغوص محمد على بـ (*بونابرت أفريقيا*[1]).

(*) *Prince Clément Metternich*، كليمان مترنيخ (1773–1859) هو دبلوماسى وسياسى نمساوى كرس حياته للحفاظ على مجتمع النظام القديم فى مواجهة الاضطرابات التى خلفتها الثورة الفرنسية، وكذلك للدفاع عن وضع النمسا وتوازن القوى. (المترجمة)

(**) نافبليو *(Nauplie)* هى مدنية يونانية تقع جنوب البلاد ضمن منطقة البيلوبونيز وتقع على رأس الخليج الأرغولى أحد تفرعات بحر إيجة. (المترجمة)

(***) كريت. (المترجمة)

(1) مرجع سبق ذكره، ص378. *Gouin (E.)*.

أرسل الوالى 30.000 رجل تدربوا على يد مدربين فرنسيين فى خدمة الباشا، وعين إبراهيم باشا قائدا عاما للجيش المرسل. وقد انضم الأسطول المصرى الذى كان قوامه 63 سفينة حربية و100 سفينة نقل إلى الأسطول العثمانى فى رودس. كان العثمانيون تحت قيادة خسرو، حاكم القاهرة السابق الذى طرده محمد على عام 1805، لكن الخلافات ما لبثت أن نشبت بين الرجلين، وهى خلافات تعود فى جلها إلى أن إبراهيم باشا لم يحتمل أن يكون تحت قيادة خسرو.

فى يناير 1825، تحرك إبراهيم باشا إلى المورة واخترق أراضيها بسهولة، وسرعان ما سيطر على كورونى ومثونى ونوارين وباتراس وتريبولى. لم يقم إبراهيم باشا بارتكاب المذابح أو الجرائم التى اتهموه بها فى الغرب؛ وتعد رواية "لوفرنى: *Lauvergne*"، التى قلما ما يشار إليها، ذات دلالة فى هذا الصدد:

> **عند دخول حملته، اتسم سلوكه بالتسامح وكرم الأخلاق. ومما يدعم الرأى الذى أسوقه ما رأيته فى سهول مثونى: لقد رأيت بنفسى يونانيين يقبّلون يد إبراهيم، وقد بعث بهم قائلا لهم: "فلتذكروا فى كل الأرجاء أننى أبوكم وأن قسوتى لن تطول إلا المتمردين[1].**

---

(1) *Lauvergne (H.), Souvenirs de la Grèce pendant la campagne de 1835, Paris, 1826, p.67.*

كانت مدينة ميسولونجى هى الوحيدة التى أبدت مقاومة شرسة؛ وقد تلقى رشيد باشا الذى لم يتمكن من إخضاعها الأمر التالى من الباشا:

ميسولونجى وإما رأسك[1].

ساعد إبراهيم باشا الجيوش العثمانية على إخضاع ميسولونجى التى سقطت فى 22 أبريل 1826؛ وقد أدى سقوط هذه المدينة إلى سقوط كل اليونان. بدأت حينئذ حملة "إعلامية" فى أوربا تهدف إلى وصم الجيوش العثمانية والمصرية "بالبربرية":

> **ذاعت الشائعة التى تقول إن إبراهيم باشا كان يعتزم إبادة الشعب أو على الأقل ترحيل وتهجير السكان لتعمير القطر المصرى والعربى. لاحقا، شكلت الأعمال الوحشية التى قام بها المصريون فى المورة، والعبودية والمذابح المرتكبة على نطاق واسع، قاعدة جديدة لإطلاق الانتقادات[2].**

(1) *Mouriez (P.), op.cit.p.297.*

(2) *Sabry (M.), L'Empire égyptien sous Mohamed-Ali et la question d'Orient (1811-1849), Paris, 1930, p.106.*

تمت تعبئة الرأى العام فى الغرب بروايات خادعة أو مغرضة. لابد، وبشتى الطرق، من إقصاء العثمانيين والمصريين الخائنين الذين يعادون المسيحيين فى هذه المعركة، لقد عادت إذن روح الحروب الصليبية تنفث من جديد فى القوميات المتأججة.

فى عام 1825، وأمام الانتصارات العثمانية، تحركت أوربا لحماية اليونانيين، الذين تنافست كل من فرنسا وإنجلترا فى مد حمايتهما عليهم من خلال إرسال المساعدات. لكن فرنسا كانت منقسمة بشأن الموقف الذى عليها اتخاذه، وذلك بسبب علاقاتها المتميزة مع مصر. كان هناك بعض الدبلوماسيين الفرنسيين، مثل الكونت جوردان (*Jourdan*[1]) الذين كانوا يعتقدون بضرورة تشجيع الاستقلال المصرى واليونانى على حد سواء، ليكون ذلك نقطة ارتكاز للنفوذ الفرنسى فى البحر المتوسط، بل ذهب إلى حد أن كتب لإبراهيم باشا لينصحه بالاعتراف باستقلال اليونان والمطالبة باستقلال مصر من أجل تكوين:

إمبراطورية جديدة سرعان ما ستصبح واحدة
من أعظم الإمبراطوريات فى العالم[2].

---

(1) جوردان (ج.ب.، كونت) *Jourdan (J.B., comte)* (1762-1833)، مارشال فرنسا. شارك فى كل الحروب الثورية، وكان جمهوريا مخلصا مما جعله يعارض انقلاب 18 برومير (هو الانقلاب الذى قام به نابليون بونابرت العام الثامن 9 نوفمبر 1799، وقضى به على حكومة الديركتوار والثورة الفرنسية - المترجمة)، لكن بونابرت لم يتمكن من الاستغناء عن هذا الضابط المهم. شغل منصب سيناتور ثم مارشال عام 1804، وساند الملك جوزيف فى إسبانيا. صوت لسقوط نابليون عام 1814، وحاز لقب نبيل أثناء الرستوراسيون.

(2) مرجع سبق ذكره، ص 108. *Cité par Sabry (M.).*

إن تداعيات الاصطدام التى أحدثها سقوط ميسولونجى، وحملة الأعمال الرومانسية لصالح اليونان مثل أعمال بيرون (*Byron*)، والخوف من رؤية إبراهيم باشا يشيد فى المورة دولة مسلمة، حالت جميعها دون تنفيذ مثل هذه الخطة. أما بلانا فقد حكم حكما قاسيا على فاعلية المثقفين الأوربيين:

> **إن شعراءنا، بتغنيهم الدائم بيونانيى بيريكليس(*) أو ليكورجوس(**)، لم يسهموا بقدر قليل فى إزهاق الأرواح[1].**

بدءا من عام 1823، تم تأسيس بعض المنظمات فى فرنسا مثل جمعية *الأخلاق المسيحية* أو *الجمعية الخيرية لصالح اليونانيين*، وكان من أعضائها شخصيات مثل شاتوبريان: *Chateaubriand*"، أو دوق دو شوازول (*duc de Choiseul*)، أو "فيرمان – ديدو: *Firmin-Didot*". وكانت هذه الجمعيات تنظم مزادات ومعارض رائعة، كان أبرزها "*صالون اليونانيين*" الذى عقد فى الفترة من 17 مايو إلى 3 يوليو 1826. عرضت فى هذا المعرض أعمال لجيريكو (*Géricault*)، وجيران (*Guérin*)، وفيرنيه (*Vernet*)، ودولاكروا (*Delacroix*)، وهى أعمال خصصت بأسرها لقضية استقلال اليونان. أثار دولاكروا وحده، بلوحتيه *مشاهد مذابح خيوس* و*اليونان على أطلال ميسولونجى*، جل المشاعر

(*) بيريكليس، هو سياسى أثينى عاش ما بين (495–429) قبل الميلاد. (المترجمة)

(**) ليكورجوس، هو خطيب وسياسى يونانى عاش ما بين 390–324 قبل الميلاد. (المترجمة)

(1) مرجع سبق ذكره، ص 138 ,*Planat (J.)*

المناصرة للقضية اليونانية واللازمة للتفاعل مع موضوع آنى مشتعل. أما الحكومة، فقد كانت أكثر حذرا بشأن الأمر، إذ لم تعرض صالونات الرستوراسيون الرسمية إلا قليلا من الأعمال حول هذا الموضوع رغبة منها فى عدم الترويج بشكل كبير لهذه الأحداث[1]. لقد كان الأمر نوعًا من تعبئة المجتمع المدنى حول الثورة اليونانية إلى حدث جلل.

عندما وصل نستور لوت إلى الإسكندرية، وجد أن البلد وأهله على النقيض مما تشيعه الصحافة الفرنسية فى أعمدتها، ونصح أقاربه بألا يصدقوا الصحف فيما يتعلق بمحمد على وإبراهيم باشا:

كم هي خاطئة الأفكار التى نتخذها فى فرنسا
عن الأتراك ومصر[2].

قررت فرنسا، تحت ضغط حركات هؤلاء المثقفين، التدخل إلى جانب إنجلترا وروسيا. إنه انقلاب فى التحالفات. وينقل إلينا بلانا التحليل الذى وضعته مصر فيما يتعلق بموقف فرنسا:

لقد خرقت تماما نظامها السياسى عندما
قطعت العلاقات معنا علانيةً. ما الذى ستجنيه من

---

(1) بالإضافة إلى دولاكروا، يمكن ذكر فنانين آخرين: مثل أودفار: *Odevaere* "ومن أعماله *لورد بيرون فى ميسولونجى* أو "بيير- روش فينيورون *Pierre-Roch Vigneron*" ومن أعماله: الاستيلاء على مسيولونجى، باعتبارهما تناولا القضية اليونانية فى الصالونات الرسمية. انظر:
le catalogue de l'exposition de David à Delacroix, RMN, Paris, 1974, p.376.

(2) مرجع سبق ذكره، ص 46 ,*Nestor l'Hôte*

هذه الخصومات إذا كان تصرفها بحسن نية؟ لن تجد إلا متعة المجد العسكرى الغالية مقابل نفوذها التجارى، الذى تلاشى بالفعل. يبقى لنا إذن أن نخمن دوافع إبداء هذا العداء، حيث إنها أكدت لنا إخلاصها فى دواويننا من خلال المكلفين بالأعمال والقناصل والملاحين، وما زالت ورشها فى مارسيليا مفتوحة لنا، ولاتزال شركات فرنسية تشترى محاصيل النيل. لابد إذن أنها أجبرت على تدبير لا ينتمى إلى تدبيراتها[1].

وهكذا، طلبت الدول الكبرى العظمى من محمد على أن ينسحب من المورة، وفى المقابل أن يثور على سلطانه. إن الباب العالى، منذ الحملة ضد الوهابيين، وهو لا يستطيع أن يقمع أى عصيان فى الإمبراطورية دون مؤازرة تابعه القوى جدا. إن السلطان محمود الثانى تحت رحمة محمد على. وهكذا، فرض محمد على، المعضد بهذه المزية، على السلطان أن ينحى خسرو ليوكل قيادة القوات البرية والبحرية سواء التركية أو المصرية إلى ابنه إبراهيم باشا.

طلبت القوى الكبرى، عدة مرات، من الوالى أن ينسحب؛ إلا أنها حصلت من الباشا على الإجابة التالية:

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 236 *Planat (J.).*

إذن! سيقاتل ابنى حتى ولو لم يبق له إلا لوح خشب، أنا أعرفه[1].

فى رسالة بتاريخ 5 أكتوبر موجهة إلى ممثله بالقسطنطينية، حلل محمد على الموقف بجلاء. ربما يكون نشر القوات البحرية الأوربية فى البحر المتوسط مجرد خدعة، ولكن إذا ما انقلب الوضع ووقعت المواجهة، فإنه سيتحمل المسئولية[2].

كان الباشا يبحث عن باب مشرّف للخروج، إذ كان منقسماً على نفسه فيما بين إخلاصه للباب العالى ومصالح مصر. وعجزت القوى الكبرى عن منحه حلا مشرفا لكل الأطراف؛ بل سعت، عبثا، للحصول على حياديته:

استمر ريني "Rigny وكودرينجتون: Codrington وجيمو: Guillemot" في إسداء النصائح والتحريض والاستدلالات المنطقية: لم يقدموا للوالى شيئا جوهريا؛ ولم يفعلوا شيئا لوضع حاجز مادى يحول دون تنفيذ مشروعاته[3].

فى أغسطس 1827، تمركزت الأساطيل الإنجليزية والفرنسية والروسية بقيادة الأميرال كودرينجتون بين هيدرا وتيرميا، ليمنعوا إبراهيم باشا من الهجوم على هيدرا. وافق إبراهيم باشا على عقد هدنة وجمع قواته فى نوارين. استغل اليونانيون هذا الموقف واستأنفوا القتال فى إقليم البلوبونيز، خارقين بذلك كل

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 230 ,*Gouin (E.)*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 146 ,*Sabry (M.)*

(3) *مرجع سبق ذكره، الجزء السابع، ص 112 p.112 ,Hanotaux (G.)*

الاتفاقيات. اضطر إبراهيم باشا، دفاعا عن نفسه، للخروج بأسطوله للذود عن باتراس، الأمر الذى اعتبر خرقا للهدنة.

تحت ذريعة إطلاق النار على سفينة حليفة، وقعت فى 20 أكتوبر موقعة نوارين الشهيرة التى أدت إلى تدمير الأسطول المصرى[1].

كان تدمير الأسطول المصرى نعمة بالنسبة لإنجلترا التى وجدت فى الأمر فناءً لأسطول اشتهر بأنه الأقوى فى البحر المتوسط الشرقى. إن موقعة نوارين التى نشبت استغلالا لذريعةٍ، تعد تدميرا متعمَّدا لأسطول راسٍ فى مرساه. لم يفهم المصريون أن الفرنسيين شاركوا فى الاعتداء على أسطول أسهموا بقدر كبير فى بنائه؛ وفضل محرم بك أن ينسحب بسرعة حتى لا يضطر إلى إطلاق النار على الفرنسيين الذين كان يصر على اعتبارهم حلفاء.

أدركت فرنسا بسرعة أنها خسرت أكثر مما كسبت فى صراع لا ناقة لها فيه ولا جمل. لقد حققت إنجلترا مكسبا لمصالحها على حساب العلاقات الفرنسية المصرية. لابد لفرنسا من أن توثِّق علاقاتها مع الباشا من جديد وفى أسرع وقت ممكن:

بعد نوارين، صدر أمر لدروفيتى، الذى كان فى عطلة بمارسيليا، بأن يعود على وجه السرعة

---

(1) *Sabry (M.)*، مرجع سبق ذكره، ص 148.

إلى الإسكندرية ليؤكد للباشا مشاعر فرنسا الصديقة، ويقنعه باستدعاء جنوده من المورة، وليؤكد له أن الحكومة الفرنسية ستستمر فى رعاية إنشاءات الباشا البحرية، وفتح مدارسها أمام الشباب المصرى[1].

كما نرى، تحاول فرنسا اللحاق ثانية بسير الأحداث باستخدام الحجة الوحيدة التى يمكن أن يستمع الباشا إليها.

بعد أن منيت الجيوش العثمانية بالهزيمة فى البحر، ظلت فى المورة؛ فطلبت القوى الكبرى من محمد على إخلاء قواته. حينئذ بدأت مفاوضات صعبة، شاركت فرنسا فيها بفاعلية، حيث كانت ترغب فى القيام بدور الوسيط الحتمى بين مصر وحلفائها.

رأى الباشا أن أى إخلاء سريع للمورة من شأنه أن يسىء إلى مكانته وشرفه:

إن أكثر الجنرالات الأوربيين جبنا كان ليعتبر مثل هذا التصرف سبَّة لمركزه وسمعته العسكرية[2].

---

(1) رسالة بتاريخ 21 ديسمبر 1827 من البارون "دو داماس *de Damas*: (وزير الشئون الخارجية) إلى دروفيتى *(A.E., correspondance consulaire.Carton Alexandrie 1828-1830)*.

(2) رسالة من دروفيتى إلى السيد "دو لافيروناى: *de la Ferronays*" مؤرخة فى 20 مارس 1828، *(A.E., correspondance consulaire, carton Alexandrie 1828-1830)*.

بعد الإقناع، جربت الدول الكبرى التهديد؛ وأخطروه بمشروعهم الخاص بغزو مصر. فأجابهم الباشا بأنه سيدمر الدلتا قبل الانسحاب إلى الصعيد لاستعادة البلد. أمام مثل هذا الإصرار، كتب دروفيتي إلى باريس:

لن نكسب شيئا من هذا الرجل بالتهديدات[1].

من أجل بلوغ هدفها، أرسلت فرنسا فيلقا عسكريا إلى المورة تحت قيادة الجنرال "ميزون[2]: *Maison*" لإقناع إبراهيم باشا بالانسحاب. تنافس الجنرالان فى الأدب والشهامة إلا أن شيئا لم يحدث فى الميدان. فى هذه الأثناء، كان كودرينجتون يقنع محمد على بسحب قواته، ونصت معاهدة الإسكندرية الصادرة فى 9 أغسطس على:

جلاء القوات المصرية عن المورة باستثناء بعض المواقع الحصينة، وإعادة الأسرى اليونانيين الذين أسرهم إبراهيم باشا من المورة، بالإضافة إلى

(1) رسالة مؤرخة فى 6 مايو 1828 من دروفيتى إلى السيد دو لافيروناى *(A.E., correspondance consulaire, carton Alexandrie 1828-1830)*

(2) ميزون (ن.ج.) *Maison (N.J.)* (1771-1840) شارك فى كل حروب الجمهورية والإمبراطورية. انضم إلى الرستوراسيون التى أسبغت عليه بالمزايا. كان كونتا إمبراطوريا ثم صار ماركيزا ونبيلا تحت النظام الجديد، ثم مارشالا عام 1829.

إرسال سفن إلى اليونان لتأمين عودة الجيش تحت حماية سفن الحلفاء[1].

فى 10 أكتوبر نزل إبراهيم باشا مع قواته بالإسكندرية.

أما مشكلة فداء العبيد اليونانيين فلم تذكر أبدا بشكل فعلى فى الدراسات المخصصة لحملة المورة. لقد قررت فرنسا أن تجتهد فى هذا الأمر بقوة، الأمر الذى كلفها مفاجآت كثيرة.

عندما عقدت معاهدة الإسكندرية، كان عدد العبيد اليونانيين الذين سيقوا إلى مصر بعد موقعة نوارين يقدر بنحو ألفين إلى ثلاثة آلاف. وقد اضطر "جرو: *Gros*"، المفوض من قبل الحكومة الفرنسية، للموافقة على أن عدد العبيد قد تمت المبالغة فى تقديره بشكل واضح:

> **إن عدد العبيد اليونانيين، الذين يعتقد بأنهم سيقوا إلى مصر، قد تمت المبالغة فيه بلا شك؛ فثمة رأى منتشر بصفة عامة قدر هذا العدد بنحو ثلاثة آلاف. ومع ذلك تجب ملاحظة أنه بعد موقعة نوارين، وفى الوقت الذى ظن فيه جيش إبراهيم باشا أن الدول الكبرى الحليفة ستهاجمه، قام تقريبا كل الأوربيين أو المسيحيين المستخدمين فى هذا**

(1) مرجع سبق ذكره، ص 158 *Sabry (M.).*

> **الجيش بإرسال نسائهم وأطفالهم إلى مصر، وقد أحصوا ضمن اليونانيين الذين تم إرسالهم إلى أسواق مصر[1].**

لقد تم أيضا تجاهل أن العديد من اليونانيين قد أسلموا بعد عقود من الاحتلال العثمانى، واختاروا الرحيل إلى مصر عندما أدركوا أن استقلال اليونان قريب، وأنهم لن يكون لهم مكان فى دولة أرثوذكسية. وقد اتخذ اليونانيون الذين جاءوا إلى مصر عن طريق مدينة رشيد من رشيد اسما لهم.

وهكذا تمت مراجعة عدد العبيد التقديرى لينخفض ويقدر بـ1200 أو1400. فى الواقع، لم تنته بعد المفاجآت التى تعرض لها جرو: فالمسيحيون يمتلكون أيضا عبيدا يونانيين!

> **كان الباشا، وضباطه، والأتراك ذو الثروات القليلة يمتلكون عبيدا؛ بل إن اليونانيين والأرمن كانوا كذلك أيضا[2].**

---

(1) رسالة من دروفيتى إلى الكونت دو لا فيروناى مؤرخة فى 27 أغسطس 1828 *(A.E., correspondance consulaire. Carton Alexandrie 1828-1830)*

(2) رسالة من السيد جرو إلى الكونت دو لا فيروناى مؤرخة فى 13 سبتمبر 1828 *(A.E.,correspondance consulaire, Carton Alexandrie 1828-1830).*

بل إن الأمر الأكثر سوءا من وجهة نظر جرو هو؛ أن المسيحيين كانوا يحاولون تضليل أبحاثه، ولم يبدوا التضامن الدينى المأمول لتحرير العبيد اليونانيين.

> **حاول اليونانيون الأحرار، المنتمون إلى الطبقة العادية، استغلال حسن نيتنا. فكثيرون من بينهم حاولوا بالفعل بيع أنفسهم إلى أسياد مزعومين، على أن يهربوا لاحقا ويقتسموا معهم المبلغ الذى دفعناه فدية لهم[1].**
>
> **طلب اليهود والأرمن واليونانيون مبالغ باهظة مقابل عبيد ليس لهم الحق فى امتلاكهم، أو أخفوهم إذا لم يرغبوا فى تحريرهم[2].**

على النقيض من ذلك، كان الباشا يحرر أو يأمر بتحرير العبيد كلما تقدم القنصل بطلب ذلك[3]. فقد أمر بتحرير 106 من شباب العبيد الذين تمت

---

(1) رسالة من السيد جرو إلى الكونت دو لا فيروناى مؤرخة فى 16 أكتوبر 1828 *(A.E., correspondance consulaire. Carton Alexandrie 1828-1830).*

(2) المرجع السابق.

(3) نجد مذكورا أن الباشا قد خيَّر العبيد اليونانيين المبحرين على سفنه بين البقاء فى خدمته أو العودة إلى بلادهم (رسالة من ميمو إلى سباستيانى مؤرخة فى 10 ديسمبر 1830؛ *(A.E., correspondance politique. Egypte II fos 99-102)* أو أيضا قام بفداء عبيدًا أرسلهم لقنصل فرنسا (رسالة من ميمو إلى أمير بولينياك مؤرخة فى 24 يونيو 1830 *(A.E.,-correspondance consulaire. Carton Alexandrie 1828-1830)* أو حرر أمة كانت لدى ضابط تركى: بعد أن أنجبت له فضلا عن كونها مسلمة. وهذه المسألة الأخيرة فى =

تنشئتهم على نفقاته فى بيت للتعليم بالقاهرة. كتب القنصل ميمو الذى خلف دروفيتى فى هذه الأثناء:

> **لقد أبدى الوالى فى هذا الموقف، شأنه فى ذلك شأن كل المواقف الخاصة بعلاقتى معه حول موضوع اليونانيين، كثيرا من النبل والكرم. لقد احتفظ لتلاميذ بيت القاهرة من الشباب بكل أمتعتهم وملابسهم؛ وسلموا لى مزودين بما يكفى من كل شيء، كما كانوا - باستثناء بعض متاعب العيون- فى حالة صحية جيدة[1].**

عندما غادر جرو مصر لم يكن قد أفلح إلا فى شراء 120 عبدا؛ لقد باءت حملته الصليبية لاقتلاع اليونانيين من العبودية بالفشل. لقد تمت المبالغة بشكل واضح فى تقدير عدد العبيد الذين أسروا فى المورة بهدف تشويه صورة الباشا وابنه إبراهيم باشا لجعل القضية الهيلينية[*]، تبدو بطولية تماما فى عيون رأى عام أوربى مقتنع تماما ببربرية الجيوش العثمانية.

=غاية الأهمية، وكان لابد من اللجوء إلى المفتى، وتشكك الجميع فى نجاح الأمر. لقد قلت الحقيقة للوالى بكل صراحة، وأثبت له أن ضابطه كان غشاشا، لأن المسلم لا يجب عليه أن يبيع زوجته وإلا دفع حياته ثمنا لهذه الجريمة. تمكن محمد على من تفادى المفتى وأرسل لى الفرمان الذى يحرم الضابط التركى من أى حق على الأمة اليونانية وأمر بإطلاق سراحها (رسالة من ميمو: إلى الكونت موليه *(A.E.-Correspondance consulaire. Carton Alexandrie 1830- Molé .1831)*

(1) رسالة من ميمو إلى المارشال ماركيز ميزون مؤرخة فى 16 نوفمبر 1830 *(A.E.- correspondance consulaire. Carton Alexandrie 1830-1831).*

(*) اليونانية. (المترجمة)

إن الدول الكبرى التى تفاوضت مباشرة مع محمد على، ودون التواصل مع الباب العالى، بشأن إنهاء حرب المورة، اعترفت به ضمنيا باعتباره حاكمًا فعليًا. لقد خسر الباشا أثناء هذه الحملة 30.000 رجل وأسطول كامل من أجل القضاء على ثورة لم يتمكن السلطان من إخمادها. وقد أثارت هذه الواقعة:

- فكرة تعويض الخسائر الجسيمة:

> **لقد وعده (السلطان) مرتين، بعد حملتين، الحملة ضد الوهابيين وحملة المورة، بمنحه بشلقة سوريا على سبيل التعويض مقابل الخدمات التى قدمها[1].**

لم يتم الوفاء بالوعد وظلت سوريا محلا لطمع الباشا.

- الانفصال الذى بزغ بين محمد على والباب العالى، لأن الباشا لم يفهم أن الإمبراطورية العثمانية ليس فى إمكانها إعادة تنظيم صفوفها، وأنها تزج به فى مغامرات عسكرية كارثية.

- الخلاف بين الأب والابن؛ فإبراهيم باشا الذى كان على رأس جيش متميز لم يحتمل أن يكون تحت قيادة عثمانية فى الجزء الأول من حرب المورة؛ وهنا بدأ التوتر يبزغ بين الرجلين. من الصحيح أيضا أن السلطان كان يسعى

(1) مرجع سبق ذكره، ص 417. *Gouin (E.)*

لإشعال النزاعات بين الأب والابن، وذلك منذ الحملة ضد الوهابيين التى منح فيها السلطان لقب والى مكة لإبراهيم، جاعلا منه والى الإمبراطورية الأول.

> **هذا الشرف الأعلى كان الغرض منه إيقاظ طموحات آثمة بداخل حامل اللقب، ودب الفوضى فى أسرة مصر الحاكمة. إلا أن سلوك الابن الأكبر للوالى، والذى اتسم بالاحترام والحكمة والبنوة أفسد هذه الانتهازية[1].**

لقد تزايدت لدى إبراهيم باشا، منذ حرب المورة، الرغبة فى فصل مصير مصر عن مصير الباب العالى، بينما لم يتمكن محمد على، الذى كان هو الآخر منتقدا للوضع، من العزم على التقدم أبعد من ذلك فى طريق الاستقلال.

> **إن هذا الباشا الشجاع فى المواقف الصعبة، وإن كان بالطبع حذرا ومتحفظا، لم ينفصل علانية عن الباب العالى، إلا عندما جعلته المؤامرات التى يحيكها وزراء القسطنطينية يخشى على وجوده أو على استمرار نفوذه[2].**

---

(1) المرجع السابق، ص 417.

(2) رسالة من الكولونيل "جوشرو دو سانت دونيس: *Juchereau de Saint-Denys*" إلى الأمير "دو بولينياك: *de Polignac*" مؤرخة فى 4 سبتمبر 1829 *(A.E.-Correspondance consulaire.Carton Alexandrie 1828-1830).*

الفصل السادس عشر

مسألة الجزائر
(1830 - 1827)

أثيرت قضية الجزائر[1] سبب ملاحظتين تبينتهما الحكومة الفرنسية:

-أن فرنسا- بناء على ما قدره الوزير "بولينياك: ***Polignac***" بأن الإمبراطورية العثمانية فى طريقها إلى التفكك- بإمكانها أن تستعيد بشكل غير مباشر بعض أجزائها. إن الدول البربرية (الجزائر، وطرابلس، وتونس) شبه المستقلة/ يمكن أن يتم غزوها من قبل محمد على، وأن تضم إلى بشلقيته بالاتفاق مع الباب العالى:

> **إن محمد على، التابع للسلطان، سيؤسس بالجزائر سلطة مستقلة عن القاهرة، تحت السيادة الباهتة للقسطنطينية[2].**

---

(1) يظل العمل المرجعى هو عمل القائد "دوان: *Douin*: *محمد على وحملة الجزائر*.
(Mohamed Aly et l'expédition d'Alger 1829-1830, Le Caire, 1930)

(2) مرجع سبق ذكره، الجزء السادس، ص *Hanotaux (G.)*,122

- تأمل فرنسا، بالنظر إلى علاقاتها المميزة مع الباب العالى، أن تستعيد عن طريقه السيطرة على هذا الجزء من البحر المتوسط. إن الأمر بالنسبة لفرنسا يتمثل فى المساعدة على تأسيس إمبراطورية مصرية حقيقية تخدم أيضا مطامعها:

> **على حين كان نفوذ كل من روسيا وإنجلترا يسيطر بالتناوب على القسطنطينية والمورة، فإن نفوذ فرنسا ذهب بها إلى الإسكندرية، حيث ستنشأ قوة من فوائدها ألا تستبعد من مباحثات الشرق[1].**

كانت فرنسا ترغب فى تشجيع محمد على، على غزو الدول البربرية بل وأيضا سوريا على المدى الطويل:

> **من السهل تقدير الدوافع السياسية التى يمكن أن تكون وراء ضم سوريا إلى مصر بمجرد أن تكون الظروف مواتية لهذا المشروع. إن هذا الإقليم سيكون أكثر سهولة من حيث إخضاعه والحفاظ عليه من الدول البربرية؛ سيمثل اتساعا أكثر قابلية للنمو. إن المزايا التى ستضمنها لنا**

---

(1) لمحة عن الوضع السياسى فى مصر فى 1818 و1829، للسيد دو كوهون:
(A.E.- Correspondance politique.Egypte II fos 20-29 .de Cohon)

هذه المنطقة، من حيث الدخل التجارى، لا تقدر بثمن[1]

أرسل بولينياك الكابتن "هوديه: *Huder*، الذى يتكلم اللغة التركية، للتفاوض مع محمد على. إن الحكومة الفرنسية على استعداد لأن تمنح محمد على 10 ملايين فرانك، شريطة أن تتم الحملة دون أدنى تأخير. فى المقابل، اشترط محمد على أن تكون الحملة تحت قيادة إبراهيم باشا. لكن المفاوضات تباطأت لأن كلاً من فرنسا ومصر كانتا ترغبان فى إرضاء الدول الكبرى الأخرى خوفا من العواقب الدبلوماسية. ونظرا لعدم التوصل إلى اتفاق حقيقى حول كيفية الغزو، تقرب محمد على إلى إنجلترا بينما تقربت فرنسا إلى الباب العالى حتى :

لا يرى فى مشروع الجزائر أثرا لاتفاق خفى مع محمد على وحتى لا يضمر الغيرة[2].

كانت فرنسا ترغب فى أن تحتفظ بإمكانية التراجع فى حالة اعتراض إنجلترا والباب العالى على مشروعها. أما محمد على، فمن جانبه وكسبا للوقت، كان يطمئن فرنسا بتصريحات من هذا النوع:

أتمنى العمر المديد لملككم من أجل سعادة شعبه، وأصدقائه وحلفائه، وأيضا من أجل خادمه محمد على[3].

---

(1) المرجع السابق.
(2) مرجع سبق ذكره، ص 177. *Sabry (M.)*
(3) رسالة من ميمو إلى الأمر دو بولينياك مؤرخة فى 26 يونيو 1830 *(A.E.-Correspondance politique.Egypte II fos 46-51).*

أرسل بولينياك جيمو *(Guillemot)* للحصول على مساندة الباب العالى، الذى وافق فى بادئ الأمر ثم تراجع عن موافقته تحت ضغط من إنجلترا، مقترحا حلا بديلا:

> **كان واضحا أن الباب العالى لا يريد أن يتبنى المشروع الفرنسي، لأنه لا سبيل لتنفيذه إلا بمساعدة والى مصر، الأمر الذى جعل الباب العالى يلحظ أن قوة والى مصر التى يريد تحجيمها ستزداد. ومن جانب آخر، خوفا من أن تتخذ فرنسا، إذا ما بلغت مبلغ حنقها، القرار الرسمى بالهجوم على الجزائر الخاضعة تحت الوصاية، وتدميرها لتؤسس محلها نظاما جديدا، ومن أن يتحالف معها محمد على أملا فى تحقيق مكسب له، أسرع الباب العالى بقبول اقتراح طاهر باشا باعتباره حلاً وسطًا[1].**

أمام هذا الرفض، استُبعِدت تماما مسألة إرسال حملة ضد الجزائر؛ وفى المقابل، أخبرت فرنسا محمد على أن رده لم يضعف من قوة علاقاتها مع مصر.

(1) مرجع سبق ذكره، ص *Douin (Ct) XXV*

أدرك الباب العالى أكثر فأكثر تزايد قوة تابعه المزعج، وسعى منذ ذلك الحين لإثارة منافس له.

جاءت نهاية هذه القضية بعد ثورة يوليو 1830 بوقت قصير، ووصل الخبر الرسمى بتغيير حكومة فرنسا إلى مصر فى 15 سبتمبر 1830. كتب ميمو قنصل فرنسا بالإسكندرية يقول:

> **تسلمت الإخطار الرسمى الخاص بالأحداث التى وقعت فى فرنسا فى نهاية يوليو، والخاص بتغيير الحكومة واعتلاء صاحب السيادة دوق أورليان للعرش - تحت اسم لويس- فيليب الأول- وذلك بناء على رغبة الأمة ومطالب البرلمان[1].**

ولقد كان تعاطف الباشا مع الملك لويس - فيليب سريعا، كما يحلو لميمو أن يذكر.

---

(1) رسالة من ميمو إلى كونت دو موليه (*de Molé*)، مؤرخة فى 15 سبتمبر 1830 *(A.E.- Correspondance politique.Egypte II fos 75-78).*

الفصل السابع عشر

محمد علىَ ولويس - فيليب

لأول وهلة قد لا يبدو أن ثمة شيئًا من شأنه أن يقرب بين تاجر التبغ القديم بقولة، والذى أصبح والى مصر، ودوق أورليان، ابن الملك المقتول، والذى أصبح ملكا للفرنسيين(*)؛ فإنهما يلتقيان فى كثير من النقاط المشتركة. لقد تبنت فرنسا بشكل كبير مصالح مصر أثناء حكم لويس- فيليب وهو الأمر الذى يساعد كثيرا على تقريب الحاكمين اللذين- رغم ذلك- لم يلتقيا. كما كانت هناك علاقات شبه عائلية بين العائلتين، فالأمراء المصريون، أبناء أو أحفاد الباشا، الذين كانوا يذهبون للدراسة فى فرنسا، كانت لهم صلات قوية بأبناء لويس - فيليب. بالإضافة إلى أن إهداء مسلة الأقصر أو إرسال ثمانية من الخيول العربية كان من بينها الجواد الذى امتطاه إبراهيم باشا فى موقعة نزيب أسهما كثيرا فى إكساب الباشا شعبية كبيرة فى فرنسا.

إن كلاً من محمد على ولويس فيليب يدينان بعرشيهما إلى ثورة؛ فلقد انتخب الباشا فى 12 مايو 1805، بعد ثورة القاهرة، بينما اعتلى لويس فيليب

(*) ملك الفرنسيين - وفقا لمطلب البرلمان فى 7 أغسطس 1830- وليس ملك فرنسا، فهذا اللقب يشير إلى أن الملك لم يعد ملكا للدولة، وإنما ملك لشعب المملكة، فملك الفرنسيين يملك فى ظل الملكية الدستورية، وملك فرنسا يملك فى إطار الملكية المطلقة. (المترجمة)

العرش بعد *الثلاثة العظيمة*(*) (28، 29، 30 يوليو 1830) التى أطاحت بالملك شارل العاشر.

كلاهما كان عليه أن يتكبد طريقا معقدا مليئا بالمكائد للفوز بالسلطة. وقد سبق وأن ذكرنا الصعاب التى واجهها محمد على الذى عين واليا بعد العديد من المراوغات. كذلك كان لويس- فيليب الذى شق لنفسه طريقا نحو التاج عبر طريق محفوف بالمخاطر. كان لابن عمه، الملك لويس الثامن عشر، والذى كان منتبها لأفعال دوق أورليان، هذه الملاحظة التى تتسم بشدة نفاذ البصيرة

إنه لا يسرع الخطى ولكنى ألاحظ أنه يتقدم بهدوء[1].

من جهة أخرى، كان لويس- فيليب يتبنى نفس البراجماتية السياسية التى يتبناها الباشا، فقد أخذ عنه هذا التفكير:

إذا ما سقط التاج، سأرفعه[2].

كلا الحاكمين التزم البساطة المنشودة؛ فقد أثنى كل المسافرين على بساطة الباشا الأنيقة، بينما كان الملك لويس - فيليب يرتدى ملابس برجوازى باريسى. وعندما كان يتنزه على قدميه فى شوارع باريس أو نويى (*Neuilly*)،

(*) المقصود هو ثورة يوليو 1830، وهى الثورة التى أفرزت نظاما جديدا: "ملكية يوليو" ليحل محل حكومة الرستوراسيون الثانية. وقد دامت الثورة ثلاثة أيام المعروفة بالثلاثة العظيمة. (المترجمة)

(1) *Bertaut (J.), Louis Philippe intime, Paris, S.D., p.54.*

(2) المرجع السابق، ص 58.

كان يرتدى زيا خادعا أصبح فيما بعد أسطوريًا، إذ كان يضع رداء قديما وقبعة بالية، ومظلة تحت ذراعه.

كما أن الباشا وملك الفرنسيين كانا يتمتعان كلاهما بالحس التجارى. لقد قام والد الملك لويس- فيليب بالفعل بفتح متاجر بالطابق السفلى من سكنه الباريسى بالقصر الملكى، الأمر الذى أثار فضيحة كبيرة ببلاط لويس السادس عشر، وهو الأمر الذى استحق عليه فيليب إيجاليتيه *Philippe-Egalité*(*) - وهو الاسم الذى عرف به لويس- فيليب لاحقا- هذه المزحة التى أطلقها لويس السادس عشر:

إذن، فأنت تفتح متجرا يا ابن العم. ألن نراك
يوم الأحد؟

بدءا من عام 1815، انشغل لويس- فيليب، ملك المستقبل، والذى فقد كل ما يملك بسبب إفلاس أبيه، باستعادة ثروته جزءا فجزء. لقد كان مولعا بالأمور المالية، ويتحدث باعتباره صاحب متجر.

أما محمد على، فقد تصرف طوال حياته باعتباره تاجرًا ماهرًا، إذ عاش محاطا بالتجار الأوربيين والأرمن:

(*) هو الاسم الذى اشتهر به لويس فيليب، ويعنى فيليب مساواة. (المترجمة)

بعد زواجه بوقت قليل، انصرف محمد على لتجارة التبغ التى أدرت عليه أرباحا مجزية، وألهمته ذلك الشغف والعلم بالتجارة اللذين رافقاه دائما[1].

إن كلا من لويس- فيليب ومحمد على يكنان محبة كبيرة لأبنائهما. سبق أن ذكرنا الألم الشديد الذى ألم بالباشا عند وفاة ابنه طوسون باشا، والذى لا يقل شدة عن ألم لويس- فيليب عند الوفاة المباغتة لابنه دوق أورليان عام 1842. وكانا يبديان نفس الجزع أمام المخاطر التى يتعرض لها أبنائهما أثناء الحملات العسكرية.

وقد كتب محمد على إلى إبراهيم باشا قائلا:

ابنى، إنى أحبك وأحب أخاك إسماعيل مثل عينى وروحى، وإذا ما كنت أعرضكما إلى مثل المحن القاسية، وأبعدكما عن وطنكما، فذلك حتى ننال مزايا ترفع من شأن بلدكما.

إن غزو الجزائر الذى عرَّض حياة دوق دومال[*] *(d'Aumale)* للخطر جعل لويس- فيليب مهموما أيضا.

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص *Gouin (E.)*,152

(*) هو رابع أبناء لويس - فيليب وكان جنرالا ومؤرخا. (المترجمة)

لقد أسهم كلا الحاكمين فى إرساء وبقاء الأسطورة النابليونية، وكان لديهما ضمن معاونيهما مساعدون ممن خدموا نابليون. وكما سبق أن رأينا فقد كان محمد على طوال حياته يستشهد بالإمبراطور، بينما قام الملك لويس- فيليب بتنظيم جوقة مهيبة لدى عودة الرفات(*)، رغم أن سياسته لم تكن تتبنى التوفيق الوطنى.

(*) المقصود عودة رفات نابليون إلى فرنسا عام 1840 بناء على مبادرة من قبل لويس - فيليب ورئيس وزرائه أدولف تيير، ودفنه فى ليزانفاليد :*Les Invalides*". (المترجمة)

الفصل الثامن عشر

السانسيمونيون

إن ملهم مذهب السانسيمونية هو شارل-هنرى دو روفروى: "*Charles-Henri de Rouvroy* كونت "سان سيمون: *Saint-Simon*" (1760-1825) وقريب الدوق الشهير الذى يحمل نفس اللقب(*). لم يحظ شارل بالشهرة لدى الجمهور العريض أثناء حياته، ولكنه صار ذائع الصيت بعد موته، وهو يعد أول مُنظِّر للعصر الصناعى. كان يرى أن المجتمع يجب أن يُنَظَّم من أجل الإنتاج، وإن كان لا يمكن أن يعيش دون مثلٍ أعلى ودين. وقد أعلن تأسيس مجتمع جديد أطلق عليه *المسيحية الجديدة*[1]، وخلف أعمالا طور فيها مذهبه وهى: "*La Réorganisation de la Société Européene*" (إعادة تنظيم المجتمع الأوربى) 1814، *la Politique* (السياسة) 1818، "*Catéchisme des industriels*": "عقيدة رجال الصناعة" (1823-1824)، ومع يوم موته، بدأ تاريخ الحركة المنبثقة عن تفكيره. كان السانسيمونيون الأوائل مثل "أوليند

(*) الدوق "لويس دو روفروى: *Louis de Rouvroy*" دوق سان سيمون وكاتب المذكرات الشهير. (المترجمة)

(1) *Charléty (S.), Histoire du Saint-simonisme (1825-1864), Paris, 1931.*

رودريج[1]:*Olinde Rodrigues* وليون هالفى: *Léon Halvey*" مقتنعين بأنهم مصدر لثورة ثقافية وتولد لديهم إحساس بالفوقية

> **لم يساعد على انتشار المذهب خارج دائرة صغيرة من المشاركين ظلت دائما تضم عددا ضئيلا للغاية من الأعضاء، حتى بعد أن توزع هؤلاء الأعضاء على عموم أرض الوطن بل وفى بلاد أجنبية عديدة[2].**

لقد كان هؤلاء مؤمنين بالمذهب ومبشرين به فى آن واحد، لكن "بارتيليميه – بروسبير أنفنتان: *Barthélémy-Prosper Enfantin*" هو الذى أطلق الحركة فعلا رغم أنه لم يلتق بسان سيمون إلا مرة واحدة. لقد كان، جنبا إلى جنب مع رودريج وهالفى، مؤسس جريدة *المنتج*، *(Le Producteur)*، *الجريدة الفلسفية للصناعة والعلوم والفنون الجميلة* فى 1 يونيو 1825.

> **لم تكن السانسيمونية قد أصبحت بعد عبادة أو دينا، بل كانت مجرد حالة فكرية[3].**

---

(1) ولد فى بوردو (*Bordeaux*) عام 1794، ومات بباريس عام 1851، وهو الوريث الأقرب لفكر سان سيمون. بدأ معيدًا للرياضيات بمدرسة التكنولوجيا المتعددة (البوليتكنيك)؛ حيث كان له العديد من المؤيدين، ثم أصبح مديرا للصندوق العقارى.

(2) *Prochasson (C.), Saint Simon l'Anti Marx, Paris, 2005, p.130.*

(3) مرجع سبق ذكره، ص 31 *Charléty (S.)*

إن الأفكار التى نشرتها جريدة *المنتج*، أثارت جدلا شديدا فى الصحافة خلال السنوات 1825،1826، وهاجمت بشدة جريدة "*كوكب الأرض: Le Globe*"، الممثلة للتيار الليبرالى البحت، هؤلاء المؤيدين للعلم واصفة إياهم بـ:

سلطة مطلقة فى السياسة والأخلاق[1].

حاول السانسيمونيون جهد أنفسهم أن يدعوا لعلم السياسة وتبنوا مبدأ المجادلة. وقد كتب "ستندال: *Stendhal*" بشأنهم كتيبا عام 1825، بعنوان "*مؤامرة جديدة ضد أرباب الصناعة: D'un nouveau complot contre les Industriels*" أما "بنجامين كونستان: *Benjamin Constant*" الذى أطلق عليهم:

كهنة طيبة وممفيس[2].

فقد اتهمهم بأنهم يحلمون *ببابوية صناعية*[3]. توقفت جريدة *المنتج* عن الظهور فى أكتوبر 1826، لكن دعايتهم للمذهب ضمت إليهم مهندسين وبوليتكنيكيين[*] وأطباء، فى الوقت الذى بدأ المذهب فيه يرتقى ويتطور.

---

(1) المرجع السابق، ص 41.
(2) المرجع السابق، ص 42.
(3) المرجع السابق، ص 59.
(*) متخرجون فى مدرسة البوليتكنيك بفرنسا. (المترجمة)

إن الجماعة الكونية المستلهمة من سان سيمون ليست إلا ترجمة للمفاهيم الأعم إلى لغة السياسة؛ بل إنها حتى صورة للإله. إنها ترتكز، ليس على قوانين، بل على حقيقة أوسع تتمثل في: القدرة الثلاثية للإنسان على مساعدة الإله، وفهمه، وخدمته[1].

شيئا فشيئا بدأ المذهب يتطور إلى *دين*، وهو مصطلح ظهر منذ 1827. في هذا العصر، اختار السانسيمونيون تنظيما يشبه تنظيم الكنيسة المسيحية البدائية. وقد نصب "إميل بارو: *Emile Barrault*" من نفسه مدافعا عن مفهوم أرضي جدا للألوهية يمكن للبشر أن يؤسسوا عليه متعتهم في الحياة[2]. في يوم عيد الميلاد عام 1829، قام السانسيمونيون القدامى، الذين شكلوا مؤسسة علمية، بانتخاب رئيسين لهم هما أنفنتان وبازار[3]، اللذان مثلا *الآباء* وتجمعوا في شكل *عائلة*. وبدأت الحركة، التي تشكلت في الأصل من ممثلي الصفوة الفكرية، تغزو الطبقات الشعبية من خلال الترويج لها في الوسط العمالي بباريس والأقاليم؛ حيث توجد كنائس سانسيمونية شديدة التنظيم. أما في باريس،

---

(1) المرجع السابق، ص 59.

(2) *Prochasson (C.), op.cit.p.136.*

(3) سان-أرمان بازار: *Saint-Armand Bazard*، (1791-1832) وهو أحد مؤسسي الشاربونري الفرنسية، والشاربونري هي حركة سياسة سرية تأسست في فرنسا أثناء حكومة الرستوراسيون عام 1818، وكانت تهدف إلى الحرية السياسية والإطاحة بالرستوراسيون والحصول على دستور. (المترجمة)

فقد تم تأسيس شبكة فى كل حى، حيث كانت توجد منازل للجماعات؛ لقد كون النموذج العائلى حياة مشتركة قوية.

فى عام 1830، فاجأت الثورة السانسيمونيين الذين كانوا يعتقدون أن لويس-فيليب لن يأتى بشيء جديد، وابتعد السانسيمونيون عما كانوا يعتبرونه *صورة لكوميديا قديمة* أو أشكال الحياة السياسية المماثلة *للأوهام البرلمانية*[1].

لكنه العائلة السانسيمونية أثارت فى نوفمبر 1831، جدلا بشأن وضع المرأة فى المجتمع. لم يكن سان سيمون قد ذكر المرأة من قبل، إذ لم يكن منشغلا بدورها فى الحياة الاجتماعية ولا بدورها فى الحياة الأسرية. وكان تصور السانسيمونيين قريبًا من التصور المسيحى: أى أن الزواج هو القاعدة وهو أساس المجتمع. غير أن أنفنتان، الذى كان يرغب فى تحول عدد كبير من النساء إلى السانسيمونية، دعا إلى:

> **تعديل قانون الزواج، لأن الوفاء الأبدى لا يأخذ فى الاعتبار الغرائز العميقة للطبيعة البشرية ثمة غريزتان أساسيتان تنظمان العلاقة بين الجنسين: الثبات والتقلب. يجب إذن استخدامهما فى المستقبل بحيث تصبح طبيعة الأشخاص المتغيرين أو المخلصين، "الثابتين" و"المتقلبين" مصدرا للسرور وليس للألم، للاحتفال وليس للحزن[2].**

(1) *Chevalier (M.), Classes laborieuses, Classes dangereuses, Paris, 1958, p.60.*

(2) مصدر سبق ذكره، ص 127 *Charléty (S.),*

عارض بازار أنفنتان بشأن هذا الموضوع، ولكنه توفى فى 25 أغسطس 1831، وترك أنفنتان على رأس العائلة السانسيمونية.

فى عام 1823، بدأت السانسيمونية تصبح مهددة من قبل السلطة، التى أصابها القلق بسبب النجاح الذى لاقاه الترويج للمذهب؛ حيث وجدت فيه الثورات العمالية مصدرا تستمد منه حافزا لها. تمت مقاضاتهم بتهمة الفجور والاحتيال؛ إلا أنه بعد ستة أشهر من التحقيقات، تم استبعاد بواعث معاداة الملك والاحتيال ولم يبق سوى تهمة الفجور. استمرت القضية يومين هما 27 و28 أغسطس 1832، واتهم الأب أنفنتان بالإساءة إلى الأخلاق والآداب العامة، إذ كانت كتاباته تقدم السانسيمونية فى صورة سلوك جنسى مطلق العنان[1]. أما المتهمون الآخرون، فقد كانوا "شوفالييه: *Chevalier*"، لامبير:– "*Lambert*–"، "هورت: *Hoart*"، "برونو: *Bruneau*" ، "ريجو: *Rigaud*"، "ورودريج:– *Rodrigues*– إلا أن أنفنتان وشوفالييه هما اللذين أدينا فقط وسجنا بسجن سانت بيلاجى *(Sainte Pélagie)* فى 15 ديسمبر 1832.

ومن داخل محبسه فكر أنفنتان فى الشرق، ولكن كان عليه أن يبرر هذا التفكير وفقا لمذهب السانسيمونية:

> **وانت الأب فكرة؛ وتجلت هذه الفكرة فى صورة كشف؛ إن الشرق يمثل فى آن واحد واجهة أخلاقية وسياسية للعالم. لا يجب تدميره، لا! ولكن ضمه إلى الغرب[2].**

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 143 *Prochasson (C.),*
(2) المرجع السابق، ص 206.

فى 26 يناير 1833، كتب أنفنتان من سجنه إلى بارو:

> **أسمع من داخل سجنى الشرق وقد صحا ولكنه لم يعد يغنى بل يصرخ. أرى راية النبى وقد صارت ملطخة ومهشمة لقد كسر النيل سدوده وانتشر بعيدا إلى حيث لم يصل قط، حاملا البذور التى بذرها نابليون على الضفاف وخصبها محمد على. إن الاتحاد الكبير أصبح وشيكا لقد أنار الشرق الغرب قديما، فلنبعث له بالنور[1].**

فى هذه الأثناء، قام بارو[2]، بتأسيس جمعية *أنصار المرأة: Les Compagnons de la Femme* - فى 22 يناير 1833، فإذا كان الأب فى السجن، فإن الأم ستكون فى الشرق! رحل بارو إلى القسطنطينية بصحبة أشد المخلصين لأنصار المرأة، وكان من ضمنهم "كايول: *Cayol*"، و"ألريك: *Alric*"، و"إسماعيل أوربان: *Ismaïl Urbain*". إلا أن هذه الحملة باءت بفشل ذريع؛ لأن السلطان محمود الثانى طردهم. وفى مارس 1833، رحلوا يدعون لمذهبهم فى سواحل اليونان وآسيا الصغرى قبل الإبحار إلى الإسكندرية.

---

(1) *Cité par Armogathe (D.), L'appel de l''Orient, les Saint-simoniens à Marseille in Le miroir égyptien,* - مرجع سبق ذكره، ص 190.

(2) أقتبس هذه الملاحظة من كتاب آن لوفالوا *Anne Levallois*" الذى صدر فى باريس عام 2005، بعنوان *(Les écrits autobiographiques d'Ismayl Urbain)*. ولد إميل بارو عام 1802، بجزيرة بوربون، وكان أستاذا للأداب بمدرسة "سوريز *Sorrèze*" العريقة حيث علم أبناء البرجوازية العليا وأعدهم لمهن هذا القرن. بعد سجن الأب أنفنتان، اعتبر إميل بارو أن "جمعية السانسيمونية قد انفضت" وأسس "جمعية أنصار المرأة" فى 15 يناير 1833، بهدف الذهاب إلى الشرق والبحث عن الأم. فكما فعل الفرسان عندما اشتركوا فى الحرب الصليبية لتخليص قبر المسيح، سنقوم نحن، أنصار المرأة، بالذهاب إلى الشرق بحثا عن الحياة، وليس القبر. (طريقة الطباعة سانسيمونية تماما).

فى 1 أغسطس 1833، تم العفو عن الأب، الذى قرر تنظيم سفر أتباعه إلى مصر. رحبت حكومة لويس - فيليب برحيل أنفنتان وبطانته إلى مصر لأنهم مثيرون للمشاكل.

أبحر بروسبير أنفنتان فى 23 سبتمبر 1834، على متن سفينة نمساوية تدعى "لو برينسيب *أيريديتاريو: Le Principe Eréditario*"، وكان بصحبته "فورنيل: *Fournel*، و"لامبير: *Lambert*" و"أوليفييه: *Olivier*". وقد توالت رحلات المغادرة حتى 13 ديسمبر 1834، حتى بلغ عدد السانسيمونيين الذين وصلوا إلى مصر 81 شخصا[1]. قال أنفنتان لحظة الرحيل:

> **نحن لا ندعو امرأة بعينها ولكننا نعتبر كل النساء اللاتى يأتين إلينا مبعوثات من الله[2].**

وقد انضمت إليهم كل من "سوزان فوالكان: *Suzanne Voilquin*"، و"كلوريند روجيه: *Clorinde Rogé*:، وسيسيل فورنيل: *Cécile Fournel*".

عندما وصل أنفنتان إلى مصر، التقى بميمو قنصل فرنسا، وحصل على حماية أحد الوجهاء اليونانيين، كما قدم لهم سليمان باشا على الفور دعما مخلصا وفاعلا.

(1) *Régnier (Ph.). Les Saint Simoniens en Egypte (1833-1851).Le Caire, 1989.*
(2) *Ivray (J.d'), L'aventure saint-simonien et le femmes, Paris, 1930, p.118.*

الـفصل الـتـاسع عشر

ملحمة السانسيمونيين
فى مصر

لم يحدث قط أن التقى بروسبير أنفنتان بمحمد علىّ، ولكنه، وبطريقته، اعتبره واحدا من أتباعه. ففى رسالة وجهها أنفنتان إلى "هور: *Hoart*" و"برونو: *Bruneau*" بتاريخ 18 نوفمبر 1833، بدا مهتما بإجراءات تعويض الملاك القدامى الذين حرموا من التملك مدى الحياة. إن تحويل الملكية الخاصة إلى العامة الذى أخذه والى مصر على عاتقه يحقق بالفعل شرطا من الشروط التى حددها السانسيمونيون لإعادة تنظيم المجتمع الأوروبى وفقا لمبادئ الصناعة[1]. لقد كان محمد على بالنسبة له:

مركز العالم الجديد[2].

استأنف السانسيمونيون سياسة بونابرت التى تهدف إلى:

مد روافد الثقافة وفتح اتصال دائم بين البحر المتوسط والخليج العربى[3].

كان بروسبير أنفنتان يرغب فى تنفيذ ثلاثة مشاريع هى:

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 13 *Régnier (Ph.)*
(2) مرجع سبق ذكره، ص 223 *Charléty (S.).*
(3) مرجع سبق ذكره، ص 11 *Régnier (Ph.0,)*

-إنشاء خط سكك حديدية بين السويس والقاهرة. وفى هذا الصدد، قدم فورنيل مشروعا للباشا فى 15 نوفمبر 1833، مرفقا به نموذجًا مصغرًا من الجص والخشب. إلا أن محمد على أعطى الأفضلية فى تنفيذ هذا المشروع للإنجليز.

بناء سد على نهر النيل، وقد وصف أنفنتان المشروع كما يلى:

إقامة سد على النيل عند التقاء الفرعين رشيد ودمياط من أجل الحصول، فى كل الأوقات وحتى فى أوقات انخفاض المياه إلى أقل مستوياتها، على منسوب كاف لمياه الرى يكاد يعادل منسوب المياه وقت الفيضان، وذلك دون الحاجة إلى وقف الملاحة[1].

برز بروسبير أنفنتان فى رئاسة الأعمال؛ لكن محمد على حدد، منذ بداية حكمه لمصر، وضع الأوربيين الذين يعملون فى خدمته، فالقائم على شئون الأعمال لا يمكن أن يكون إلا موظفا مصريا، وخير مثال على ذلك "لينان دو بلفون: *Linant de Bellefonds*[2]" رئيس مهندسى مصر. بالإضافة إلى ما سبق، فإن الباشا لم يكن يرغب فى أن يبقى الأوربيون، الذين يعملون

(1) مرجع سبق ذكره، ص 49 *Charléty (S.)*.

(2) "لينان دو بلفوند، *Linant de Bellefonds*" (1799-1883) هو ضابط بحرية والتحق بخدمة الباشا فى 13 مايو 1831 كمهندس مائى فى صعيد مصر. حصل على لقب البكوية عام 1847، ثم عينه إسماعيل باشا وزيرا للأشغال العامة عام 1869، ومنحه لقب باشا عام 1873.

بخدمته[1]، فى مصر على الدوام. وهكذا، شارك الأب أنفنتان ولامبير فى الأعمال بصفة *مسافرين (misafir)* أى مدعوين.

وُضع أول حجر فى 15 أغسطس 1834، وتم استقبال الأب أنفنتان وبارو من قبل كل من مختار بك (رئيس لجنة السدود) وسليمان باشا. وقد نقش على الحجر:

ن – م . ع، نابليون – محمد على[*][2]

ابتداء من يوليو 1835، بدأت الخطط والتصاميم تعرض على الباشا، لكن الأعمال سرعان ما توقفت بسبب الطاعون الذى حصد العمال. وأمام انتشار الوباء، فضل أنفنتان الهروب إلى صعيد مصر. توقفت الأعمال لفترة ولكنها استؤنفت فى مارس 1837، بفضل مساندة إبراهيم باشا الذى وضع الجيش تحت تصرف المشروع. إلا أن استئناف العمل لم يدم طويلا؛ فابتداء من شهر مايو 1837، لم يعد محمد على يرغب فى تنفيذ مشروع السد بسبب علاقاته السيئة فى ذلك الحين مع فرنسا، التى رفضت الاعتراف باستقلال مصر.

فى الواقع، سيتم بناء السد لاحقا بواسطة "موجل: ***Mougel***" ولكن فى مكان آخر وبوسائل تقنية أخرى.

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 49 *Régnier (Ph.),*

(*) *N-M-A, Napoléon Méhémet Ali.*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 203 *Charléty (S.),*

– أما المشاريع السانسيمونية الخاصة بقناة السويس، فقد توقفت فجأة أيضا. ففى 10 يناير 1834، أصدر محمّد على فرمانا أذن فيه لأنفنتان وأوليفييه وبوتى بالذهاب إلى منطقة السويس؛ حيث حاول أنفنتان العثور على آثار الأعمال القديمة التى تعود إلى العصر الفرعونى، وإلى عصر الخليفة عمر، وعصر على بك. اقتصر عمل السانسيمونيين على مجرد موضعة المكان وتعيينه، لكن أنفنتان قام لدى عودته إلى فرنسا بتفصيل كل الجوانب السياسية والمالية والتقنية للمشروع، ولم ينفذ المشروع إلا بعد بضع سنوات بفضل الدراسات التى وضعها لينان دو بلفون والسانسيمونيون.

أما السانسيمونيات سوزان فوالكان وكلوريند روجيه فقد أرادتا من جانبهما أن تطورا المشاريع الخاصة بتعليم النساء.

> **تجديد هذا البلد من خلال التعليم نحن الاثنتان نقترح الهجوم بأساليب متنوعة على الجهل المطبق لنساء هذا البلد[1].**

كانت كلوريند روجيه تأمل أن تنشئ، بتأييد من سليمان باشا، مدارس للفتيات الصغيرات حيث:

> **يتعلمن فيها القراءة والكتابة والعد بالفرنسية[2]:**

(1) مرجع سبق ذكره، ص 329 *Voilquin (S.)*.
(2) المرجع السابق، ص 327.

إلا أن المشروع توقف عندما سحب سليمان باشا تأييده، بسبب قلقه إزاء تطور الأحداث الخاصة بميراث الطبيب دوساب التى تورطت فيها سوزان فوالكان.

اصطدم العمل السانسيموني بثلاث عقبات: أوبئة الطاعون، والظروف المادية، والفضائح المتعددة.

لقد حصد وباء الطاعون الذى بدأ فى 1835، صفوف السانسيمونيين، وكان أول من مات الطبيب "فوركاد: ***Fourcade***" :

> **فى 20 فبراير، تحت سماء صافية وشمس ساطعة ودافئة، بدأت العائلة السانسيمونية تدفع أول ضريبة للوباء[1].**

نعرف أن الطبيبين "دولونج: ***Delong***" وجوندريه: ***Gondret***" توفيا، أما الأطباء السانسيمونيون، فقد تجمعوا فى منزل الدكتور دوساب لمقاومة الوباء، كما احتمت سوزان فوالكان بنفس المنزل، حيث بقيت طوال فترة الوباء تعالج أصدقائها، وتساعد دوساب وتتعلم أصول الطب وخاصة من كتاب" *فن الولادة:* ***l'art de la partirution***[2]".

وكان كل من السانسيمونيين "هوارت ***Huart***، ولوفيفر ***Lefevre***، ودومولار: ***Dumolard***، وألكسندر: ***Alexandre***، ألريك: ***Alric***، ومارشال:

---

(1) المرجع السابق، ص 271.
(2) المرجع السابق، ص 274.

Maréchal، ولامى: *Lamy*، وبوسكو : *Bosco*، وجونوفوا: *Genevoix*، وروبول: *Reboul*، وأوليفيه: *Olivier*" ضحايا للطاعون.

أما فيما يتعلق بالظروف المادية، فقد كتبت روجيه فى رسالة لها:

> **هنا، وفى نوع مختلف من الحياة، نكاد نكون أكثر بؤسا مما يمكن أن تكون عليه حالنا هناك، وتتجدد جهودنا بلا توقف دون أن يكون هناك ما يملؤ أكياس نقودنا البائسة[1].**

عاش السانسيمونيون فى مصر على حافة الفقر؛ فقد تولى لامبير إعالة أنفنتان، وأصبحت سوزان فوالكان غاسلة للملابس بالأجرة لتجد ما تعيش به:

> **رغبة منى فى أن أعيش مستقلة، عملت بصفة مؤقتة غاسلة للملابس لدى كل أصدقائى، وبدأت هذا العمل فى 29 ديسمبر 1834[2].**

عمل معظمهم مقابل أجور هزيلة أو لم يعملوا أساسا؛ فقد عمل هور وبراكس (*Prax*) بمكاتب لينان دو بلفوند، وعمل "ماشرو: *Machereau*" أستاذا بمدرسة البنات بالجيزة وكان بالكاد يحصل على أجره:

---

(1) *Ivray (J.d'), op.cit.p.189.*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 258.*Voilquin (S.)*

حصل ماشرو أخيرا على أول راتب شهرى له، واستغله على الفور للتخلص من أسماله وارتداء زى البلد؛ لقد كان يبدو لصًا ويشبه فريدريك[*] فى قصة "أوبرج ديزارديه:- *l'Auberge des Ardets*. كان هناك أيضا حديث عن رهن البيانو الخاص بفيليسيان دافيد*Félicien David*. أما "لامى *Lami* و"كونيا: *Cognat* و"توشيه *Toché*، فقد كانوا يعيشون فى البؤس[1].

لقد اقتصرت الحياة اليومية للجماعة على البقاء على قيد الحياة.

وكما حدث فى أوربا، اتُهم السانسيموني ون فى مصر بالنصب والاحتيال والفجور. لقد اتهمت "السيدة برود: *Madame Brod*[2]" سوزان فوالكان بالتحايل على الميراث، ونشرت الخبر الذى يقول إن السانسيمونية استغلت ثقة الدكتور دوساب لتحرم "أريف: *Arif*"، ابن دوساب، من الميراث. إن القضية التى رفعت إلى قنصلية فرنسا أسهمت بشكل كبير فى تدمير سمعة السانسيمونيين.

كما تسببت حرية النساء السانسيمونيات فى إحداث صدمة، ومدت بالبراهين هؤلاء الذين يرغبون فى تدبير المؤامرات. لقد كانت علاقة سليمان باشا بكلوريند روجيه حدوتة الجميع. كما أثار إسماعيل أوربان البلبلة بتحوله

(*) إشارة إلى فريدريك لو ميتر (1800-1876) (*Frédérick lemaître*) الممثل الفرنسى الذى ابتكر الشخصية المستوحاة من اللص روبير ماكير فى قصة أوبرج ديزارديه. (المترجمة)

(1) مرجع سبق ذكره، ص 227 ,*Charléty (S.)*

(2) السيد والسيدة برود هما من معارف فرين بك. وقد روى الرحالة الرومى نوروف (*Noroff*) أحد ضيوف فارين بك *أن أحدهم ويدعى السيد برود كان يسرى عنهم جميعا بالعزف على المزمار* (*in Volkoff) (O.)*, مرجع سبق ذكره، ص 107.

إلى الإسلام ومغامرته مع حليمة، رفيقة الدكتور دوساب، والتى كانت أمَة من أصل حبشي. وعندما ماتت حليمة عام 1834، حول إسماعيل أوربان حبه لهانم، ابنة حليمة والدكتور دوساب، والتى ماتت عام 1835. إن تحوله إلى الإسلام ليس إلا نتيجة لهذا الحب، إذ إن كونه مسلما كان طريقته التى استطاع بها التعرف على حبيبتيه اللتين ماتتا. ومع ذلك، كان يخشى أن يكون تحوله إلى الإسلام قد أفقده صفته باعتباره مواطنًا فرنسيًا، وصرح بذلك لميمو قنصل فرنسا، الذى رد عليه ردا لطيفا[1].

تسببت الصعاب وخيبة الأمل فى رحيل غالبية السانسيمونيين؛ إذ عاد إلى فرنسا عام 1836، كل من فيليسيان دافيد، وأليكسيس بوتى، والطبيب شاربان، وسوزان فوالكان، وكلوريند روجيه. أما أنفنتان فقد غادر مصر بمرارة فى يناير 1837:

> **هذا الملك التاجر، الذى جعل من بلد كبير مستودعا للبضائع، والذى يخزن مثل بقال كل المنتجات بدءا من الفول وحتى البن، هذا الرجل، ووفقا لكل الاحتمالات، سواءً فى شيخوخته عندما يكون متعصبا ضاريا وبخيلا، أو فى خلال عام، يجب أن يصبح سلطانا وأن يموت[2].**

(1) مرجع سبق ذكره، ص 34 *Levallois (A.)*,
(2) مرجع سبق ذكره، ص 233 *Charléty (S.)*,

أدرك أنفنتان أنه من الصعب تحقيق برنامجهم، لأن أخلص مؤيديهم أصبحوا عام 1836، من المغضوب عليهم أو شبه ذلك، مثل سليمان باشا أو فارين بك أو سوريزى بك. فالباشا، الذى استاء من فرنسا بسبب مشروعه حول الاستقلال، طرد الفرنسيين فى هذه الفترة. وقد أشارت سوزان فوالكان إلى ذلك فى مذكراتها قائلة:

من الصحف التى تصلنا رأينا أن الشعور العام سرعان ما أصبح عدائيا لمصر، وفى المقابل مؤيدا جدا للباب العالى؛ بينما كان هناك فى مجالس الوالى رد فعل سياسى ودينى ضد الفرنسيين بصفة عامة والسانسيمونيين بصفة خاصة[1].

كان الوالى يتمنى فى هذه الفترة من التوتر الدولى:

أن تكفى مصر نفسها بنفسها أو على الأقل أن تبدو كذلك[2].

بقى فقط "لامبير[1]: *lambert*" وماشرو، الذى كان تلميذا قديما لدافيد، وقد اعتنق الإسلام وغيّر اسمه إلى محمد المهدى.

---

(2) مرجع سبق ذكره، ص 366 *Voilquin (S.).*
(3) مرجع سبق ذكره، ص 70 *Cité par Régnier (Ph.).*

فى الواقع، باستثناء تعدد الزوجات الذى كان يرفضه دائما، تبنى ماشرو كل عادات البلد؛ بل قام بتختين نفسه ليتزوج من امرأة عربية، ولم يغادر مصر قط[2].

قام أيضا بزخرفة النزل الخاص بسليمان باشا بالقاهرة؛ حيث رسم بصفة خاصة معركة نزيب. وقد جعل "شارل إدموند: *Charles Edmond*" منه بطلا فى روايته "*Zéphirin Cazavan en Egypte*: *"زيفيرين كازافان فى مصر"* تحت الاسم المستعار" بيير- أنطوان جندل: *Pierre-Antoine Gendel*" الذى أصبح محمد أفندى[3]. لقد سخر فى روايته من الأمر الذى أصدره الباشا للفنان بتصوير الحريم فى نزهة دون إظهار ملامح أى امرأة أو خصى، وهو ما ترجم فى صورة 126 عربة مصطفة الواحدة تلو الأخرى، وقد بدت كل المقاعد خالية والخيل دون فرسان[4].

---

(1) (1802-1864) وهو مؤسس مدرسة البوليتكنيك ببولاق، وخرج أول دفعة من 20 مهندسا عام 1837. وقد قال عنه "مكسيم دو كامب: *Maxime du Camp*: لم ألتق قط بعقل فى مثل هذه الرحابة، ولا ذكاء أكثر خصوبة، ولا بمثل هذا التفهم لمشاعر الآخرين، وهذا الوضوح المدهش فى التدريس، وهذا التطلع الدءوب نحو الخير.

(2) مرجع سبق ذكره، ص 250 ,*Voilquin (S.)*

(3) مرجع سبق ذكره، ص 115 ,*Edmond (E.)*

(4) *Ibid.p.117.*

من بين السانسيمونيين الذين انتهى بهم الأمر إلى انتقاد عمل الباشا المتهم بأنه استأثر بثروات مصر لنفسه، كان إسماعيل أوربان من القلائل الذين ظلوا يعتبرون محمد على الوريث الشرعى لنابليون ومكمل عمله:

إن نابليوننا الذى سيبدأ مجده فى مصر لم يمت؛ إنه ما زال حيا وعاد إلى مصر، وجلس فى ظل الأهرام لينجز أعمالا ستدوم شهرتها أطول من هذه الآثار القديمة! إنه هو! إنه محمد على[1].

---

(2) *Urbain (I.), Voyage en Orient, réédition, Paris, 1993, p.318.*

الفصل العشرون

حملة سوريا

إن الحملة على سوريا تبرز الطموحات التى أخفاها محمد على عن الباب العالى، وبعيدا عن لعبة القوى بين مصر والباب العالى. ومن أجل التعرف على جذور هذا الصراع، لابد من الرجوع إلى نهاية حملة المورة؛ عندما طلب محمد على من الباب العالى منحه بشلقية سوريا عوضا عن خسارة أسطوله الذى منى بها فى نوارين. إلا أن السلطان لم يف بوعده.

إن ذريعة القيام بحملة على سوريا تعود فى سببها إلى والى عكا الذى كان يشجع هجرة الفلاحين المصريين ويمنحهم اللجوء. وفى كل مرة كان محمد على يشكو فيها إلى السلطان لم يكن يحصل على رد، إلا أن الفلاحين، باعتبارهم رعايا للإمبراطورية العثمانية، أحرار فى الذهاب إلى حيث يريدون داخل حدود الإمبراطورية.

فى عام 1831، عبر الحدود ستة آلاف فلاح، وقرر الباشا استعادتهم وهو ما يعنى إعلان الحرب. إن الصراع الذى كان فى الأصل مواجهة بين السلطان ووالى مصر، سرعان ما تفاقم بسبب تدخل الدول الكبرى وتحويلها له إلى أزمة أوربية.

بدأت الحملة فى 14 أكتوبر 1831، وقاد إبراهيم باشا الحملة واستولى على يافا فى 8 نوفمبر 1831.

فى 8 ديسمبر 1831، حاصرت القوات المصرية عكا بينما كان محمد على يبحث عن حلفاء، ونجح فى أن يضم إليه مؤيدين منهم الأمير بشير أمير لبنان.

بعد فشل حصار عكا، قرر إبراهيم باشا نقل الحرب إلى السهول السورية حيث احتجز عبد الله باشا، والى عكا. أما السلطان، الذى قرر ألا يتدخل فى الصراع، فقد رد بشكل غير مباشر عندما نشر قائمة بترقيات وتعيينات الباشوات أثناء الاحتفال بالعيد أغفل فيها اسمى محمد على وابنه إبراهيم، وهو ما يعنى عزلهما. فى 23 أبريل، أعلن محمد على متمردا وخائنا لدين ملكه. بالإضافة إلى ذلك، أصدر الباب العالى إعلانا بالحرب، وعين حسين باشا حاكما لمصر، مما أثار حنق محمد على على موقف الباب العالى الذى:

يدارى خزيه بالسخط والتظاهر بالشجاعة[1].

فى ذلك الحين وفى الجانب المصرى، بدأ محمد على يعترض على ابنه إبراهيم باشا، ويخشى لأول مرة من أن يرى أوامره لا تطاع. كان محمد على يتمنى الاستيلاء على ولايات سوريا الأربع: عكا، وطرابلس، ودمشق، وحلب،

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 200 *Cité par Sabry (M.).*

بينما كان إبراهيم باشا يفكر فى دفع قواته إلى أبواب القسطنطينية معتمدا على ثورة باشوات آسيا الصغرى.

منيت الجيوش العثمانية، التى أرسلت للتصدى لإبراهيم باشا، بالهزيمة فى بيلان فى 29 يوليو 1832، تاركة ابن الباشا سيدا لسوريا ومانحة مصر مكانة لا مثيل بها. وقد قام دافيد أوكوهارت المراقب الإنجليزى بتفسير النزهة العسكرية عبر سوريا بأن المدن السورية كانت ساخطة على الضرائب المفروضة بسبب حروب الباب العالى الدائمة، وكانت مستعدة لأن تثور[1].

وأمام التقدم الصاعق للقوات المصرية، التى عرضت للخطر توازن القوى فى الشرق الأدنى، قررت الدول الكبرى التدخل دبلوماسيا فى الصراع. وتساءلت السفارات الأوربية سؤالا مزدوجا: هل يرغب محمد على بالفعل فى الاستقلال، ويود أن يتحرر من الوصاية العثمانية أم أن يذهب إلى أبعد من ذلك بالقضاء على العرش العثمانى؟

فى رسالة بتاريخ 29 مايو 1832، أوجز ميمو سفير فرنسا المعادلة، دون أن ينسى المصالح الفرنسية:

> **ليس بوسعى أن أحدد الظروف التى يمكن أن تنعقد تحتها الآن مصالحة، تكون ذات هدف مزدوج هو أن تنعزل داخل حدود سوريا مؤسسة سياسية، هى بالفعل منفصلة عن إمبراطورية القسطنطينية،**

---

(1) Uquhart (D.), Le Sultan et le Pacha d'Egypte, Paris, 1839,p.37.

ولكنها تظل تابعة لها، تقريبا مثل علاقة داى الجزائر مع السلطان. ولكن الواضح والذى سيكون من السهل إثباته هو؛ أن أى انفصال مخطط له داخل هذا النظام أو أى نظام آخر، لن يمنحنا إلا مزايا لتجارتنا[1].

فى بداية الأحداث، ساندت فرنسا السياسة المصرية؛ إلا أن اقتحام القوات المصرية المفاجئ للأناضول جعلها تتراجع وتؤثر وضعا وسطا بين الباب العالى ومصر. أما روسيا، فعلى النقيض ساندت الباب العالى ضد تابعه، وظلت إنجلترا فى انتظار يقظ.

أمام هذه اللعبة الدبلوماسية التى لم تخل من تبدل الآراء، بدا محمد على شديد الحذر، إذ أمر إبراهيم باشا بألا يتعدى قونية، على حين كان إبراهيم يريد متابعة تقدمه فى الأناضول والمطالبة بسقوط السلطان. ورغم الأوامر الرسمية لأبية، شن إبراهيم باشا حربا فى 21 ديسمبر 1832؛ حيث تابع مسيرته الكاسحة حتى بلغ كوتاهيا[*]. لقد كانت ترغب كل من فرنسا وروسيا وإنجلترا بأى ثمن فى وقف إبراهيم باشا، وحمل محمد على على التفاوض. استطاع والى مصر، بصعوبة بالغة، أن يوقف مشاريع ابنه بشأن تقدم جديد، وذلك من خلال رسالة مؤرخة فى 3 فبراير 1833.

---

(1) *Archives françaises. A.E.Correspondance politique. Egypte 2.*

(*) مدينة كوتاهيا هى عاصمة محافظة كوتاهيا وتقع فى غرب تركيا. (المترجمة)

في هذه الأثناء، استنجد الباب العالي، الذي انزعج من تقدم قوات إبراهيم باشا، بالروس لحمايته. ورغم أن وصول هذه المساعدة لم يتزامن مع وقف القوات المصرية في كوتاهيا، فإن الروس استغلوها لاقتحام آسيا الصغرى، إذ استقرت قافلة مكونة من 5000 رجل بقيادة الجنرال "مورارييف: *Mourariev*" بالقرب من أونكيار سكيليسي. أمام هذا الخطر، حثت فرنسا وإنجلترا والنمسا الطرفين على عقد معاهدة. وعندما وصل مبعوثو والي مصر إلى القسطنطينية طالبوا بيشلقية سوريا ومقاطعة "أضنة[*]: *Adana*"، إلا أن الضغط الدبلوماسي تصاعد، لأن الباب العالم لم يكن مستعدا للتنازل عن أضنة. لقد كانت الفكرة الثابتة هي إبعاد الروس عن آسيا الصغرى، وقد أوضح ذلك جيدا الملك لويس- فيليب لكلوت بك، الذي كان يدافع بحماس عن مصالح الوالي أثناء اجتماع عقد في 25 مارس 1833:

> **إنكم مخطئون؛ إن الحكومة الفرنسية لا تعادي محمد علي؛ إنها على النقيض من ذلك مستعدة تماما لتأييده! ماذا تريدون، فالروس هناك، ومن المهم إبعادهم. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه المعاهدة ليست مهينة بالصورة التي تدّعونها. سيحتفظ محمد علي بمصر، وبشلقية عكا، ولا**

(*) أضنة هي خامس أكبر مدن تركيا، وتقع في جنوب البلاد على جبال طوروس وتبعد 50 كم عن البحر المتوسط. (المترجمة)

أشك أنه مع هذا الوضع لن يحصل أيضا على استقلال[1].

إنها رؤية محذرة للويس- فيليب أنهت أيضا المحادثة بـ:

هيا، كلوت بك، إن فرنسا لن تكون آخر من يساند مصر؛ وأتمنى أن يسوى الأمر لمصلحتها. فلتقولوا هذا الأمر بأنفسكم للوالى[2].

يناقض هذا الموقف الواضح لملك الفرنسيين التحليلات المتحيزة لدافيد أوكوهارت، الذى اتهم فرنسا بالتحالف مع روسيا :

مضحية بتحالفها مع إنجلترا، ونفوذها فى إيطاليا، وكرامتها فى كل مكان، من أجل السماح لروسيا باحتلال القسطنطينية[3].

بعيدا عن هذا الصراع، ثمة مفهومان تعارضا على الساحة المصرية داخل الإمبراطورية العثمانية، ورغم كونهما خفيين منذ سنوات، فإنهما ظهرا بكل حدتهما خلال الحملة على سوريا. لقد طور كل من محمد على وابنه إبراهيم

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص *Mémoires d'A.B. Clot-bey*, 243

(2) المرجع السابق، ص 244.

(3) مرجع سبق ذكره، ص *Uquhart (D.)*, 92

باشا رؤية مختلفة حول مستقبل البلد الذى يتوليان أمره. إن هذا الخلاف، الذى كان خفيا زمنا طويلا، انفجر فى هذه اللحظة، ولم يتوقف عن الاتساع خلال السنوات التالية.

إن العلاقات بين الأب والابن كانت متوترة، لأن محاولات الباب العالى لبذر الخلاف بينهما كانت عديدة وبادية بصورة متزايدة. لقد كان إبراهيم باشا يكن لأبيه احتراما جليا يكاد يكون مقدسا، فلقد كتب لوالده أثناء الحملة ضد الوهابيين قائلا:

أنا من عبيد سموه، عبيد لا يمكن عتقهم،
وهذا معروف للجميع[1].

بعد حملة الحجاز، سعى الباب العالى لزرع الاضطراب بين الأب وابنه بتعيين إبراهيم باشا واليا على مكة؛ فأصبح بهذا اللقب أعظم باشوات الإمبراطورية، ويجب على الجميع أن يقف عند وصوله. ولعدم التقصير فى إعطاء ابنه ما يستحق من الشرف، كان محمد على باعتباره أبا لا يقف أمامه بل ينتظره دائما واقفا، ويدخل فى الوقت نفسه معه فى المناسبات العامة.

ومع ذلك، بدأ محمد على فى الارتياب بصورة متزايدة فى ابنه، لأن الباشا ما زال عثمانيا مرتبطا بشخص السلطان، بينما ابنه يبتعد عن جذوره العثمانية، وهو الأمر الذى يزعج أباه.

---

(1) *Perrier (F.0, La Syrie sous le Gouvernement de Méhémet Ali, Paris.*

إن محمد على شديد الارتباط بهيكل الإمبراطورية العثمانية، فوفقا للمؤرخ المصرى محمد صبرى(*)، كان محمد على يتمنى المشاركة فى تجديد الإمبراطورية العثمانية ليجعل منها:

سدا أمام الروس فى آسيا[1].

ومن جانبه، كان إبراهيم باشا، الذى لم يكن يعتبر نفسه عثمانيا، قد أخذ على والده التدخل فى المورة، الذى كلف مصر خسائر بشرية جسيمة، فضلا عن تدمير أسطولها الحربى. كان إبراهيم يرغب فى مصر مستقلة داخل إمبراطورية عربية، وقد هتف أمام عكا قائلا:

سأصل إلى حيث يمتد اللسان العربى[2].

لقد جعل هذا التفكير من إبراهيم باشا أبا للقومية العربية.

شعر محمد على بالقلق، ولم يفته أن يذكره فى كل مرة بواجباتهما نحو الباب العالى، ومن ذلك هذا التحذير القاسى الذى وجهه إليه فى رسالة بتاريخ 8 سبتمبر 1832:

(*) تقصد المؤرخ المصرى محمد صبرى الشهير بالسربونى. (المراجع)

(1) مرجع سبق ذكره، ص 209 ,*Sabry (M.)*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 419,*Gouin (E.)*

تقول لى إنك تريد أن تسك عمله، وتقيم الصلاة فى المساجد باسمى بصورة مهيبة. فلتعلم جيدا يا بنى أننا لم نبلغ وضعنا الحالى إلا بالتواضع وحده، فأنا أكتفى تماما بأن أحمل اسم محمد على دون أى لقب أو تنويه، إنه بالنسبة لى أعظم من كل ألقاب الإمبراطورية والملكية، لأننى أدين لاسمى وحده بكل الشرف الذى يتدفق علىّ؛ كيف لى إذن أن أتخلى عنه؟ لا، سأحتفظ أنا بهذا الاسم، ولتحتفظ أنت باسمك[1].

لم يتلق إبراهيم باشا أوامرا من والده بالتوجه إلى القسطنطينية لإسقاط السلطان. أما الدول الكبرى فقد كانت مقتنعة تماما أن هذا هو مشروع والى مصر، لدرجة أن محمد على كان عليه أن يبرهن على ولائه للسلطان لكل ممثليهم. وهكذا، قال محمد على لمبعوث مترنيخ:

أؤكد لكم وبصورة رسمية أن مشروع التعدى على عرش السلطان أو تقسيم الإمبراطورية لم ينبت أبدا فى قلبى لم أدع نفسى تنجرف، بسبب النصر والمعرفة بعدم كفاءة قوات الباب العالى،

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 205 *Cité par Sabry (M.).*

بعيدا عن الوضع الذى يلائمنى تماما، وهو أن أبقى أحد رعايا الباب العالى الأوفياء[1].

لقد كان إخلاص محمد على للباب العالى إخلاصا واضحا. وقد عبر نوبار باشا فى مذكراته بكثير من الإنصاف عن طموحات الباشا ومشاعره تجاه الباب العالى، بشأن الإطاحة بالأسرة الملكية العثمانية:

كان محمد على شديد الانتماء لأصله، وكان يعرف بلده جيدا، بحيث لا يمكن أن يخطط لمثل هذه الفكرة. إذا كان قد تطلع لأمر ما أكثر من ولاية مصر وسوريا، فلم يكن ذلك ربما أكثر من القيام فى القسطنطينية، بالدور الذى لعبته عائلة كوبرولى[*] أثناء القرن السابع عشر، أعتقد أنه قد واتته فكرة حكم الإمبراطورية، ولكن باعتباره رئيسًا للقصر أو وزير أعظم لأحد أبناء محمود الذى أعلنه سلطانا[2].

---

(1) المرجع السابق، ص242.

(*) عائلة "كوبرولى: *Kupruli*" هى عائلة تضم رؤساء وزارات وباشوات الإمبراطورية العثمانية وهى من أصل البانى. فى عام 1656، تولى محمد كوبرولى السلطة؛ حيث بدأ حقبة امتدت إلى 25 عاما من الاستقرار والإصلاح السياسى والعسكرى وخصوصا استعادة مكانة الإمبراطورية العثمانية، وهى السياسة التى تبناها كل خلفائه من نفس الأسرة. (المترجمة)

(2) مرجع سبق ذكره، ص *Nubar*,36

إن محمد على هو أول والى يُصلح بشلقيته، وبالتالى فتح طريق الإصلاحات أمام سلطانه. لقد قضى على نفوذ المماليك، القلة العسكرية الحاكمة القديمة المعارضة لكل تطور؛ كما أصلح جيشه وإدارته عن طريق البحث عن الكفاءات التى من شأنها تفعيل كل القطاعات.

لقد قام أوكوهارد، الذى كان معاصرا راجح العقل، إذ لم يتورط فى أحكام مسبقة ضد الفرنسيين، بتحليل شخصية الباشا والسلطان:

> **إن كلاً من محمد على والسلطان رجلان بارزان وهبا إمكانيات طبيعية، وهما الاثنان فوق الأحكام المسبقة لزمنهما وبلديهما؛ لقد نجح كلاهما فى استئصال الأقلية العسكرية الطاغية فى تركيا ومصر[1].**

كما شرح الاختلاف الأساسى بين الرجلين:

> **لا يتسم محمود المالك المفاجئ للصولجان العثمانى بأى من هذه المزايا، ولا يمكن أن نتوقع أن نجد فيه كل المواهب التى أوجدت لمحمد على حظه الباهر. إن أحد أكبر الصعاب التى واجهت**

(1) مرجع سبق ذكره، ص 27 *Uquhard (D.).*

> **محمود هى شخصيته نفسها باعتباره سلطانًا، لأنه كان يعتبر نفوذه مطلقا وحقوقه مسلمًا بها، وكان أى صراع بدلا من أن يستثير عزيمته لا يثير إلا سخطه[1].**

كلا الرجلين كانا مصلحين، لكن محمود الثانى لم يتمكن من قهر تحفظات بطانته بشأن الإصلاحات الواجب القيام بها. لقد كان سجينا فى قصره:

> **بينما كان محمد على، الذى نشأ وسط المحنة، يعرف كيف يحكم على الرجال والأنظمة والمواقف[2].**

وهو اختلاف جوهرى يفسر نتائج بالغة التناقض رغم وجود إصلاحات شبه متماثلة. أما من وجهة نظر الدول الكبرى، فإن السلطان يجب أن يحتفظ بعرشه، لأنه الحاكم الشرعى للإمبراطورية العثمانية. لقد كانت أوربا لا تزال تعيش فى صدمة الثورة الفرنسية.

---

(1) المرجع السابق، ص 69.
(2) مرجع سبق ذكره، ص Nubar, 36

إن الأسرة العثمانية الحاكمة مستقرة وشرعية منذ عشرة قرون. إن المبدأ المدمر الذى سيرفعه إلى العرش (محمد على) سيؤدى إلى تفكك الإمبراطورية، إذ سيتطلع إلى ذلك الأمر كل باشا باعتباره نذًا له[1].

لقد جعلت أوربا المدافعة عن شرعية السلطان، ومحمد على من تنظيم الصراع أمرا ممكنا، ولكن مشروطًا بأمرين:

-حصول محمد على على بشلقية سوريا.

-انسحاب الروس من آسيا الصغرى.

فمنذ وصول الروس إلى آسيا الصغرى، كانت كل من فرنسا وإنجلترا ترغبان فى إرغام محمد على على الاتفاق. وعندما فاض الأمر بمحمد على، بعث ببرقية إلى البارون "روسان: *Roussin*"، السفير لدى الباب العالى قائلا:

ولكن سيدى السفير، بأى حق إذن تجردنى من حقى بهذه الطريقة. إن معى أمتى كلها، ولا يحق لأحد غيرى أن ينتزع روميليا والأناضول. فبمساعدة الشعب العثمانى، أستطيع إذا أردت تجديد وضع الأمور. فرغم كونى مسيطرا على

---

(1)مرجع سبق ذكره، ص 69 *Uqahard (D.).*

العديد من الأقاليم ومنتصرا فى كل المعارك، فإننى اكتفيت بسوريا التى نصَّبتنى جيوشى والرأى العام سيدا عليها؛ لقد أخرت مسيرة قواتى فقط من أجل أن أوفر على تركيا إراقة الدماء بلا طائل، ولأمنح نفسى الوقت لمعرفة رغبات القوى الأوربية[1].

فى النهاية بدأ الباب العالى يبدو أكثر تسامحا بنشر قائمة جديدة من تعيينات باشوات الإمبراطورية، وتم تثبيت محمد على فى حكومتى مصر وكل سوريا، بما فى ذلك دمشق وحلب وجزيرة كريت، على حين تم تثبيت إبراهيم باشا فى حكومة الحبشة وجدة. أما مطلب محمد على بشأن أضنة فقد تم إغفاله، وفهم الباشا أن عليه التنازل عنه.

إن معاهدة كوتاهيا التى وقعت فى 14 مايو 1834، لم تصلح الأمور من الناحية الجوهرية بل تفتتت بسهولة عام 1839. وهكذا، صرح إبراهيم باشا لأبيه قائلا:

قد يكون بإمكاننا أن نعقد سلاما مشرفا، ولكنى لا أعتقد أنه سيكون بإمكاننا أن نصفّى نهائيا صراعنا مع الباب العالى، وأن نعقد سلاما دائما طالما كان جالسا على العرش هذا الشيطان

(1) مرجع سبق ذكره، ص 424 ,*Gouin (E.)*

محمود الثانى. كما أسمح لنفسى أن أصر على فرصة العودة إلى مشروعنا الأول؛ أى احتلال القسطنطينية وخلع محمود الثانى واستبدال ولى العهد به. إن مثل هذا التصرف سيوقظ الأمة العثمانية من سباتها الطويل وسيمنحها القوة[1].

لقد وضعت معاهدة السلام هذه؛ نهاية للتحالف الفرنسى والإنجليزى والروسى الذى بدأ منذ حرب المورة؛ أما التحالفات الجديدة التى نشأت مستغلة للأحداث فقد كانت تشبه لعبة المغفلين.

لقد كانت السياسة الإنجليزية سياسة مزدوجة منذ 1833 وحتى 1839، إذ كانت تهدف إلى الاتحاد مع فرنسا طالما أن التحالف معها يمكن أن يبعد الخطر الروسى، والاتحاد مع روسيا طالما أن التحالف معها يمكن أن يبعد الخطر الفرنسى- المصرى[2].

لقد اتهم الإنجليزى أوكوهارد فرنسا بأنها وراء غياب المراكز الواضحة بشكل قاطع، وذلك عندما كتب بحدة قائلا:

---

(1) *Enkiri (G.), Ibrahim pacha, Le Caire, 1948, p.217.*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 253 *Sabry (M.),*

إن لفرنسا سياسة بلا هدف وبلا فكرة وبلا نتيجة؛ فقد استخدمت مواردها وقواتها لعمل ما يخالف مصالحها ومقاصدها وشرفها وإعلاناتها؛ وللوصول إلى غايات مستحيلة، وللاعتقاد فى أشياء لا وجود لها. إن سياسة فرنسا لا تسير بل تهيم على وجهها، تنفعل ولا تتقدم، ولا تثق فى الوصول إلا إلى حيث لا يمكن أن تصل[1].

أما الروس، فقد وقَّعوا معاهدة أونكيار - سكيليسى(*) فى 8 يوليو 1833، وهى معاهدة دفاع طبيعية، إلا أن أحد بنودها الخفية حوَّلها إلى حماية روسية على الباب العالى.

علق "جيزو: *Guizot*" على هذه المعاهدة، التى وضعت الباب العالى فى حالة تبعية، قائلا:

لقد حولت حكومة سان بطرسبرج هيمنتها على القسطنطينية إلى حق مكتوب؛ إذ جعلت من

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص *Uquhard (D.), VII*

(*) وقعت هذه المعاهدة بين الروس والأتراك، حيث اتفق الطرفان على تبادل المساعدة العسكرية فى حالة التعرض لهجوم من قبل قوة أجنبية أخرى. إلا أن بندا خفيا فى المعاهدة أعفى الأتراك من إرسال قوات عسكرية لإغاثة الروس، مقابل التعهد بإغلاق الدردنيل أمام أى سفينة غير روسية فى حالة شن حرب ضد روسيا. أثارت هذه المعاهدة قلق كل من إنجلترا وفرنسا، اللتين خشيتا أن تكون تركيا قد منحت روسيا الحرية فى التحرك فيما وراء الدردنيل. وقعت بعد ذلك اتفاقية لندن للمضائق عام 1841 التى هدفت إلى إعادة توازن القوى بالحد من هامش مناورة روسيا. (المترجمة)

تركيا عميلها الرسمى، ومن البحر الأسود بحيرة روسية، يحرس العميل مدخلها ضد أعداء روسيا المحتملين، دون أن يكون هناك ما يعيقها هى نفسها عن الخروج إلى البحر المتوسط، وإطلاق سفنها وجنودها[1].

ولتعويض آثار هذه المعاهدة المدمرة، تحول الباب العالى نحو إنجلترا بحثا عن دعم ضد روسيا. كما أخذ السلطان محمود الثانى يفكر فى هزيمته أمام تابعه القوى، وهو الأمر الذى كتب عنه "لورد بونسونبى: *Lord Ponsonby*- ، سفير إنجلترا قائلا:

قال السلطان إنه ليفضل أن يموت أو أن يصبح تابعا لروسيا عن أن يتخلى عن تحقيق النصر على أحد رعاياه المتمردين[2].

لقد أصبحت كل العناصر متوفرة للأزمة التالية التى لن تلبث أن تنفجر.

---

(1) *Guizot (F.), Mémoires pour servir l'histoire de mon temps, Paris, 1858-1864.*

(2) *Dirault (E.), l'Egypte et l'Europe, la crise de 1839-1841, Le Caire, 1930, p.XXXI.*

الفصل الواحد والعشرون

وزير أعظم(*)

انزعجت إنجلترا من الوضع المسيطر لوالى مصر، وخشيت أن يقطع عليها طريق الهند عبر البحر الأحمر أو آسيا الصغرى. فى مايو 1839، كان محمد على قد رفض لتوه طلب إنجلترا، من ناحية، بشأن مرور 6000 جندى كان من المفروض أن يتوجهوا إلى الهند، ومن ناحية أخرى بشأن مشروع إنشاء خط سكك حديدية بين القاهرة والسويس على نفقة بريطانيا العظمى[1]. فى 16 أغسطس 1838، وقع اللورد "بونسونبى: *Ponsonby*" مع الحكومة العثمانية معاهدة تجارية تعطى التجار الإنجليز أكبر الفرص فى تركيا كلها، ولقد كانت هذه المعاهدة تعارض نظام الاحتكارات الذى كانت ترتكز عليه سياسة محمد على المالية والاقتصادية.

لقد كان من الواضح أن السلطان يسعى بكل السبل إلى القضاء على قوة تابعه، مستهينا بخطورة هذا الصراع الذى يمكن أن يؤدى إلى هلاكه وهلاك

(*) الوزير الأعظم هو رئيس وزراء الإمبراطورية العثمانية، وهو لقب مشتق من الفارسية *vizir*، ويكون مفوضا من قبل السلطان لإدارة شئون الدولة كافة بصورة مطلقة. تغير اللقب الأصلى "الوزير الأعظم" ليحل محله الصدر الأعظم، وكان الصدر الأعظم يحمل ألقابا أخرى مثل الصدر العالى، والوكيل المطلق، وصاحب الدولة. ومن أشهر العائلات التى شغلت منصب الصدر الأعظم عائلة كوبرولى التى اعتلت السلطة من 1656 إلى 1703. (المترجمة)

(1)- *Driault (E.), L'Egypte et l'Europe, La crise de 1839-1841, le Caire, 1930, p.31*

الإمبراطورية العثمانية. كان الروس يترصدون لأقل هفوة من الباب العالى ليستقروا على البسفور. أما إنجلترا وفرنسا فقد كانتا تفكران فى مستقبل مصر بعد وفاة الباشا، فقد كانت إنجلترا تريد أن تحافظ على طريقها إلى الهند، بينما كانت فرنسا ترغب فى الحفاظ على رسوخها فى مصر. فى هذا الإطار، استعد السلطان للحرب بالإكثار من الاستفزازات فى سوريا وبإشاعة أن محمد على يريد أن يضع يده على جزر البحرين:

> **فى الواقع، لقد تخطت الحرب الدائرة الآن حدود الإمبراطورية العثمانية بطريقة غير عادية، إنها تمس التوازن الأوربى. إن إنجلترا تريد اللحاق بفرنسا وراء محمد على، ولذلك فإن الأمر أكثر خطورة من عام 1833[1].**

قامت القوات العثمانية باختراق حدود الأراضى الواقعة تحت سلطة محمد على، وكان شق الوضع الراهن هو المسيطر منذ الاتفاقات التى عقدت عقب الحملة على سوريا. إلا أن باشا مصر ظل حذرا فى مواجهة هذا الاعتداء؛ إذ أمر إبراهيم باشا بمراقبة تقدم الجيش التركى ومحاربته إذا لم ينسحب.

ولما تابع حافظ باشا، قائد الجيش التركى، تقدمه فى سوريا، أصبحت المواجهة أمرا لا مفر منه. وهكذا، تقدمت القوات المصرية حتى بلغت حلب

(1) Dirault (E.), La question d'Orient, Paris, 1921, p.147.

والتقت بالجيش العثمانى فى نزيب؛ وخلال ساعتين كانت الجيوش العثمانية قد منيت بالهزيمة. وعن هذه المعركة، يقدم لنا سليمان باشا رواية يتضح منها أن:

> **الجيش التركى لم يتمكن من الصمود أمام الهجمات المتتالية والشاملة؛ إذ تراجع إلى معسكره القديم، وقمنا بملاحقتهم بمدفعية الجبهة الأمامية ومشاة الجبهة الأولى والثانية. أما الجبهة الثالثة، مشاة ومدفعية الاحتياط، فقد استقرت على المرتفعات التى تحيط بالمعسكر التركى. وعقب هذه المناورات، منى الجيش التركى بهزيمة كاملة[1].**

فى رسالة بتاريخ 25 يونيو 1835، أعلن سليمان باشا لقنصل فرنسا فى حلب، أن هناك 10000 أسير، وأنه تم الاستيلاء على 15000 بندقية وأكثر من مائة مدفع.

أما حافظ باشا والضباط البروس الذين يساندونه فقد فروا. وعن ذلك كتب إبراهيم باشا لأبيه قائلا:

> **كنت أريد اللحاق بالعدو ولكنى لم أعثر عليه[2].**

---

(1) Soliman pacha, Relation de la bataille de Nezib, Paris, 1840, p.8.

(2) Cité par Cattaui (R. et G.), op.cit. p.143.

ووفقا لبوتى، وهو ضابط فرنسى فى خدمة حافظ باشا فإن:

> **المعركة كانت شرسة، إذ إن الجيش العثمانى فقد سُبع قوامه الأصلى. إن الجيش العثمانى أصيب بذعر شديد لدرجة أن إبراهيم باشا كان بإمكانه، إذا أراد، أن يصل إلى القسطنطينية بسرعة وبلا هوادة[1].**

بعد موقعة نزيب، كان إبراهيم باشا يود مواصلة مكاسبه ومتابعة تقدمه، لكن محمد على أقنعه، وبصعوبة، بأن يكتفى باحتلال أورفة[*]. عقب هذا الانتصار الساحق ظهرت مشكلتان، وهما: مستقبل الإمبراطورية العثمانية ومطالبات محمد على.

ساءت صحة السلطان محمود الثانى ووافته المنية فى الأول من يوليو 1839، تاركا ابنه عبد المجيد الذى لم يكن قد بلغ من العمر سوى ستة عشر عاما. بالنظر إلى هذا الموقف، فكر محمد على أن الروس سيستغلونه ويحتلون القسطنطينية، وقد قال الباشا القلِق بشأن مستقبل الإمبراطورية العثمانية لقنصل فرنسا فى 5 يوليو:

---

(1) مرجع سبق ذكره، الجزء الأول، ص 86 و88. *Dirault (E.)*.

(*) هى عاصمة محافظة أورفة وتقع فى جنوب شرق تركيا، واسمها الأرامى أورهاى ومنها التسمية العربية الرها. تقع هذه المنطقة فى قلب الأقاليم السورية الشمالية، وتضم هذه الأقاليم إلى جانب أورفة، أضنة وطرسوس ومرسين وديار بكر ومرعش وعنتاب. (المترجمة)

أحب بلدى، وهذا الحب يمثل جزءا من دينى وسابرهن على هذا الحب. أكاد أجزم أنه، فى غضون بضعة أيام، سيكون الروس فى القسطنطينية؛ سأذهب إذن لنجدة أهل بلدى، وسآمر ابنى بالتقدم نحو الأناضول. إن فرنسا وإنجلترا تخشيان روسيا، أنا لا أشك فى ذلك[1].

لقد ظل محمد على، خلافا للجميع، تركيا وأحد رعايا الإمبراطورية العثمانية. إن ولاءه الشديد للإمبراطورية، واقتناعه بأنه منقذها، دفعاه لأن يعتقد بأنه الوحيد الذى يستطيع إحياءها لإنقاذها.

اتخذ السلطان الجديد عبد المجيد، الذى كان لا يزال هش الشخصية والذى ظل يحكم حتى 1861، من خسرو باشا، الغريم القديم لمحمد على، صدرا أعظم؛ حيث مارس فى الواقع وصاية حقيقية على العرش. ورغم أن خسرو باشا ذكّر الوالى بصدقاتهما منذ أربعين سنة، وهى صداقة قامت فى الواقع على الخداع والمداهنة، فإن محمد على كانت لديه كل الأسباب لكى يرتاب فى الأمر، إذ كان يعرف حدود الصدر الأعظم الجديد، ولهذا كان يتمنى التخلص منه. لقد كان الباشا يؤمن بأن مصيره هو إصلاح الإمبراطورية العثمانية، وكان على يقين، أكثر من أى شىء، أنه مكلف بهذه المهمة. لقد

---

(1) رسالة من كوشليه إلى وزير الشئون الخارجية بتاريخ 5 يوليو 1839
Correspondance politique.Egypte VIII, fo 190-194.

كان على استعداد لأن يعهد بحكومة مصر لإبراهيم باشا، وأن يتوجه إلى القسطنطينية ليمنع عودة رجال الدين الذين دائما ما عرضوا الأمل فى تحقيق الإصلاحات للخطر. لقد كان موقف الإمبراطورية واضحا:

لقد أصبحت الإمبراطورية منهكة. وعزمت الشعوب على رفض الإصلاحات التى فرضت عليها؛ ورغم أن حزب الانكشارية قد قُضى عليه للأبد، فإن علماء الدين سيقومون بثورة دينية[1].

فى هذا السياق، كان محمد على مقتنعا بأنه سيُنادى إلى القسطنطينية:

ليس باستطاعة أحد هنا أن يغير من خططه. فحتى بوغوص بك، الذى كانت خبرته الطويلة وحصافته الأرمنية تجعلان بعض نصائحه المفيدة يؤخذ بها، قد استبعد[2].

وهكذا، أطلق محمد على نداء فى 18 يونيو قبل الرسالة، إذ كتب إلى باشوات الإمبراطورية الستة عشر يطلب منهم مساندته فى طلبه لعزل خسرو، معللا ذلك بأنه ليست لديه القوة الكافية لإنقاذ الإمبراطورية العثمانية من المخاطر التى تهددها. أدرك القنصل كوشليه جيدا إرادة الباشا العنيدة والمستميتة:

---

(1) رسالة من كوشليه إلى وزير الشئون الخارجية بتاريخ 18 يوليو 1839
Correspondance politique. Egypte VIII, fo.236-240

(2) رسالة من السيد دو لوردر: *de Lurdre* إلى وزير الشئون الخارجية بتاريخ 16 يوليو 1839
Correspondance politique.Egypte VIII, fo.216-221.

> **لقد عزم محمد علىّ على دفع الأمور إلى أبعد ما يمكن، بل وعلى التضحية بنفسه وبعائلته كلها إذا لم يمنح ما يطالب به. لقد قالها وكررها لكل من يريد أن يسمع؛ أعرف أننى لا أستطيع أن أقاوم الدول الخمس الكبرى إذا ما اتفقت على قهرى؛ ولكنى سأحظى بنهاية تليق بى وبأهلى. لا أريد أن أكون تحت رحمة خسرو باشا، لا أريد أن يكون مصير الإمبراطورية العثمانية فى يد مثل هذا الرجل(1).**

لقد كان الوالى مستعدا لأن يوفر لخسرو اللجوء، وأن يمنحه قصر شبرا مقرًا لإقامته.

فى هذا الوقت تحديدا، تلقى محمد على عونا غير متوقع، إذ قام الأميرال التركى، عقب هزيمة نزيب، بقيادة الأسطول العثمانى إلى مصر وانضم إلى والى مصر للمطالبة بعزل خسرو باشا. أصر محمد على على مطالبه، بعد أن أصبح قويا بفضل هذا الدعم الذى امتد ليشمل الكوادر الدينية والإدارية التركية.

أربك محمد على بوضعه ثابت القدمين الدول الكبرى التى كانت تعتبر أن مجىء سلطان جديد قد أعلن نهاية الصراع، لكن متطلبات محمد على عقدت كل شىء. لقد بدأت فرنسا، التى كانت حتى ذلك الحين متعاطفة مع طموحات الباشا، تغضب وأخبرت بذلك ممثلها كوشليه، الذى بدا هو نفسه

---

(1) رسالة من كوشليه إلى وزير الشئون الخارجية مؤرخة فى 15 أغسطس 1839
Correspondance politique.Egypte VIII, fo.299-306

ملاما لأنه لم يتمكن من الحث كما ينبغي على ضبط النفس. فى سبتمبر 1839، كتبت باريس إلى القنصل كوشليه:

> **يبدو أنكم تعتقدون أن الولاية الوراثية لكل الأراضى التى يمتلكها الآن محمد على لم تعد محلا للنزاع، بينما لم تعترف إنجلترا حتى الآن أن هذا الإرث يجب أن يمتد لأبعد من مصر، إن الأمر سيبلغ أقصى مدى له إذا ما سمحت بقية الأحداث، للأسف، بالتفكير فى منحه مزيدا من التوسع[1].**

ويرجع هذا التصلب من قبل الحكومة الفرنسية إلى أنه أصبح هناك من يتفوق على فرنسا فى لعبتها الدبلوماسية، بينما كانت، تعتقد أنها تمسك بزمام أمور الدول الكبرى فى الأزمة، التى واجهت الباشا بالباب العالى. فى الواقع، سرعان ما أصبحت قضية وراثة الولاية فى مصر أمرا رئيسيا فى أزمة طالما أرادت الدول الكبرى التظاهر بتجاهل جذورها.

> **إن الرغبة فى الحصول يوما ما على التوريث لعائلتى موجودة دائما بداخلى. لن أتنازل عنها أبدا؛ ولابد من أن أستفيد من هجوم طائش يشنه الباب العالى ليمنحنى على إثره هذا الامتياز. كيف**

(1) رسالة من باريس إلى السيد كوشليه، قنصل فرنسا العام فى مصر مؤرخة فى 7 سبتمبر 1839 *Correspondance politique. Egypte IX. Fo.11-12*

لى أن أفوّت مثل هذه الفرصة المناسبة للحصول
عليه[1].

بعد أن غيرت فرنسا مواقفها عدة مرات، فكرت فى أن منح التوريث لبشلقية مصر هو أحد أفضل الحلول لتسوية الصراع. وبدأت التخمينات حول طريقة خلافة محمد على بعد موته، ولكن القضية الأساسية بالنسبة لفرنسا كانت أن تعرف، فى كل الأحوال، كيفية الحفاظ على مصر داخل نطاق تبعيتها. كان إبراهيم بشا يُعتبر مناسبا بالنسبة لفرنسا لكن احتمال نشوب صراع بين أبناء الباشا لم يكن مستبعدا. اقترح السيد "دو لوى: *de Louey*"، وهو مراقب عينته وزارة الشئون الخارجية، الاعتماد على سليمان باشا لتأمين موقف فرنسا فى حالة عدم الاستقرار:

> إن تأثيره اليوم قوى جدا، وسيصبح أكثر قوة إذا ما تم تكليفه من قبل السلطة العليا، ولما سيكون تحت تصرفه أسطول ضخم وجيش، قوامه مائة ألف جندى سيشعر بأن فرنسا تسانده لن يكون أسهل على سليمان باشا المحاط بتعاطف الجيش المصرى من أن يتمنى قيام ثورة عسكرية بعد موت محمد على، وهى الثورة الوحيدة الممكن

(1) مرجع سبق ذكره، الجزء الأول، ص 36 .*Driault (E.)*

> حدوثها فى بلد الأمة فيه هى الجيش، والجيش فيه عربى. إنها تبغض السلطة التى تقهرها، لأن هذه السلطة التركية لا تعتبرها إلا مجموعة من العبيد[1].

كما نرى، فإن سليمان باشا كان يعتبر "عميلا نائما"[*]. إن فرنسا، ومن خلال أحد ممثليها، لم تتنازل عن فكرة غزو مصر ثانية، وذلك من خلال صناعة منافس لبونابرت.

---

(1) رسالة السيد دو لوى إلى وزير الشئون الخارجية فى 8 يوليو 1839.

(*) فى مجال الاستخبارات، العميل النائم هو جاسوس يزرع فى بلد أو منظمة مستهدفة وليس للقيام بمهمة عاجلة، لكن للبقاء باعتباره عميلاً ساكنًا مؤقتًا، وهذا الوضع يهدف بصفة عامة إلى مواجهة إجراءات التجسس المعادية. (المترجمة)

الفصل الثانى والعشرون

من تركى إلى تركى

خلال الفترة من 1839 إلى 1840، كانت سياسة المارشال سولت *Soult* وزير الشئون الخارجية الفرنسى، تفتقد إلى الشجاعة؛ إذ كانت فرنسا تود مساندة الباشا، ولكن دون أن تجازف بشيء. وهكذا، شكا محمد على بمرارة إلى القنصل كوشليه قائلا:

> **ما أطلبه من فرنسا هو أن تبقى محايدة، أن تضع حدا لجدل الدول الكبرى التى تريد أن تنزع منى حق الإنجازات والممتلكات التى أتنازع عليها من أجل أبنائى[1].**

إن فرنسا، رغم مراعاتها للباشا، لم تكن تريد أن تعارض إنجلترا التى تمثل العائق الوحيد أمام مطلب التوريث. فبالمرستون (*Palmerston*)، الذى كان شديد العداء لمحمد على، عارض كل مطالب الباشا، لأنه كان يعتقد أن ذلك سيؤدى إلى استسلام السلطان. أما روسيا، فمن خلال وزيرها نيسلرود

(1) رسالة من كوشليه إلى وزير الشئون الخارجية بتاريخ 26 سبتمبر 1839.
Correspondance politique. Egypte VIII.1839.

(Nesselrode)، تركت الأمور تسير على أعنّتها، لأنه كان من مصلحة الروس المساعدة على إضعاف الباشا. وهكذا، وجد القنصل الفرنسى كوشليه نفسه وحيدا فى الدفاع عن ضرورة توفير مساندة أقوى لأهداف الباشا، وذلك كما توضح هذه الرسالة:

> **إنه العائق الأكبر أمام المشاريع الطموح لإنجلترا من هذه الجهة. ولذلك، تسعى هذه القوة لإضعافه؛ ولهذا السبب تجب علينا حمايته[1].**

بعد مفاوضات طويلة، وافق محمد على على الاعتدال فى مطالبه، إذ ظل يطالب بالتوريث لبشلقتى مصر وسوريا، ولكنه تنازل عنه فى أضنة، أما عن كريت، فستؤول إلى الباب العالى بعد موته. ورغم هذه التنازلات، ظلت إنجلترا تعارض أى تسوية بل وحثت الدول الكبرى الأخرى، ومن بينها فرنسا، على عدم التصديق على أى تسوية لم تكن أوربا وسيطا فيها. ونجحت إنجلترا بمنتهى المهارة والغدر فى أن تحصل على تأييد أوربا كلها لسياستها. لقد أحبطت المذكرة الصادرة فى 17 يوليو 1839، أى تسوية وعجلت بأزمة دولية. لقد سمحت فرنسا لإنجلترا بأن تخدعها.

قرر محمد على إذن بحث قضاياه مباشرة مع الباب العالى، إذ صرح فى أكتوبر 1839 لكوشليه رغبته فى التفاهم *من تركى إلى تركى*.

---

(1) رسالة من كوشليه إلى وزير الشئون الخارجية بتاريخ 16 ديسمبر.
Correspondance politique. Egypte IX, fo.164-169

كان فى خلد الباشا محوران للعمل:

-الدبلوماسية الرسمية: محاولة الاتفاق مع خسرو باشا وتحفيز انتفاضة الإمبراطورية فى مواجهة الخطر الإنجليزى- الروسى.

-الدبلوماسية شبه الرسمية: الوصول إلى اتفاق بفضل مساندة السلطانة الأم.

ويمكن إيجاز فن الباشا الدبلوماسى كله فى هذه المزحة الرائعة التى أطلقها:

أنتم أيضا فى القسطنطينية، لقد ارتديتم الزى الإفرنجى ولكنكم تتصرفون بعقول تركية؛ أما أنا فقد احتفظت بالزى التركى ولكنى أتصرف بعقل إفرنجى[1].

إلا أن الدبلوماسية الرسمية باءت فعليا بالفشل منذ البداية، لأن خسرو باشا شعر بالقوة بعد مذكرة 17 يوليو 1839؛ ولأنه يعرف أنه قوى بفضل ثقة السلطان به ومساندة الدول الكبرى له، كان من السهل عليه ألا يجيب طلب محمد على. وهكذا، لم يعد يبقى أمام محمد على إلا أن يجعل من الإمبراطورية

(1) مرجع سبق ذكره، ص 455 *Cité par Sabry (M.)*

العثمانية شاهدا على ما يحدث. لقد حرص الباشا على أن يبرهن من خلال تصريحاته على أن:

- طموحه يعد فرصة يجب اغتنامها، لأنه يربط مصيره ببقاء الإمبراطورية.
- باعتباره تركيا ومسلما، فهو لا يمكن أن يقبل أن تسقط الإمبراطورية العثمانية فى أيدى الروس.
- وكذلك مصر، لا يمكن أن تصبح إنجليزية.

وهكذا، فإن الرجل الذى كان يؤخذ عليه طموحه فى تفتيت الإمبراطورية وعزل السلطان، وجد نفسه وقد أصبح المدافع المستميت عنها. لم يخطئ إذن الكولونيل "دافيس: *Davis*"، المراقب الإنجليزى، عندما كتب قائلا:

> **بطبيعة الحال، إلى من يمكن للمراقب أن يوجه نظره عندما يزور المشرق إذا لم يكن إلى محمد على، الذى يبدو بوضعه المهيمن، أنه الوحيد الذى يقدر على حماية سلامة الإمبراطورية العثمانية[1].**

لقد كانت تصريحات محمد على ملتهبة:

(1)مرجع سبق ذكره، الجزء الثانى، ص 212 ,*Driault (E.)*

ما أراه هو أنهم يريدون أن يعطوا مصر إلى إنجلترا. لن أدعها تأخذها، سأموت ولكن بشرف. أنا تركى، وسأموت تركيًا[1]، لقد اعتقدت دائما أن أوربا تريد الخير لى. لقد أصغيت إلى تنبيهات ممثليها، ووثقت فى كلامهم. ولكنى كنت مخطئا. أما الآن فلن أصغى لأحد أبدا. سأصبح تركيا من جديد لن أحتمل أن تصبح مصر إنجليزية وتركيا روسية[2].

أما فيما يتعلق بالصدر الأعظم، فقد حثه محمد على على التحرك من أجل شرف المسلمين. لم يكن محمد على عظيما مثل ما كان فى هذه اللحظات؛ إذ رسم الطريق باعتباره فارسًا وعرافًا:

وهكذا، فأنا أفضل ألف مرة أن أموت اليوم من أجل الإسلام عن أن تكون لى بعد خمس سنوات نهاية بائسة ومخزية أتمنى، إذا أراد الله

(1) رسالة من كوشليه إلى وزير الشئون الخارجية بتاريخ 5 يناير 1840.
Correspondance politique.Egypte IX.fo 199-208.

(2) رسالة من كوشليه إلى وزير الشئون الخارجية بتاريخ 16 يناير 1840.
Correspondance politique IX fo.218-223

جل جلاله أن يستجيب لدعائى، وأن يكرمنى بالمساعدة على إحياء الأمة الإسلامية[1].

لقد كان محمد على، باعتباره تركيًا، يعرف جيدا أنه منذ قرون هناك العديد من الأمور، وهى ليست بالأمور الهينة، التى تنجز فى السرايا من خلال وساطة السلطانة الأم. ولهذا أرسل محمد على إلى القسطنطينية ابنته الجميلة، أرملة إسماعيل باشا، لتقوم رسميا بتسوية ميراث لها. وكانت هذه الابنة تنتمى لأسرة قوية النفوذ من علماء الدين، وكان من السهل عليها أن تتقرب إلى السلطانة الأم المعروفة بتأثرها بالهدايا النفيسة. أتت هذه السياسة ثمارها لأن السلطانة الأم، بمساندة العلماء، استطاعت أن تقنع السلطان بتعيين صدر أعظم جديد فى يناير 1840. إلا أن هذه المؤامرة باءت بالفشل فى اللحظة الأخيرة؛ لأن خسرو باشا أفسد المناورة وظل فى منصبه وإن صار واهنا بسبب مرض طويل.

بعد هذا الفشل، بدأ محمد على يستعد للحرب وأعلن خاطبا:

ستراق سيول من الدماء، وستصبح كل نخلة عدوًا لنا، ستعاود فرنسا مساندتى إذا ما انتصرت[2].

(1) رسالة من الوالى إلى الصدر الأعظم بتارى، بتاريخ 21 فبراير 1840 *in Driault (E.),* مرجع سبق ذكره، الجزء الثانى، ص.150.

(2) رسالة من كوشليه إلى وزير الشئون الخارجية بتاريخ 22 يناير 1840.

Correspondancepolitique, Egypte IX, fo.234-235.

الفصل الثالث والعشرون

فى أحضان فرنسا

لقد اختار محمد علىّ حليفه، لأنه يقول متحدثا عن إنجلترا:

هذه القوة تجبرنى على أن أرتمى فى أحضان فرنسا، عليها الآن أن تعتنى بى[1].

خدمت الأحداث الباشا، لأن تيير خلف سولت فى مارس 1840، وكان تيير قد ألقى خطابا مؤثرا للغاية فى يناير 1840، أوضح فيه أنه يجب على فرنسا، من أجل مصلحتها وشرفها، أن تساند قضية مصر، مع الحفاظ على تحالفها مع إنجلترا. كان تيير يرى أن الحكومة الفرنسية قد أرجأت اللحظة التى تطرح فيها الأسئلة المناسبة على إنجلترا، أى مسالة وراثة محمد على لمصر وسوريا. وأوضح فى خطابه تمييزا بين "النظام" و"التصرف"[2]؛ لابد من الحفاظ على النظام، أى العمل على إنقاذ الإمبراطورية العثمانية، ولكن يجب انتقاد

---

(1) رسالة من "والوسكى: *Walewski*" إلى تيير: *Thiers*" بتاريخ 24 أكتوبر 1840
Correspondance politique.Egypte fo.71-74 .

(2) تبقى الدراسة الأساسية هى تلك التى قام بها فرانسوا شارل رو *François Charles Roux*
Thiers et Méhémet Ali, Paris, 1951,p.32.

تصرف الدول الخمس الكبرى التى تحمل الباب العالى على عدم التعامل مباشرة مع باشا مصر. فى النهاية، كان يرى أنه:

ما من أحد يعرف ما الذى يجرؤ على فعله رجل باسل غاضب، إن بإمكانه أن يضرم النار فى قضية الشرق الأوسط[1].

كان الرأى العام فى فرنسا مستعدا لسماع هذا النوع من التصريحات لأن:

الناس فى باريس كانت تشعر بشغف شديد لمصر وبغض شديد لإنجلترا[2].

لدرجة أن الفرنسيين قد بلغ بهم الأمر تقريبا حد أن يأخذوا على تيير أنه لم يكن حاسما بما يكفى. فى الواقع:

كان الاختلاف الوحيد بينه وبين سلفه يتمثل فيما اتسم به من عزم أقوى أدى به لاحقا لأن يقبل مخاطر كانت الحكومة السابقة لتتراجع على الأرجح أمامها. ثمة توجه وطنى لدى مؤرخ الثورة[*]، سيقوده خارج حدود الحكمة الدبلوماسية[3].

(1) المرجع السابق، ص 33.
(2) مرجع سبق ذكره، الجزء السادس، ص 207 *Driault (E.),*
(*) يقصد تيير الذى كان فى الوقت نفسه مؤرخا. (المراجع)
(3) مرجع سبق ذكره، الجزء السادس، ص 207 *Hanotaux (G.),*

كان تيير، كما سبق وذكرنا، يستند على رأى عام مؤيد إلى حد كبير لقضية مصر. لقد كان لويس – فيليب ووزيره:

يحبان تمويه الحقيقة المصرية، حرصا منهما على أن يتمتعا بالجماهيرية فى فرنسا، حيث كانت قضية محمد على تبدو وكأنها قضية وطنية. لم يجرؤا على القيام بأقل تنازل بشأن قضية سوريا، خوفا من التعرض لاتهام الرأى العام لهما بالجبن. لقد اتفق الملك والسيد تيير فى تبنيهما موقفًا متوعدًا وعدوانيًا، مع الاختلاف أن السيد تيير، نظرا لسعيه لتحقيق الشعبية، كان مستعدا لدفع بلده نحو الحرب، على حين أن لويس – فيليب لم يكن ليجازف بها بأى ثمن(1).

وأمام صحافة فرنسية فى أوج احتدادها، عرضت الحكومة التركية مالا على "سيمافور : *Sémaphore*"، جريدة مارسيليا، لتوقف نشر مقالات ضد خسرو باشا.

إن الخبر الخاص بعزل الصدر الأعظم فى 7 يونيو 1840، وتعيين أحمد فتحى باشا بدلا منه، دفع محمد على إلى محاولة التفاوض من جديد مع

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص *Sabry (M.)*,493

الباب العالى مباشرة. فأرسل سكرتيره الخاص، سامى بك، الذى أحسن استقباله كل من السلطان والصدر الأعظم، غير أنه لم يحصل على شيء لأن هذه المناورة اعتبرت دليلا على الضعف. لم يُثَر أى موضوع بصراحة؛ غير أن رشيد باشا، وزير الشئون الخارجية، طلب من سامى بك بطريقة غير مباشرة سرعة عودة الأسطول العثمانى من المرسى بالإسكندرية:

> **قبل أن يودعه، قال له إنه يأمل رؤيته مرة أخرى مع سعيد بك[1]. إلا أن سامى بك رد قائلا إنه يعتبر أن مهمته قد انتهت[2].**

كان هذا الفشل الدبلوماسى من نصيب تيير أيضا؛ وتهمشت فرنسا وبدا تيير أكثر تعنتا فى مساندة مطالب باشا مصر، إذ كان يريد لمحمد على بشلقية سوريا بصفة وراثية أو لا شيء. استغلت إنجلترا هذه الفرصة لعزل فرنسا أكثر، مع جذب روسيا فى نفس الوقت. أما النمسا وبروسيا فقد وقَّعتا وثيقة بتاريخ 15 يوليو 1840، بمقتضاها تم إقصاء فرنسا وأُبلغت بالأمر الواقع عبر الطريق الرسمى فى 17 يوليو 1840. وقد وصف "لامارتين[*]: *Lamartine*" هذه المعاهدة *بواترلو الدبلوماسية* منتقدا إياها بشدة. وهكذا ينتصر بالمرستون، فى ظل سخط تيير، واستعداد محمد على للحرب.

---

(1) ابن محمد على وأميرال الأسطول المصرى.

(2) مرجع سبق ذكره، الجزء الثانى، ص 257 ,*Driault (E.)*

(*) هو "ألفونس لامارتين: *Alphonse Lamartine*" (1790-1869) وهو شاعر وكاتب ومؤرخ ورجل سياسة فرنسى. من أشهر أعماله: تاريخ روسيا، تاريخ تركيا، تأملات شعرية، رحلة إلى الشرق، وجوسلين.(المترجمة)

بناء على هذه الوثيقة فإن العرض المقدم لمحمد على هو أن يكون حكم مصر وراثيا، وبشلقية عكا حتى وفاته، مع مهلة لمدة عشرة أيام للقبول أو الرفض؛ إذا ما انقضت المهلة، سيقتصر العرض على مصر فقط دون عكا؛ ويعد مهلة جديدة لمدة عشرة أيام، سيتم سحب العرض، وستتابع الإجراءات الإلزامية مسارها لتجريد الوالى من ممتلكاته كلها، بما فيها مصر[1].

يا له من ابتزاز كريه. غير أن تيير نصح محمد على بالتزام السكون مع الاستعداد لما هو أسوأ:

يجب عليه الاكتفاء بأن يصبح منيعا، وألا يتنازل، وأن يهدد الإمبراطورية التركية دون تجاوز الحدود التى تفصله عنها، أو أن يتحرك على أقصى تقدير إلى ديار بكر(*) للذود عن نفسه من هذه الجهة إذا ما تعرض للهجوم[2].

---

(1) مرجع سبق ذكره، الجزء السادس، ص 211 *Hanotaux (G.),*

(*) ديار بكر هى أكبر مدينة فى جنوب شرق تركيا، واكتسبت اسمها من العرب من بنى بكر الذين استوطنوها بعد الفتح الإسلامى فى عهد معاوية. وهى تعد الحد الشمالى للأقاليم السورية التى أخضعت لتركيا بموجب معاهدة سيفر. (المترجمة)

(2) رسالة من كوشليه بتاريخ 29 يوليو 1840 *Correspondance politique.Egypte IX fo.210-212*

اتخذ الباشا الإجراءات اللازمة؛ حيث قام "موجل: *Mougel*" بتعزيز الهياكل الدفاعية بالإسكندرية، وأعلن الباشا أنه يستطيع المقاومة لمدة ثلاث سنوات بفضل دعم فرنسا.

فى فرنسا، تم استدعاء الجنود الاحتياطيين للخدمة العسكرية، كما تم – بناء على أوامر ملكية – إنشاء فرق مشاه وخيالة جديدة. وعلى جانبى البحر المتوسط، تم الاستعداد للمواجهة مع محاولة إرجاء الحرب إلى أبعد ما يمكن. نصح الجميع تيير بالهجوم، وكانت كل مراسلات القنصل كوشليه خلال شهر يوليو 1840، تدور حول هذا المعنى من أجل حل الأزمة. ورغم ذلك، التزم تيير بسكون يقظ، ومنع الباشا من الهجوم مع توصيته بالدفاع عن نفسه وأرسل إلى مصر الكونت "ألكسندر والوسكى:[1] *Alexandre Walewski*" ليدعم إستراتيجيته لدى الباشا. فى 30 أغسطس، أقنع والوسكى محمد على بألا يطلب سوى وراثة ولاية مصر، والإدارة مدى الحياة لكريت وسوريا وأضنة[2].

إلا أن تطورا مشئوما فى الأحداث أدى إلى فشل هذا التقدم؛ فبينما رحل والوسكى إلى القسطنطينية من أجل التفاوض، توجهت القناصل العامة للدول الكبرى إلى الباشا للحصول على رد منه. أجاب محمد على بأنه يقبل الشروط معتمدا على كرم السلطان. إلا أن غموض الإجابة التى رد بها الباشا فطنة منه

(1) الابن الشرعى لنابليون الأول، وولد فى 4 مايو 1810. عين وزيرًا مفوضًا بفلورنسا عام 1849، ثم وزيرا للشئون الخارجية عام 1855، ثم رئيسا للمجلس عام 1856، وتوفى عام 1868.

(2) رسالة من كوشليه إلى تيير بتاريخ 30 أغسطس 1840.

Correspondance politique. Egypte X, fo 297-302

أو تأدبا أدى إلى تفسير الأمر على أنه رفض. فنشرت إنجلترا أسطولها بطول الشواطئ المصرية، أما تيير فقد ظل متمسكا بسياسة الانعزال.

كيف يمكن تفسير إصرار تيير؟ يتعجب مترنيخ قائلا:

إن السيد تيير يحب أن نقارنه بنابليون[1].

يبدو واضحا أن مؤرخ نابليون قد اعتنق أفكار بطله وتبنى أسلوبا نابليونيا أفزع أوربا كلها.

إن توصيات تيير التي جعلت الباشا يتراجع منكفئا على نفسه مثل قنفذ[2]. قد بدأت يساء فهمها في مصر، ومرة أخرى حذر القنصل كوشليه تيير:

ما زال الرأى العام فى البلد قاسيا بشأن سياستنا تجاه محمد على. يدرك الناس جيدا أننا بقينا محايدين أثناء معركته مع الباب العالى؛ ويتساءلون دائما: لماذا لم نمنعه من التحرك برا وبحرا طالما لم تكن لدينا النية لنجدته[3].

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 188 *Cité par Cattui (R. et G.),*

(2) مرجع سبق ذكره، الجزء السادس، ص 218 *Hanotaux (G.),*

(3) رسالة من كوشليه إلى تيير فى 15 سبتمبر 1840. *Correspondance politique. Egypte XI fo.43-49*

فى تركيا، كانت أيضا السياسة التركية الخاضعة تماما للسياسة الأوربية ردود أفعال؛ إذ نُسب إلى رشيد باشا الصدر الأعظم الفكرة التى أوحت له بها الدول الكبرى بشأن إصدار فتوى ضد باشا مصر:

> **إن الأمة تعلم جيدا أن الفتاوى لا تصدر من الإرادة السلطانية، وإنما من الفم القذر لوزير أوربى يلعب بالإمبراطورية، كما فى لعبة الورق، لا ليجنى فائدة لصالح الإمبراطورية العثمانية ولكن ليرضى غروره[1].**

لعب الرأى العام دوره حتى وإن ظل تأثيره شديد المحدودية. وهكذا، عندما طلب اللورد بونسونبى، بمساندة كل من النمسا وبروسيا وروسيا، من رشيد باشا عزل محمد على، وهو ما تم رسميا فى 13 سبتمبر 1840، قامت مظاهرة فى القسطنطينية، يدعمها سرا شيخ الإسلام(*) وكبار العلماء:

> **تم اعتقال واحتجاز أكثر من 500 شخص لقيامهم بالتكلم فى صالحه بعد عزله، وشعر العديد**

---

(1) رسالة (ظل كاتبها مجهول) إلى والوسكى بتاريخ 16 سبتمبر 1840 *Correspondance politique. Egypte XII, fo.47-49*

(*) هو لقب يطلق على كل علاّمة متبحر فى العلوم الشرعية الإسلامية، وله دراية وريادة بين علماء الإسلام، وأول ما ظهر مركز شيخ الإسلام وأخذ شكل مؤسسة لها كيانها وأهميتها كان فى الدول العثمانية فى عهد الفاتح.(المترجمة) – المعنى هنا يتحدث عن صاحب المنصب الرسمى للفتاوى الدينية فى الإمبراطورية العثمانية.(المراجع)

من الأسر بالبؤس لأن آباءهم وإخوانهم قد تم
القبض عليهم والقضاء عليهم نهائيا[1].

عند إعلان عزله وتعيين عزت باشا بدلا منه، تعجب محمد على قائلا:

هذه هى المرة الرابعة التى يعزلوننى فيها،
ولم يزدنى الأمر إلا عظمة[2].

تمثل الهجوم المضاد لتيير ابتداءً من أكتوبر 1840، فى مذكرتين بتاريخ 3 و8 أكتوبر موجهتين إلى اللورد بالمرستون. فى مذكرة 3 أكتوبر، ذكّر تيير بأنه بعد موقعة نزيب، تم احتواء الباشا حتى لا يعطى لروسيا الذريعة لاحتلال القسطنطينية ويعرِّض سلامة الإمبراطورية العثمانية للخطر، وأن الجهود التى بذلتها فرنسا لعقد اتفاق مباشر بين السلطان والوالى كانت تهدف إلى تيسير مهمة أوربا، كما أشار مؤكدا على الهجوم الذى تعرضت له فرنسا فى 15 يوليو 1840، وعلى صعوبة عقد تحالف من جديد.

هذا من شأنه أن يعطى عن كبريائها الوطنى
(فرنسا) فكرة لم تعطها للعالم من قبل، لقد أخطروها

---

(1) مراسلة إلى القسطنطينية بتاريخ 18 سبتمبر 1840. *Coreespondance politique.Egypte XI. fo.72-74.*
(2) رسالة من كوشليه إلى تيير بتاريخ 26 ديسمبر 1840. *Correspondance politique. Egypte X fo.90-94.*

بتحالف جديد بعد أن تم بالفعل. ومنذ ذلك الحين كان عليها أن تبتعد[1].

ومن أجل جعل استقلال مصر شرعيا، ردد برهانا قديما:

هل حدث أبدا أن كانت مصر فعليا تخضع لإمبراطورية السلاطين؟ ما من أحد يعتقد هذا، وما من أحد يظن اليوم أن يجعلها تُحكم مباشرة من القسطنطينية[2]

بل وبمزيد من البراعة، أثنى على تصرف الباشا وحذر اللورد بالمرستون من مخاطر حرب مقدسة، آخذا فى الاعتبار أن محمد على حصل على تأييد كل من علماء إسطنبول وعلماء القاهرة:

أسس والى مصر- بفطنة ونظام- ولاية تابعة؛ لقد استطاع أن يحكم مصر وسوريا اللتين لم يتمكن السلطان من حكمهما أبدا. إن المسلمين، وقد أهينوا منذ زمن طويل فى كبريائهم، يرون فيه أميرا عظيما يعيد إليهم الشعور بقوتهم: لماذا

---

(1) مذكرة موجهة بتاريخ 3 و8 أكتوبر من سعادة السيد وزير الشئون الخارجية، رئيس المجلس، إلى السيد سفير الملك بلندن. (*Correspondance politique. Egypte XI, fo.109-117*).

(2) المرجع السابق.

نضعف هذا التابع المفيد، الذى بفصله عن ولايات سيده من خلال حدود واضحة، سيصبح بالنسبة له أهم مساعديه؟ لقد ساعد السلطان فى صراعه ضد اليونان، لماذا لا يساعده السلطان فى صراعه ضد جيرانه المعادين لممتلكاته؟[1].

تم طرح جزء كبير من هذا التدليل مرة ثانية فى مذكرة 8 أكتوبر 1840 مع الإسهاب فيه:

هذا الأمير التابع، وإن يكن قد جعل إنسانية الحضارة الأوربية تسود فى الولايات التى يحكمها فإنه أرسى فيها مزيدا من النظام والانضباط أكثر من أى جزء فى الإمبراطورية التركية: لقد استطاع أن يؤسس فيها قوة شعبية، وجيشا وأسطولا؛ لقد رفع من كبرياء الشعب العثمانى، لقد أصبح هذا الأمير التابع، من وجهة نظرنا، جزءا جوهريا وضروريا من الإمبراطورية العثمانية؛ وإذا ما تم تدميره فإن الإمبراطورية ستفقد تابعا يمثل الآن إحدى قواها الأساسية[2].

---

(1) المرجع السابق.
(2) المرجع السابق.

إن تيير بإعلانه هذا التدليل يحمى مصر، لأنها لا تزال تحت تهديد تنفيذ معاهدة 15 يوليو. إن التعدى على الوجود السياسى لمحمد على يعد ذريعة للحرب بالنسبة لفرنسا. لكن لهجة تيير الحماسية لم تكن كافية، فقد عزم بالمرستون على تنفيذ خطته وقال:

لقد بدأ تيير على الأرجح يدعى الشجاعة،
ولكننا لسنا أناساً تخشى التهديدات[1].

فى 20 أكتوبر، اقترح تيير على الملك لويس- فيليب نصا لخطبة العرش، بدت بعض فقراتها متهورة للملك، إذ قال فيها إن الموقف الدولى شديد الخطورة قد يؤدى إلى حرب أوروبية. إلا أن الملك رفض إلقاء خطبة وزيره، الذى استقال بعد أن أصبح منتقدا، وحل محله "جيزو: *Guizot*". لقد مثلت مساندة تيير لمحمد على نقطة فاصلة، فوفقا لتحليل فرانسوا شارل- رو(*François Charles-Roux*):

رغم أن الوقت الذى التقت فيه مصائر تيير ومحمد على كان وقتا قصيرا، فإن التقاءهما كان ذا أهمية كبيرة لكليهما. إذ كانت فترة الوزارة القصيرة لتيير هى الفترة التى تلقى فيها محمد على الدعم الأكبر، والشهور التى تعرض فيها مصير محمد

(1) مرجع سبق ذكره، ص 187 *Cité par Cattaui (R. et G.),*

على للخطر، هى نفسها التى عرض فيها تيير فرنسا لأقصى المخاطر[1].

كانت إنجلترا تسعى لقلقلة الباشا بإثارة ثورة فى لبنان، إذ وعدت الدروز والمارونيين بالاستقلال. وابتداء من شهر أكتوبر، قام الأسطول الإنجليزى بالإبحار بعرض الشواطئ اللبنانية. فى 2 نوفمبر، قام أسطول إنجليزى ونمساوى وتركى بقصف عكا، وقد أصاب القصف مخزنا للبارود فانفجر وأدى إلى مقتل 1600 شخص[2]. فى 4 نوفمبر، تم الاستيلاء على المدينة، وإطلاق نداء للمصريين بالمغادرة وللسوريين بالثورة. منحت الدول الكبرى – سرا – لسليمان باشا حاكم بيروت بشلقية وراثية، اعتقادا منهم أن خيانته ستعجل بانفجار الأزمة، لكن سليمان باشا رفض العرض الذى قدمه قنصل إنجلترا باسم السلطان وبموافقة الدول الكبرى.

فى نوفمبر 1840، اعتبر محمد على أن سوريا قد فُقِدت، ووجه خطابا للملك لويس– فيليب طالبا منه أن تتدخل فرنسا فى المعاهدة التى ستنظم علاقاته مع السلطان بشكل نهائى.

أما جيزو، فقد استخدم فى مفاوضاته الألفاظ التى استخدمها تيير فى مذكراته؛ وفى 27 نوفمبر، أخطر كوشليه جيزو بأن الباشا قبل وراثة مصر وحدها، وأنه أعاد الأسطول العثمانى الذى كان راسيا فى الإسكندرية منذ بداية الأزمة، وأنه قام بالجلاء عن سوريا.

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 319 *Charles-Roux (F.),*

(2) تقرير السيد دو فالمونت *de Valmont* قائد الزورق البخارى "الفرات" *"l'Euphrate"* إلى السيد كوشليه بتاريخ 9 نوفمبر 1840. (*Correspondance politique.Egypte XII fo.119-120*)

في هذه الأثناء، قام الكومودور (الإنجليزى)[*] "نابييه: *Napier*" بإرساء سفينتين حربيتين فى ميناء الإسكندرية وصُوبت مدافعهما نحو المدينة.

اعتقد محمد على أن بإمكانه المقاومة:

لقد أخضعت مصر بالسيف، ولن يتمكنوا من انتزاعها منى إلا بالسيف[1].

رد "أرتين بك: *Artin* " على الباشا فى هذا الشأن قائلا:

صاحب السمو، إن الأمر لا يتعلق فقط بسيفكم، كما أنكم لن تجدوا أحدا يرغب فى المقاومة معكم. فلتعلموا أن الشعب ثائر، وأنكم لن تتمكنوا بعد ذلك من الاعتماد على جنودكم[2].

تم عقد اتفاق بين الباشا والكومودور نابييه[3] بمقتضاه يُمنح الباشا وراثة مصر بمجرد تسليم الأسطول التركى. قرر محمد على التفاوض دون مساندة فرنسا خوفا من قصف الإسكندرية ومن ثورة الشعب. فى الواقع، كانت

(*) القائد البحرى. (المترجمة)

(1) مرجع سبق ذكره، ص.336 *Mémoires d'A.B. Clot bey,*

(2) المرجع السابق.

(3) حقق السير شارل نابييه (1789-1873) عام 1833 نصرا على أسطول "دون ميجل: *Don Miguel*" دون البرتغال (فى كاب فانسان)، وهو قائد الأسطول البلطيقى عام 1854.

الضرائب قد زادت لدرجة كبيرة لمواجهة النفقات اللازمة للموقف، وبدأ زئير الثورة يعلو.

طلب كوشليه، الذى شعر بخيبة الأمل تجاه ما اعتبره خيانة، بالرحيل فى إجازة. وقد عبر فى سخرية عن خيبة أمله قائلا:

لقد استقبلت كل الجماعة الأوروبية بالإسكندرية فى سرور الصفقة التى تمت بين الكومودور نابييه ومحمد على. إن الكبرياء الفرنسى أهين فقط من جراء التهديدات التى تعرض لها من إنجلترا. ومع ذلك، فلن ينزع عن فرنسا فضلها فى حماية الوجود السياسى لمحمد على، ربما يجب علينا أن نأسف لكوننا قد رفعنا عاليا رجلا أعطى دائما صورة خادعة عن قوته، ولم يبد الصراحة التى كنا ننتظرها من شخصية نبيلة[1].

رد كوشليه فى غضب، ولكن لم تكن أى من القوى ترغب فعليا فى الحرب.

(1) رسالة من كوشليه إلى جيزو بتاريخ 27 نوفمبر 1840

Correspondance politique.Egypte XI, fo.243-248.

خفف "أوديلون باروت[1]: *Odilon Barrot*" فى مجلس النواب من حدة خيبة الأمل تجاه عدم إشراك فرنسا فى حل الأزمة:

لا أعلم إذا كانت قلوبكم قد جرحت أم لا من هذا الكم الوفير من الاحتجاجات. لا أعلم إذا كانت كرامتكم الوطنية تتألم أم لا. حافظوا بالتأكيد على السلام؛ ولكن باسم كرامة البلاد لا تتكلموا عنه كثيرا؛ وباسم كرامة البلاد حافظوا على الأقل على نبل الصمت[2].

فى الفترة من يناير إلى أبريل 1841، تمت مناقشه فرمان التنصيب. فى بداية المفاوضات، حفظ بندٌ مِن البنود للسلطان الحق فى اختيار خلفا من بين أعضاء أسرة الوالى، وذلك فى كل عطلة للحكومة المصرية. أوحى لورد بونسونبى بهذا التدبير إلى رشيد باشا، إلا أن جيزو نجح فى تعديل هذه النقطة التى تدمر مبدأ الخلافة الوراثية. أما النمسا وبروسيا، الحريصتان على عودة فرنسا إلى مائدة المفاوضات، فقد أيدتا جيزو. وهكذا كما يلاحظ فرانسوا شارل-رو[3]، فقد بقى محمد على محتفظا بملكية مصر، على الرغم من محاولات بالمرستون وبونسونبى، ولأن القوى المركزية لم تكن لديها أية رغبة فى إرغام

(1) باروت (أ.) 1791-1873. هو رئيس حزب يسار الأسرة الحاكمة أثناء ملكية يوليو، وبوصفه فى هذا المنصب نظم حملة الولائم التى حرضت على قيام ثورة 1848.
(2) *Cité par Freycinet (G.), La question d'Egypte, Paris, s.d. p.32*
(3) *Charles-Roux (F.), L'Egypte de 1807 à 1882, Paris, 1936, p.226*

فرنسا على الحرب. فى 19 أبريل 1841، منح السلطان للباشا الوراثة وفقا للبكورية، أى منح الخلافة للابن الأكبر سنا فى العائلة. تسلم الباشا فى 10 يونيو 1841، فرمان التنصيب، ومن ثم انشغل بتأسيس عائلة ملكية جديدة؛ وأنهى الصراع التركى المصرى. ابتداء من 1842، حرص الوالى على التقرب من الباب العالى تمهيدا لمصالحة كاملة. وفى 1846، زار الباشا القسطنطينية حيث استقبله السلطان باحترام وفير.

يتحدث الكثير من المؤرخين عن هزيمة الباشا الذى فقد إمبراطوريته، جزئيا. إلا أن والوسكى، على النقيض، يرى أن محمد على باعتباره لاعبًا قد راهن على خسائره، وقلل منها من أجل بلوغ هدف واحد:

> **إن محمد على، الذى ولد وسط حضارتنا، كان أقرب لأن يصبح مترنيخ أو تاليراند أكثر من نابليون إن سلوكه السياسى منذ عشر سنوات يدعم كل ما أسوقه عن شخصيته.**
>
> **جسور: ففى عام 1833، لم يتوقف عند قونية.**
>
> **رجل نابغة: إذ لم يتوقف عام 1839 عند نزيب.**
>
> **لم يجرؤ قط على أن يطمح صراحة فى عرش السلاطين، ربما يكون قد فكر أحيانا فى بلوغ**

هذا الهدف إلا أن فرص هذه المحاولة كانت مشكوكًا فيها جدا بالنسبة لعقله الفطن الذى عزم بوضوح على عدم مجابهتها.

لقد اقتصر طموحه دائما على الحصول على وراثة مصر، وسوريا إذا أمكن؛ ولقد سار دون توقف فى هذا الطريق، ولكن بتعقل وحكمة بحيث لا يخاطر أبدا بكل شىء مقابل كل شىء.

إن إصراره وعزمه الباديين اللذين يتسلح بهما فى عدم التهاون فى مطالبه، يرتكزان كلية على معرفته بالموقف المتبادل للحكومات الأوربية[1].

فى لندن 13 يوليو 1841، صدقت الدول الكبرى على قرار السلطان. فى نفس اليوم، ومن خلال نص جديد هو *اتفاقية المضائق*، تمت الموافقة على مطلب روسيا، مع الضمان لكل القوى، بأن يكون مضيقا الدردنيل والبسفور من هذه اللحظة مغلقين بصفة دائمة أمام السفن الحربية.

---

(1) رسالة من والوسكى إلى تيير بتاريخ 24 أكتوبر 1840
Correspondance politique. Egypte fo.71-74.

ما نتائج أزمة 1839؟

خرجت فرنسا من الأزمة مهانة فى كبريائها الوطنى أكثر من مهزومة أو متضائلة؛ لقد وطدت إجمالا قوة محمد على فى مصر من خلال الوراثة، واستمرت فى القيام بتأثير عظيم فى هذا البلد. أما روسيا فقد تأثرت بشكل مختلف؛ فالقيصر الذى أعمته كراهيته للويس - فيليب، فقد كل مزايا معاهدة أونكيار- سكيليسى، وحصدت إنجلترا كل المكاسب من هذا الأمر: إذ أبعدت محمد على وفرنسا إلى الجنوب، وروسيا إلى الشمال، وأنقذت مستقبلا طريق الهند القارى عبر بلاد الرافدين[1].

(1) مرجع سبق ذكره، ص 157 *Driault (E.),*

الفصل الرابع والعشرون

مسلة الأقصر

فى عهد لويس الثامن عشر، أهدت مصر مسلة لفرنسا. إلا أن هذا العمود الجرانيتى الأحمر والمسمى مسلة كليوباترا، والذى كان موجودا بالإسكندرية، كان فى حالة سيئة ونقله يشكل صعوبة، ففضلت الحكومة الفرنسية أن تتنازل عنه.

وتكررت قصة الزرافة مرة ثانية، لأن القنصل الإنجليزى طالب أن تمنح حكومته مسلة كليوباترا الثانية، إلا أنه ولنفس الأسباب التى أبداها الفرنسيون تراجع الإنجليز عن نقل مسلتهم.

فى يوليو 1829، كتب شامبليون، الذى كان موجدًا فى منطقة طيبة، إلى دروفيتى قائلا:

> **إذا كنا نريد أن نرى مسلة فى باريس، فلتكن واحدة من مسلتى الأقصر[1].**

أقنع دروفيتى الباشا بأن يهدى الملك شارل العاشر مسلتى الأقصر، وهكذا، أصدر شارل العاشر فى شهر أغسطس قرارا بأن يُنقل إلى باريس ليس

---

(1) Archives historiques de la Marine, BB4, 1029, III.

فقط المسلتان، ولكن أيضا مسلة كليوباترا التى كانت لا تزال موجودة بالإسكندرية.

فى 15 يناير 1830، أبحر البارون "تيلور: *Taylor*" إلى مصر على متن السفينة "الدرومادير: *Le Dromadaire*" من أجل:

التفاوض بشأن التنازل عن مسلتى الأقصر
ونقل مسلة الإسكندرية إلى فرنسا[1].

قام محمد على، الذى كان يريد إرضاء الملك شارل العاشر، مباشرة بإيفاد طاقم عمل إلى الأقصر، إلا أن هذا الطاقم كان يفتقد تماما إلى الخبرة وتنقصه المعدات. وخشية من وقوع خطأ ما، أرسل القنصل ميمو فى إثرهم لينان دو بلفوند؛ وهو خوف مبرر لأن:

الأفندى الذى أرسله محمد على كان يعتقد
أن الأمر ليس إلا تمثالا كالذى سبق أن رآه[2].

إلا أن شيئا لم يتم بسبب نقص المعدات، كما أن ثورة 1830، أوقفت العمل فى كل شىء.

---

(1) *Article premier de l'Ordonnance du Roi du 6 janvier 1830.Archives historiques de la Marine BB4, 1029 bis.*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 93 *Pardieu (Ch. De)*.

في 24 نوفمبر 1830، أهدى محمد على مجددا الملك لويس فيليب الهدية التى سبق أن عرضها على سابقه. وفى 15 أبريل، وللمرة الثانية تم إرسال بعثة على متن السفينة *الأقصر* للبحث عن المسلات. وقد أوكل إلى المهندس "لو با: *Le bas*" إدارة البعثة، أما قائد *الأقصر* "فيرنيناك دو سان مور: *Verninac de Saint Maur* – فكان عليه أن يدون سردا للأحداث[1]. أدرك لو با بمجرد وصوله إلى الإسكندرية صعوبة نقل مسلة كليوباترا، أما بالنسبة لمسلتى طيبة فلم يخف إبراهيم باشا ضعف ثقته فى نجاح المهمة، وهو ما رد عليه لو با قائلا:

> **سيدى الأمير، ألا تعتقدون أنه سيكون من الحكمة التريث فى الحكم حتى تتم المحاولة التى سنقوم بها؟[2].**

أثناء اللقاء الذى عقده الباشا، سلم فيرنيناك دو سان مور هدية الملك لويس- فيليب، وهى سرد *"لرحلة سفينتى لاكوكى والإسطرلاب: "Une relation du voyage de la Coquille et de l'Astrolabe"* الذى صدر فى باريس حديثا. استمتع الباشا باللوحات، وشكر ملك الفرنسيين، لأنه زوده بوسيلة تمكنه من القيام برحلة حول العالم دون مغادرة قصره.

---

(1) Verninace de Saint Maur, le Voyage de Luxor en Egypte, Paris, 1835.

(2) Cité par Benoit-Guyot (G.)Le Voyage de l'obélisque, Paris, 1839, p.43.

رحل فيرنيناك دو سان مور ولو با إلى الأقصر بصحبة المملوك يوسف كاشف، مزودين بالأموال اللازمة من قبل قنصل فرنسا. ولما وصلا إلى الموقع، اكتشفا أن قاعدة إحدى المسلتين متصدعة، مما يجعل نقلها متعذرا، فضلا عن وباء الطاعون الذى أدى إلى تأخير عمليات النقل. لم يتم شيء حتى 31 أكتوبر، حيث توفرت كل العوامل اللازمة لتهبط المسلة فى روية وإحكام على حافة الطريق الذى اتكأت عليه، وقد احتاج لوبا إلى عشرين دقيقة لإتمام هذه المهمة. ثم وفى حركة دائرية ثانية، استقرت المسلة على لوح خشبى حيث تم سحبها إلى السفينة التى ستقلها. بعد ذلك، كان يجب انتظار فيضان النيل فى شهر يوليو حتى تتمكن *الأقصر* من الإبحار؛ وهو إبحار مجازف ومحفوف بالمخاطر حتى الإسكندرية التى بلغتها السفينة فى الشتاء، حيث كانت المدينة تعج بالفرحة بعد انتصار قونية.

فى 1 أبريل 1833، بدأ الرحيل إلى فرنسا. وكان محمد على قد أعرب عند مغادرة المسلة عن تقديره لها بعبارات جميلة قائلا:

> **لم أفعل شيئا من أجل فرنسا مثلما فعلت فرنسا من أجلى. فإذا كنت أعطيها آثار حضارة قديمة، فذلك فى مقابل الحضارة الجديدة التى غرَست بذورها فى الشرق. أتمنى أن تصل مسلة طيبة بسلام إلى باريس، وأن تمثل صلة أبدية بين المدينتين!**[1].

---

(1) المرجع السابق، ص93.

بلغت *الأقصر* "شربورج *Cherbourg*" في 12 أغسطس، حيث اتجه لويس – فيليب إلى هناك في 31 أغسطس، ليثني على فيرنيناك دو سان مور ولو با. ومن هناك قُطِرت السفينة حتى "روان: *Rouen*" حيث رست، وفي 23 ديسمبر نزعت صواريها عند جسر الكونكورد(*).

ومن ثم بدأ عمل لوبا من جديد، وهو إنشاء ركيزة لقلب المسلة على جانبها ثم ركيزة لانزلاقها؛ إلا أن كل العمل تأخر نتيجة إضراب النجارين. في هذه الأثناء، كان فيرنيناك دو سان مور يبحث عن جرانيت من أجل قاعدة العمود، حيث عثر عليه في بريتاني؛ وانتهت كل هذه الأعمال في أغسطس 1836. وفي 25 أكتوبر 1836، نصبت المسلة في حضور الملك.

(*) هو جسر في باريس يجتاز نهر السين ما بين ميدان الكونكورد ومحطة أورساي، وقد أطلق عليه جسر لويس السادس عشر، وجسر الثورة، وجسر الكونكورد ويعد معلما تاريخيا. (المترجمة)

الفصل الخامس والعشرون

بعثة الأنجال

أثناء حديث عادى بين محمد علىّ وسليمان باشا حول موضوع تعليم أبنائهما، انطلقت فكرة إرسال أبنائهما ليتلقوا تعليمهم فى فرنسا. وتشكلت بعثة تعليمية بإرسال أحد أبناء الباشا وهو الأمير حسين، وكذلك الابن الأكبر إبراهيم باشا، وأحمد رفعت، فضلا عن ابن سليمان باشا إسكندر بك. بالإضافة إلى هؤلاء، اختار سليمان باشا 34 طالبا مصريا من مدرستى المدفعية والفرسان ومدرسة البوليتكنيك.

قام أرتين بك، وزير الدفاع، والذى كان طالبا قديما فى المدرسة المصرية، بتكليف جومار بوضع برنامج للدراسات مماثل لبرنامج المدارس العسكرية الفرنسية.

فى أغسطس 1844، وصل الأمراء والبكوات والأفندية[1]، إلى مقر المدرسة الكائنة بشارع رونار (*rue du Renard*) فى باريس، والواقعة تحت إدارة الكولونيل "روكونكور: *Rocquencourt*".

تم تخصيص مساكن للطلاب بالمدينة وفقا للطبقة الاجتماعية لكل طالب؛ إذ أقام الأمراء برفقة معلمهم الأرمنى "ستيفان بك: *Stéphan*" فى مساكن

---

(1) البكوات هم أبناء المعاونين المقربين من الباشا، والأفندية هم من ينتمون إلى طبقات اجتماعية فقيرة.

فاخرة، ووضعوا تحت حراسة العائلة الملكية. ووضع ابن سليمان باشا تحت وصاية "دوق دو لين: *duc de Luynes*"، الذى كان قد سافر إلى مصر عام 1843، بصفته نائب مدير الآثار المصرية بمتحف شارل العاشر، وأصيب بوعكة صحية، فاعتنى سليمان باشا بصحته عناية فائقة، وباعتباره ردًا للجميل تولى الوصاية على إسكندر بك[1].

كان برنامج الدراسات منظما بالطريقة التالية:

> **يبدأ اليوم فى السادسة صباحا وينتهى فى الثامنة مساءً. وتتعاقب التدريبات والدروس والاستراحات وفقا لجدول زمنى صارم، لا تمنح عطلات إلا يوم الأحد والخميس بعد الظهر[2].**

فى يونيو 1845، انضم إليهم الأمير حليم بن محمد على، وبرفقته اثنان وعشرون طالبا آخرون يتقدمهم ابن أخيه، إسماعيل باشا، بن إبراهيم باشا، الذى سبق أن تلقى علاجا بفيينا.

فيما يتعلق بالإجازات، فقد كان الأمراء ينضمون إلى العائلة المالكة فى "فونتانبلو: *Fontainebleau*" أو كومبيانى: *Compiègne*" أو حتى "نورماندى:

---

(1) *Cattaui (R.), Note au sujet d'une letter de Soliman pacha sur l'education de son fils Iskander bey in Bulletin de l'institut d'Egypte, t. XX,p.227*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 77 *Louca (A.),*

"*Normandie*: أما الآخرون، فقد كانوا يقومون بزيارات لباريس: مصنع السيفر: *Sèvres*"، معهد الفنون والمهن، مرصد...

لم يكن الجميع يدرس بنفس الحماسة؛ فقد أبدى إسكندر بك استعدادا ضعيفا للدراسة، وكان دوق دو لين يرسل تقارير كارثية إلى سليمان باشا الذى ينفجر غضبا ويقول لكل من يسمعونه:

إنه لا يأخذ من فرنسا إلا الأشياء السيئة،
لماذا لا يريد أن يتعلم منها الأشياء الطيبة!

وفى خطاب موجه إلى الدوق دو لين بتاريخ 24 مارس 1851، عبر سليمان باشا عن قلقة إزاء هذه الغفلة التى طال وقتها:

إذا عاد إسكندر بك إلى مصر دون أن يكون قد أنهى على الأقل ما تعتقدون أنه من المناسب تعلمه، فإنه رجل ضائع، وسيحدث له ما حدث لكل من رجع من فرنسا قبل الأوان المناسب، سينسى كل شيء وكل ما تعلمه سيصبح جهدا ضائعا[1].

(1) مرجع سبق ذكره، ص 277 *Cattaui (R.)*,

في الحقيقة، لقد وقع إسكندر بك فى غرام ابنة دوق دو لين الذى رفض أن يعطيه يد ابنته، وعندما عاد ابن سليمان باشا إلى مصر عاش حياة بائسة ومنعزلة. أما أبناء شريف باشا، حاكم سوريا السابق ووزير المالية، فلم يكن ثلاثتهم بحالة أفضل:

لم يجيدوا إلا اللعب بالورق وملاحقة الفتيات[1].

وقد أصبح أحدهم، وهو خليل بك، هاويا كبيرا لجمع لوحات كوربيه (*Courbet*) التى باعها لاحقا عند إفلاسه.

أما عن حليم باشا، الذى كان يتعرض بسبب إسرافه للتوبيخ الدائم من قبل أبيه، فقد عقد صداقات وطيدة جعلته فى وقت من الأوقات يبنى آمالا ويطمح إلى مساندة دائمة فى صراعه مع إسماعيل باشا على العرش.

وبقدر ما كان حليم باشا مبذرا كان إسماعيل باشا مقتصدا، وهما عيب وميزة ظلتا معهما طوال حياتهما.

عندما قام إسماعيل باشا بزيارة رسمية لفرنسا عام 1867، ذهب متخفيا لدى تاجر الورق الكائن أمام المدرسة المصرية. وقد قال الخديو لصاحب الحانوت المندهش:

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص *Prisse d'Avennes cite par Louca (A.)*, 80

حسنا، أنا إسماعيل باشا الذى أسديت إليه خدمات، عندما كان طالبا بالمدرسة المصرية معروفا باسم إسماعيل باشا، ربما تكون قد نسيتها، ولكن والى مصر يتذكرها ويأتى إليك اعترافا بالجميل[1].

على الفور، اشترى منه الخديو طلبية كبيرة، بل أعلن له أيضا أنه عينه مورده الحصرى طوال فترة حكمه.

فى مايو 1846، قام إبراهيم باشا بزيارة المدرسة المصرية، وشارك فى حفل توزيع الجوائز، حيث لفت انتباهه على مبارك وحامد وعلى إبراهيم. وعقب الاحتفال قال لأبنائه:

أوصيكم بصفة خاصة بعلى مبارك لأنه هو وزملاءه أمل مصر التى نتمناها!

لقد كان على مبارك[2]، بلا جدال هو الطالب الأكثر تميزا، وقد سافر فى يناير 1847، إلى فرنسا للدراسة فى مدرسة "متز *Metz*" للمدفعية والهندسة.

---

(1) *Douin (G.), Histoire du Khédive Ismail, t.II.*

(2) 1824-1893.

وعند عودته إلى مصر، تمتع بحظوة لدى الخديو إسماعيل الذى كلفه عام 1870، بمهام وزارتى التعليم العام والأشغال العامة. كما كُلف أيضا بالتجهيز لاحتفالات افتتاح قناة السويس.

توقفت البعثة العسكرية المصرية المعروفة ببعثة الأنجال عام 1849، عند تولى عباس باشا الحكم.

الفصل السادس والعشرون

الرحلات الأميرية

فى نهاية عهد محمد علىّ، سمحت رحلتان أميريتان بتقييم قوة العلاقات بين مصر وفرنسا. ففى عام 1845، قَدِم "الدوق دو مونبونسييه: " *le duc de Montpensier*، ابن الملك لويس فيليب إلى مصر؛ وفى عام 1846، سافر إبراهيم باشا إلى أوربا حيث أقام فى فرنسا.

بمجرد إعلان رحلة الدوق دو مونبونسييه، أصدر الباشا تعليماته ليكون الاستقبال رائعا، بل وأشرف بنفسه على تنفيذ تعليماته:

ليبين الأهمية التى يوليها اعترافا بالرعاية
التى أولتها حكومة الملك وقت المخاطر الكبيرة[1].

وصل الدوق دو مونبونسييه إلى الإسكندرية فى 30 يونيو 1845، على متن الفرقاطة البخارية "لو جومير: *Le Gomer*"، وكان فى استقباله على الفور سعيد باشا بصفته أميرال الأسطول؛ حيث رافقه إلى قصر القبارى محل إقامته.

(1) مرجع سبق ذكره، ص 525 *Benedetti de*,

وكان مما أثار دهشة الجميع أن الباشا انتقل بنفسه لتحية ضيفه دون أن ينتظره بل وأمطره بالمجاملات:

> **لم يكن اللقاء وديا فحسب بل كان مؤثرا: إن انتقال هذا الشيخ، الذى أربك الشرق وهز أوربا، لاستقبال هذا الأمير الشاب، الذى لا يزال مراهقا يخطو أولى خطواته فى الحياة، أثر بعمق فى مشاعر كل الحاضرين[1].**

فى 6 يوليو، غادر الدوق الإسكندرية عبر النيل قاصدا القاهرة، حيث أقام فى قصر شبرا. وأثناء المحادثات بين ابن لويس- فيليب وأبناء محمد على، طُرح مشروع زيارة إبراهيم باشا لفرنسا.

قام الأمير الشاب برحلة إلى صعيد مصر برفقة سعيد باشا ولينان دو بلفوند؛ ثم عاد إلى فرنسا ومعه عمل يخص قناة السويس (مذكرات وتصميمات وخرائط) بهدف دفع عجلة مشروع الحفر. فى 1847، وبفضل مساعى الدوق دو مونبونسييه، تم تكوين جمعية لدراسات قناة السويس فى فرنسا[2]. غير أن محمد على، الذى لم يكن يعترض على أى دراسة بشأن مشروع الحفر، فكر فى النهاية فى أن تنفيذ هذه الأعمال قد يعرض استقلال مصر للخطر:

---

(1) المرجع السابق، ص 526.

(2) *Linant de Bellefonds bey, Mémoires sur les principaux travaux d'Utilité Publique en Egypte,Paris, 1872-1873, p.214.*

> **إن القناة، كما كان يقال له، ستكون بمثابة البسفور لك، وتدين تركيا للبسفور بالفصل بين كل القوى، وتحييد مطامعها الخاصة، كما مكنها البسفور من ألا تهاب شيئا يمس أمن العاصمة. ويجيب: أنتم مخطئون؛ إن البسفور، هذا المضيق الذى لا يؤدى إلى البحر الأسود فحسب، ولكن إلى البحر المتوسط أيضا، هو مصدر كل المشاكل التى تتكبدها الإمبراطورية العثمانية منذ قرن[1].**

أما عن رحلة إبراهيم باشا عام 1846، فقد كانت رحلة بروتوكولية قبل كل شيء، تهدف إلى تدعيم علاقات الصداقة بين فرنسا ومصر، وإن كان لها بالنسبة للبعض مغزى آخر:

> **رغبة فى تفادى المزيد من المتاعب، قام إبراهيم باشا، الذى لم يكن يتبنى نفس أفكار محمد على ولا يوافق على إصلاحاته، برحلة إلى أوربا فى هذا الوقت متعللا بأسباب صحية، وإن كان فى الواقع ينتظر هناك بهدوء موت أبيه[2].**

يشير نفس المصدر إلى أنه قبل السفر بوقت قصير، كان إبراهيم باشا قد رفض إقراض أبيه ثلاثين مليون فرانك لدفع رواتب الجيش.

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 520 *Benedetti de.*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 170 *Volkoff (O.),*

ولقد أشار العديد من المعاصرين، سواء الأوربيين أو ممن خدم الباشا، إلى وجود توترات حادة بين الأب والابن خصوصا بعد 1844، وهو الوقت الذى بدأت فيه صحة الوالى تضعف:

> **رغم أنه لم يصب بتراجع واضح، فإن جلاء ذهنه بدأ ينحسر: لم يعد يمتلك ذلك الإدراك الجلى للأمور[1].**

لقد كانت رحلة إبراهيم إلى فرنسا رحلة خاصة ورسمية فى آن واحد. فقد وصل إلى طولون فى 27 نوفمبر 1846، ثم اتجه إلى مارسيليا، حيث لم يرغب فى النزول ضيفا على الحكومة الفرنسية وإنما على بيوت التجارة التى لها علاقات تجارية مع الإسكندرية مثل بيت الأخوة باستريه *Frères Pastré* أصحاب السفن الأثرياء، وهم الذين وفروا له فيلا ليقيم بها. وقد قالت له عائلة باستريه عند تسليمه مفتاح الفيلا:

> **إن هذا المنزل من الآن فصاعدا منزلكم يا صاحب السمو[2].**

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 518 ,*Benedetti de*

(2) مرجع سبق ذكره، ص 450 ,*Enkiri (G.)*

ابتداء من ديسمبر 1846 إلى أبريل 1847، أقام إبراهيم باشا بفيرنيه (*Vernet*)، ربما ليخضع لعلاج من أمراض معوية. وفى يوم وصوله إلى هذه المدينة المشهورة بمياهها، نصب له قوس نصر يحمل النقش التالى:

إلى ابن محمد على المحترم

إلى صانع حضارة الشرق

إلى صديق الفرنسيين

إلى البطل المصرى[1].

وهناك تناول الماء بناء على نصيحة الطبيب "لالمان: ***Lallemand***". كان برفقة إبراهيم باشا فى هذه الرحلة كل من سليمان باشا، وإبراهيم باشا يكن[2]، ونوبار باشا، وسكرتيره "بونفور: ***Bonfort***".

فى 22 أبريل 1847، غادر إبراهيم باشا فيرنيه ليتوجه بقطاره الخاص إلى باريس؛ وهناك كان استقبال الباريسيين له حماسيا جدا، لدرجة أن الموكب استغرق ساعات طويلة ليصل من محطة القطار إلى قصر الإليزيه حيث أقام.

قام الملك لويس – فيليب باستقباله رسميا بقصر "التويلورى: ***Tuileries***" فى 28 أبريل. ولما كانت مصر لا تزال تابعة للباب العالى، فقد قام سفير تركيا بتقديم إبراهيم باشا إلى ملك الفرنسيين بهذه العبارة:

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 447 *Enriki, (G.),*
(2) ابن خالته.

ألتمس من جلالتكم السماح لى بأن أقدم لكم
ابن الخادم الأبرز للسلطان، سيدى صاحب السمو
إبراهيم باشا، ولى عهد والى مصر[1].

كان إبراهيم باشا قد غادر مصر، ومعه تعليمات محددة من قبل والده[2]. إذ كان عليه ألا يجيب عن أى موضوع بطريقة تلقائية، لقد توقع الباشا كل شيء.

أقام إبراهيم باشا فى قصر الإليزيه، وزار باريس وليزانفاليد *(Les Invalides)* ؛ حيث احتشد بعض الجنود القدامى من الحرس الإمبراطورى. وعندما رآهم قال:

إن الشرف الذى حظيت به أكثر مما أستحق.
لقد أردت فقط أن أزور الجنود القدامى؛ لم آت هنا
لأتلقى تشريفا من قبلهم، ولكن لكى أثنى عليهم[3].

وقد حضر عروضا عسكرية بفنسان *(Vincennes)* وشان دو مارس (*Champs de Mars*)، وأعجبه عرض شان دو مارس كثيرا.

وزار دار العملة حيث اندهش لاكتشافه وساما ضرب عام 1840، تمجيدا لموقعة نزيب. وكان على وجه الوسام صورة جانبية لمحمد على، وقد

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 451 *Enriki, (G.)*
(2) انظر فى الملحق: تعليمات محمد على لابنه إبراهيم باشا بشأن رحلته إلى أوربا.
(3) مرجع سبق ذكره، ص 165 *Weygand,*

دون بالفرنسية والعربية عبارة: محمد على، مجدد مصر، أما على الجانب الآخر، فقد كان هناك سيف مزخرف برأسى أسد، وقد دون على نصله نزيب *1839*، مع هذه الشاهدة: *لقد استطاع فى نبل أن يدافع عن شرف وطنه.*

لقد كان أبناء الملك يرافقون إبراهيم باشا فى معظم زياراته، وهم الدوق دو نيمور (*de Nemours*) ودو بونبونسييه، والأمير دو جوانفيل (*de Joinville*).

وبمناسبة عيد الملك، حصل إبراهيم باشا على الوسام الرفيع لجوقة الشرف[*]، على حين رقى سليمان باشا، الذى كان عضوا فى هذه الجماعة منذ 1813، إلى منصب كبير الضباط.

بعد ستة أشهر من الإقامة فى فرنسا، رحل إبراهيم باشا إلى إنجلترا. وعند عودته إلى مصر، ذكر انطباعاته لبارو (*Barrot*) قنصل فرنسا[1]، الذى وجه لجيزو تقريرا طويلا. لقد كان القنصل مرتابا فى النتائج المؤملة من هذه الرحلة:

> **أيا كانت الأفكار الحكومية التى أتى بها إبراهيم باشا من أوربا، فسيتجنب الإفصاح عنها فى حياة أبيه. سيكتفى فقط بتطبيق المعارف الجديدة التى قد يكون اكتسبها من أجل تحسين أعماله**

(*) وسام جوقة الشرف الوطنى أو وسام جوقة الشرف هو النظام الذى أسسه نابليون بونابرت فى مايو 1802 ، وهو أعلى وسام فى فرنسا ينقسم إلى خمس درجات مختلفة: فارس، ضابط، قائد، ضابط كبير، ووسام الصليب. (المترجمة)

(1) انظر فى الملحق مراسلة 18 أغسطس الموجهة لجيزو.

الاعتيادية. ولن يعرف العالم، إلا بعد أن يرفعه موت محمد على إلى سدة حكم هذا البلد، إذا كان إبراهيم باشا سيطبق، من أجل مصلحة شعب مصر، النماذج الناجحة والرفيعة فى الإدارة والحكم التى التقى بها أثناء الرحلة المُعْلِمة التى قام بها لتوه[1].

(1) المرجع السابق.

الفصل السابع والعشرون

السنوات الأخيرة

فى الوقت الذى كان فيه إبراهيم باشا فى فرنسا، قام محمد على برحلة إلى القسطنطينية فى يوليو 1846، للتعبير عن إجلاله للسلطان الشاب عبد المجيد الذى:

> أبدى لعميد وزراء الباب العالى احتراما وثناء شديدين[1].

انتهت الزيارة فى أغسطس 1846، ولكن قبل أن يعود الوالى إلى مصر، قام بزيارة قولة التى غادرها منذ خمسين عاما لزيارة أضرحة العائلة والصلاة عليهم.

خلال السنوات الأخيرة من حكم محمد على، ساد صراع خفى بين الأب والابن. فكما سبق وأن رأينا، كانت لكل من محمد على وإبراهيم باشا تصورات متناقضة عن مكانة مصر داخل الإمبراطورية العثمانية؛ إذ واجه الوالى صعوبة

---

(1) Gouin (E.), op.cit.p.469.

شديدة أثناء موقعة نزيب فى تحجيم ابنه، ومنذ هذه اللحظة تحول الصدع الدقيق بينهما إلى كسر واضح.

ابتداء من 1844، بدأت المعارضة تأخذ منحى دراميًا بسبب الحالة الصحية للباشا. وهكذا، على سبيل المثال عندما غضب الباشا بسبب بطء أعمال إنشاء السدود على النيل، وهو بطء يعزى لنقص الموارد المتاحة لهذه الأعمال بسبب النفقات العسكرية خلال عام 1840، كان غضب الباشا شرسا. وقد تزامنت هذه الأزمة مع ظهور أول اضطراب فى قدرات محمد على؛ إذ طلب بأن يتم تسليم الخائن والبخيل، والخائن هو ابنه إبراهيم باشا المتهم بعدم الانتهاء من أعمال السد، والبخيل هو شريف باشا رئيس المجلس الذى لم ينفق الأموال اللازمة لإنجاز الأعمال.

أريد إبراهيم باشا مكبلاً الأرجل والأيدى.
سوف أعتقله لأجبره على الإذعان[1].

وفى حالة من الهياج يصعب وصفها، اتجه إلى القاهرة مهددا بقضاء بقية حياته بجوار قبر الرسول. وقد أعرب الكونت بنيديتى، المكلف فى هذا الوقت بقنصلية فرنسا بالإسكندرية عن قلقه إزاء هذا الموقف:

لقد كان حوله خدم يطيعونه بصورة عمياء،
ومنفذون مخلصون لكل رغباته، وهؤلاء يهرعون

---

(1) مرجع سق ذكره، ص 522 *Benedetti de.*

للالتزام بأوامره مهما كانت دون السؤال عن الصحة العقلية لسيدهم[1].

بعد بضعة أيام تعافى الباشا وأغلق الموضوع. غير أنه، وكما يشير نوبار باشا، ثار الباشا من جديد لأمر يتعلق بإبراهيم باشا بصفته وزيرا عام 1844، حيث ارتاب الباشا فى أن ابنه يحيك المؤامرات للاستيلاء على السلطة:

ما من مشهد يضاهى مشهد إبراهيم باشا وهو يتوجه إلى أبيه، الذى رسخ فى ذهنه أن ثمة مكيدة تحاك ضده[2].

فى 1847، وقع الباشا من جديد فريسة لهلاوس غريبة، فبمجرد أن رأى قنصل فرنسا، صاح قائلا:

الملك، الملك، والملك بالنسبة له كان فرنسا[3].

فكر أطباؤه حينئذ أن تغيير المكان ربما يكون علاجا ناجعا له؛ وهكذا بدأت رحلة بحرية خارجية كان من المفترض أن تقل الباشا إلى فرنسا:

---

(1) المرجع السابق، ص 523.

(2) مرجع سبق ذكره، ص 17 *Mémoires de Nubar pacha,*

(3) مرجع سبق ذكره، ص 527 *Benedetti de,*

لقد ظل محتفظا بسمته العظيم، تلك النظافة المميزة التى تقارب فى تميزها الأناقة؛ العين يقظة، تضج بالحياة؛ يجلس منثنى الساقين، قابضا دائما بيده على سيفه. يا له من تناقض مع إبراهيم، الواقف أمامه، مرتديا سترة فظة، برأسه المنحنى، ويديه المعقودتين أمام صدره دلالة على الاحترام، منتظرا أمر أو كلمة! يراقب أباه متسائلا إذا ما كان مرضه حقيقيًا أم مصطنعًا![1].

ولما بلغ شواطئ نابولى قامت ثورة فبراير، وتم خلع الملك لويس - فيليب. أراد محمد على على الفور أن يحشد جيشا وأعلن استعداده لقيادته لإعادة ملك الفرنسيين.

أدى هذا الخبر إلى تدهور حالته وتقررت العودة إلى مصر. وبمجرد وصوله تم فحصه من قبل أطبائه الذين:

أعلنوا أن محمد على أصيب بخرف الشيخوخة. لقد فقد ذاكرته، ولم يعد يتعرف إلى أحد، ويتلفظ فى بطء بكلمات غير مترابطة[2].

---

(1) مرجع سبق ذكره، ص 54 *Mémoires de Nubar pacha,*
(2) المرجع السابق.

تم تشكيل مجلس وصاية على العرش برئاسة إبراهيم باشا بهدف إدارة الأمور الجارية. كان أعضاء هذا المجلس، هما أحمد باشا يكن وسعيد باشا، وبدأ المجلس يباشر مهامه فى 13 يونيو 1848.

أثناء شهر أبريل، ومع تأخر الحالة الصحية لمحمد على، سافر إبراهيم باشا إلى القسطنطينية متعللا بوباء الكوليرا، وهناك حصل على التنصيب فى 13 يونيو 1848. لقد مُنح التنصيب سريعا ولا سيما أن طبيبا نمساويا ملحقا ببلاط السلطان اكتشف مرضا خطيرا لدى إبراهيم باشا، وتوقع وفاته بعد ستة أشهر، إذ كان يعانى فى هذا الوقت من مرض هاجم الرئتين وكان يبصق دما.

عاد إبراهيم باشا إلى الإسكندرية فى 14 سبتمبر 1848، ومات بقلعة القاهرة فى 25 نوفمبر 1848.

فى أوقات الحنق والغضب، كان محمد على، الذى يحب السلطة بشدة ولا يستطيع أن يواجه لحظة انتقالها إلى خلفه دون استياء، يتعجب دائما: "لن يرث ابنى سلطتى، سأعيش أطول منه. "ولما علم إبراهيم باشا بهذه الكلمات أجاب قائلا: "إن للطبيعة قوانينها التى تتفق مع قوانينى؛ سأحكم مصر". وفى تزامن غريب للأحداث، كان الاثنان على حق، فقد حصل الابن على السلطة العليا، ولكن الأب عاش أطول منه[1].

---

(1)مرجع سبق ذكره، ص 528 *Benedetti de.*

وحينئذ، أصبح عباس باشا، ابن طوسون باشا، هو الذى يباشر الحكم، وفقا لقاعدة البكورية. وقد تلقى من الباب العالى فرمانا يماثل الفرمان الذى صدر لإبراهيم باشا، وسافر إلى القسطنطينية فى ديسمبر 1848، للحصول على التنصيب.

وهكذا، عاش الباشا فى الإسكندرية بقصر رأس التين محاطا بعدد قليل من الخدم. كان يعانى من الأرق الذى لا يسمح له بالنوم إلا ساعة أو ساعتين أثناء الليل، ولتسليته كان يُصطَحب فى نزهات فى حدائق محرم بك أو زيزنيا.

توفى محمد على بالإسكندرية فى قصر رأس التين ظهر يوم 2 أغسطس 1849. وفى الإسكندرية، سار فى موكب جنازته كل الشعب دون تمييز فى الدين أو الجنسية.

وقد نقل جثمانه إلى القاهرة، حيث دفن فى الضريح الذى شيده فى قلعة القاهرة.

> **رافق سعيد باشا وبعض الضباط المُتوفى حتى القاهرة، حيث تم من جديد السير وراء الجثمان حتى القبر فى موكب فخم، ولكن دون أن تتم دعوة السلطات الأجنبية نزل الاثنان (سعيد باشا وعباس باشا) حتى باب القلعة مع المتوفى الذى تبعاه حتى القبر الموجود بالمسجد الجديد بالقلعة، وهو مسجد رائع شيده محمد على نفسه[1].**

---

(1) *Lettre de Jean G. Ivos au Ministère du 7 août 1849in Politis (A.).*، مرجع سبق ذكره، ص 186.

الخاتمـــة

لم يكف الباشا قط عن توصية عائلته وبيته وأهله بالإعراب عن التقدير الوافى للخدمات الجليلة التى منحها الفرنسيون لمصر. لقد توطدت وشائج العلاقات طوال فترة حكم أسرته مع فرنسا، واستطاع الأمراء المصريون أن يجدوا العون والمساندة فى هذا البلد الذى اختاره جدهم باعتباره صديقًا وفيًا، وظل الأمر كذلك حتى عهد الجنرال ديجول.

الملاحق

بيان بالمناصب العسكرية لـ "جوزيف سيف: *Joseph Sève*
مقتبس من السجلات والوثائق المودعة بوزارة الدفاع

الاسم والوصف العسكرى

سيف جوزيف، ولد فى 17 مايو بليون (رون)، ابن "أنتليم: *Antheleme*".

جزاز الأصواف وأنطوانيت جويليه:- *Antoinette Juillet*".

الشعر والحواجب كستنائى اللون.

الجبهة عالية.

العينان زرقاوان.

الأنف كبيرة.

الفم متوسط.

الذقن مرفوعة.

الوجه بيضاوى به آثار جدرى طفيف.

الطول: 1 متر و 705 ملليمترات.

- تفصيل المناصب التى تولاها

التحق بخدمة البحرية فى 12 فندميير السنة السابعة (23 سبتمبر 1798).

انتقل إلى الفيلق الثانى لمدفعية البحرية فى 2 فندمير السنة الثانية عشرة (25 سبتمبر 1805) .

انتقل إلى فيلق الخيالة السادس فى 2 مايو 1807.

حصل على رتبة عريف فى 2 يونيو 1807.

أسير حرب فى 15 أبريل 1809.

شطب أثناء التفتيش من فيلق الخيالة السادس بسبب غياب طويل فى 17 فبراير 1810.

عاد من السجن فى 21 مايو 1811.

رقيب فى الخيالة فى 16 يوليو (أو أكتوبر 1811).

ضابط صف فى 1 نوفمبر 1812.

ملازم أول بقرار إمبراطورى فى 5 (أو 6) يونيو 1813.

عين ملازمًا فى فيلق الخيالة القناصة فى 13 (أو 28) مارس 1814.

حامل لواء هذا الفيلق بقرار 19 نوفمبر 1814.

انتقل إلى مركز القيادة التابع للمارشال جروشى فى 1 مايو 1815.

عين قائدا فى مركز قيادة الجنرال كونت دو بيريه، فى وقت سابق لـ 1 يوليو 1815(ألغى التعيين بتطبيق القرار الصادر فى 1 أغسطس 1815).

(لقد كان ملازما فى الاحتياط فى أكتوبر 1817).

وفقا للقوائم الشهرية لضباط الفيلق الرابع عشر للقناصة، فقد كان الملازم سيف على التوالى:

- فى 1 مارس 1815: كان موجودا فى فيلقه بكاستر.(*Castres*)
- فى 1 أبريل 1815: فصل من وحدته العسكرية.(وكذلك معظم فيلقه تقريبا)
- ابتداء من 1 يونيو 1815: كان موجوذا فى سريات الحرب بمارسيليا.
- ابتداء من 1 يوليو 1815: انتقل فى...(التاريخ غير مدون)؛ ليصبح قائدا فى مركز قيادة المارشال كونت دو بيريه؛ وشطب فى 1 يوليو 1815.

أما قائمة 1 مايو، فقد خلت من التفاصيل؛ فلم يذكر على الإطلاق فى هذه الوثائق انتقال سيف إلى مركز قيادة جروشى، إلا أن هذا المنصب يبدو محتملا: فلقد شارك الفيلق الرابع عشر للقناصة فى جنوب فرنسا مع السرية الملكية فى عمليات دوق "أونجولام: *d'Angoulême*" ضد قوات جروشى بيريه؛ وقد استعاد الشارة الوطنية ثلاثية الألوان بعد رحيل الأمير.

إذا كان صحيحا أن سيف رقى لمرتبة قائد أثناء شهر يونيو، فإن هذه الرتبة لم يعترف له بها من قبل الرستوراسيون الثانية؛ إذ إن القرار الصادر فى

1 أغسطس 1815، قد ألغى التعيينات والترقيات وإعادة التوظيف التى تم إقرارها "أثناء فترة الاغتصاب".

على أية حال، عندما طلب فى أكتوبر 1817، السماح له بالزواج من "فيرجينى شامبى: *Virginie Champy*"، كان "ملازما أول خارج الخدمة".

الحملات: العام 9، 10، 11، 12، 13 فى البحر المتوسط على الفرقاطتين "لو مويرون" *le MUIRON*" و"لورتس: *L'HORTESSE*"، وعلى السفن "لاندومتابل: *L'INDOMTABLE*"، "ولو بلوتون: *LE PLUTON*"، و"لو بوسونتور: *LE BUCENTAURE*" و"لا بوريه: *LA BOREE*".

1809: فى جيش ألمانيا

فى الواقع، لقد شارك سيف فى الحملة المعروفة بحملة ألمانيا، ولكن فى إيطاليا، فقط حيث إنه اختفى من الصفوف عندما فى دخلت كتيبة الفرسان السادسة إلى الأراضى الألمانية.

1812: فى روسيا.

1813: فى ألمانيا.

1814: فى فرنسا.

عندما أبلغ الجنرال "كونت دى بير: *comte de Pire*" أن ثلاثة من القوازق(*)، وثلاثة من ضباط الصف قد وصلوا إلى قرية بالقرب من "الفرتيه *la Ferté* بإقليم الأوب: *l'Aube*"، على بعد ثلاث نقاط من المراكز الدفاعية الفرنسية، قام بتكليف السيد سيف بتحصين هذا الموقع. ولقد اضطلع الضابط بهذه المهمة وأداها بذكاء خارق لدرجة أنه حاز على تهانى السيد الكونت "ميلهو: *Milhaud*" قائد كتيبة الفرسان.

الإصابات: ضربة فأس أصابت الذراع الأيمن أثناء التحام بموقعة "ترافالجر: *Trafalgar*" (21 أكتوبر 1805).

(*) الفرسان الروس. (المترجمة)

أبناء الوالى فى السجل الذهبى للعائلة الملكية

إبراهيم باشا: 1204 هجرية (1789) -14 ذى الحجة 1264 (10 نوفمبر 1848). توفى بالقاهرة ودفن بمقبرة الإمام داخل المدفن الكبير للعائلة الموقرة.

الأمير أحمد طوسون باشا: 1208 هجرية (1793)- 7 ذى القعدة 1231 (29 سبتمبر 1816) توفى فى رشيد، ودفن بمقبرة الإمام داخل المدفن الكبير للعائلة الموقرة.

الأمير إسماعيل كامل باشا: 1210 هجرية (1796)- 1238 هجرية (1822)، توفى فى شمدى بالسودان ودفن بمقبرة الإمام داخل المدفن الكبير للعائلة الموقرة.

الأمير جعفر بك: 1255 هجرية (1810) ودفن بمقبرة الإمام بالمدفن الكبير للعائلة الموقرة.

الأمير نعمان بك: 1230 هجرية (1815) ودفن فى مقبرة الإمام بالمدفن الكبير للعائلة الموقرة.

الأمير إسكندر بك: 12 رجب 1236 هجرية (15 أبريل 1821) – شوال 1238 هجرية (يونيو 1823). ولد بالإسكندرية وتوفى بإسطنبول.

الأمير حليم بك: 1237 هجرية (**1822**) ودفن بمسجد النبى دانيال بالإسكندرية (القاعة الصغيرة).

الأمير عبد الحليم بك: 11 محرم 1237 (8 أكتوبر 1821) – 1245 هجرية (1829. دفن بمسجد النبى دانيال بالإسكندرية (القاعة الصغيرة).

الأمير محمد سعيد باشا: 23 جمادى الثانية 1237 هجرية (17 مارس 1822) – 27 رحب 1279 (18 يونيو 1836). توفى بالإسكندرية ودفن بمسجد النبى دانيال بالإسكندرية (القاعة الكبيرة).

الأمير حليم بك: 1238 هجرية (1823) دفن بمقبرة الإمام بالمدفن الكبير للعائلة الموقرة.

الأمير محمود بك رجب 1240 (فبراير 1925) – 1245 هجرية (1829) دفن بمقبرة الإمام بالمدفن الكبير للعائلة الموقرة.

الأمير حسين بك 1241 هجرية (1825) – 1263 هجرية (1847) وتوفى فى باريس، ودفن بمسجد النبى دانيال بالإسكندرية (القاعة الكبيرة).

الأمير عبد الحليم بك: 1241 هجرية (1826) – 1246 هجرية (1830).

الأمير على صديق بك: 16 شعبان 1243 هجرية (3 مارس 1828) – 1252 هجرية (1836). دفن بمقبرة الإمام بالمدفن الكبير للعائلة الموقرة.

الأمير محمد عبد الحليم باشا: 1247 هجرية (1831) 30 ذو القعدة 1312 (4 يونيو 1892). توفى بإسطنبول ودفن بمقبرة السلطان محمود الثانى.

الأمير محمد على باشا: 1248 هجرية (1833) 18 ذو الحجة 1277 (27 يونيو 1861). توفى بإسطنبول ودفن بمدفنه بالقرب من مسجد أبى أيوب الأنصارى.

الأمير إسكندر: 20 ذو القعدة 1248 هجرية (11 أبريل 1833) – (؟)

بنات الوالى

الأميرة توحيدة هانم: 1212 هجرية (1791) 1246 هجرية (1830)، دفنت بمسجد النبى دانيال بالإسكندرية (القاعة الكبيرة).

الأميرة نازلى هانم: 1214 هجرية (1793)- 1277 هجرية (1860)، دفنت بمسجد النبى دنيال بالإسكندرية (القاعة الكبرى)

الأميرة رقية هانم: 1255 هجرية (1810)، دفنت بمقبرة الإمام بمدفن للعائلة الموقرة.

الأميرة سلمى هانم: 1230 هجرية (1815)، دفنت فى مقبرة الإمام بمدفن العائلة الموقرة.

الأميرة زليخة هانم: 1230 هجرية (1815)، دفنت بمقبرة الإمام بمدفن العائلة الموقرة.

الأميرة زينب: ذو القعدة 1236 هجرية (أغسطس 1821)، دفنت بمقبرة الإمام بمدفن العائلة الموقرة.

الأميرة فاطمة هانم: 1237 هجرية (1822)، دفنت بمسجد النبى دانيال بالإسكندرية.

الأميرة رقية هانم: 1238 هجرية (1823)، دفنت بمقبرة الإمام بمدفن العائلة الموقرة.

الأميرة زينب هانم: 1238هجرية (1823)، دفنت بمسجد النبى دانيال بالإسكندرية (القاعة الصغيرة).

الأميرة زينب هانم: 1240 هجرية (1824) – 1245 هجرية (1829)، دفنت بمسجد النبى دانيال بالإسكندرية (القاعة الصغيرة).

الأميرة زينب هانم: 29 صفر 1241 هجرية (12 أكتوبر 1825) – 12 جمادى الثانية 1301 هجرية (9 أبريل 1894)، دفنت بمدفنها فى إسكودارى (سكوتارى) بإسطنبول.

الأميرة عائشة: 12 ربيع الأول 1244 هجرية (22 سبتمبر 1828) – 1248 هجرية (1833)، دفنت بمسجد النبى دانيال بالإسكندرية (القاعة الصغيرة).

رسالة بتاريخ 18 أغسطس 1846، من القنصل العام لفرنسا إلى معالى السيد جيزو، وزير الشئون الخارجية، بشأن رحلة إبراهيم باشا إلى فرنسا.

سيدى الوزير،

من المنتظر وصول الوالى إلى الإسكندرية فيما بين يوم 20 و25 من الشهر الجارى، وإن الجالية الفرنسية لتقوم باستعدادات عظيمة للاحتفال بعودته.

لقد سافر إبراهيم باشا يوم 12 إلى القاهرة ، ومن المتوقع عودته إلى الإسكندرية بصحبة أفراد عائلة سموه الموجودين بالقاهرة، بمجرد علمه بخبر وصول الوالى.

كما ذكرت لمعاليكم فى برقيتى الأخيرة، فلقد شرفت بالعشاء مع إبراهيم باشا بعد وصوله. لقد وددت كثيرا أن أطّلع على الانطباع الذى خلفته لديه رحلته إلى فرنسا وإنجلترا. لكن للأسف، كان المدعوون كثرًا، وكان من الصعب استمرار محادثة خاصة بيننا. ومع ذلك، فلقد أبدى لى سموه من خلال عبارات فى غاية الود، امتنانه للاستقبال شديد الحفاوة الذى أبداه له الملك والملكة والعائلة الملكية. كما قال لى: لقد استقبلت أيضا فى إنجلترا استقبالا طيبا، ولكنى لم أشعر أبدا بمثل هذا الود إلا فى فرنسا. ففى فرنسا، لم تكن الحكومة وحدها هى

التى استقبلتنى بحب، بل حيثما كنت أمر، كان الشعب يبدو وكأنه يستقبل صديقا؛ لم أشعر ولو للحظة واحدة أنى غريب فى بلدكم. إن الجميع يعرف من هو الملك، وأنا لا أجسر على أن أقول لكم رأيى فى الملك، ولو فعلت لكان صوتى واهنا أمام صوت الشعب كله عندما يقول مديحه. ولكنى لن أنسى أبدا ما شاهدته فى بلاط سموه من طيبة قلبه ودماثته مع الجميع، حتى الصغار؛ إنه يبدو وكأنه أب لكل من يمثل بين يديه؛ من المستحيل أن يكون للملك عدو فى فرنسا. لم يكن إبراهيم باشا يعرف، وهو يوجه إلىّ هذا الكلام، أن محاولة اغتيال جديدة قد وقعت للتو، وأثارت سخطا عميقا ودهشة أليمة فى شتى أنحاء فرنسا. وأضاف سموه، ملكتكم، ملكتكم! لم يكن علىّ أن أستخدم هذا التعبير، ولكنها مريم (السيدة مريم العذراء) فرنسا. لقد تكلم معى إبراهيم باشا عن كل أفراد العائلة الملكية بنفس الامتنان الغامر؛ فلم يتمالك نفسه من ملاحظة هذه الوحدة الوثيقة التى تربطهم بقوة، والتى جعلت من فرنسا موضع إعجاب وصنعت سعادتها؛ وإذا ما كان قد فكر فى نفسه ومختلف أفراد أسرته، فلقد عقد مقارنة قاسية.

سيدى الوزير، تلك إذن هى أفكار إبراهيم باشا التى ألتزم بنقلها إلى معاليكم؛ ولست فى حاجة بالطبع لأن أقول لكم ما كنت أرد به على سموه أثناء المحادثة. فأنتم بلا شك ستدركون أننى لم ألتزم الصمت، وأنا أسمع نجل محمد على وهو يتحدث بهذا القدر من الحماسة عن الملك وعائلته المبجلة. لم يفت إبراهيم باشا أيضا أن يذكر بامتنان العلاقات التى عقدها مع معاليكم وأعضاء حكومة الملك الآخرين؛ ولتسمح لى معالى الوزير ألا أردد هنا كل العبارات التى استخدمها سموه فى هذا الصدد، وإن كنت لا أتمالك نفسى من ذكر بعض عباراته: لقد قال لى إن الله عندما يعفو عن شعب ما يرسل إليه حكومة حكيمة تقدر على أن تبرئه من جراح الماضى، وقد وهب الله لفرنسا هذه الحكومة، فليحفظها الله! كما قال لى إبراهيم باشا يا سيدى الوزير إنه، وقبل أن يرحل إلى القاهرة، كتب رسالة إلى معاليكم وإلى جلالة الملك سيدى دوق دو مونبونسييه؛ وأحسب أن هذه السفينة هى التى ستحمل تلك الرسائل.

سيدى الوزير، لقد أعجب إبراهيم باشا كثيرا بإنجلترا؛ فلقد تركت رحلته إلى المدن الصناعية فى هذا البلد انطباعا قويا فى نفسه، وكيف لا، فلابد وأن حياة

الشعب الإنجليزى النابضة بالنشاط والخصوبة قد أذهلته. وهو يأسف كثيرا لأنه لم ير بعضا من صناعاتنا الكبيرة، ربما كان يود لو أنه قام برحلته إلى "ألبوف: *Elbeuf*"، و"مولوز: *Mulhouse*"، و"سيدان: *Sedan*"، كان ليتمكن حينها من أن يرى أننا أمة صناعية وعسكرية على حد سواء.

كما أن العرض العسكرى الذى نظمته له حكومة الملك فى شان دو مارس قد ترك فى نفسه ذكريات لا تنسى؛ فلقد أعجب كثيرا بجنودنا، إن كان الضباط هم الذين أثاروا حماسه الشديد؛ فلقد قال إنه مع جيش مثل هذا الجيش يمكن لأى قائد عظيم أن يجوب العالم. وفى هذا الصدد، طرح علىَ سموه سؤالا غريبا قائلا: هل تعتقد أن الجنود الذين رأيتهم فى فرنسا يشبهون جنود نابليون؛ إنهم- برأيى- يفوقونهم. ولقد أجبته بأن هذا اختبار ما وددت مطلقا أن أمر به؛ وبأن فرنسا تعد الآن وبلا شك أكثر حكمة، دون أن تكون أقل بسالة، مما كانت عليه فى عهد الإمبراطورية؛ وأن بإمكانه أن يكون واثقًا تمام الثقة أنه إذا استلزم الأمر الدفاع عن شرف فرنسا، فإن جنودنا اليوم سيبرهنون على أنهم جديرون بأن يكونوا أبناء جنود الماضى.

بايجاز، سيدى الوزير، يبدو أن رحلة إبراهيم باشا قد خلفت فى نفسه انطباعات قوية وعميقة؛ إذ لم يتعرف فى إنجلترا وفرنسا على الإبداعات الصناعية والقوة العسكرية فحسب، وهو ما لم يخامره الشك فيه من قبل، وإنما عرف أيضا أن الحكومات فى أوربا تعتبر أن واجبها الأول هو، تكريس كل جهودها من أجل سعادة الشعوب التى عهدت بها إليهم العناية الإلهية. للأسف، لقد قام بهذه الرحلة متأخرا جدا بما لا يحقق لها الجدوى التى كان يرنو إليها أصدقاء مصر؛ إذ يبدو لى صعبا فى الواقع أن تكون ذكرى هذه الزيارة قوية بما يكفى لأن تمحو بداخله كل العادات السيئة لحياته السابقة. إنه، بلا ريب، رجل نبيه وذكى؛ فقد استطاع أن يعقد مقارنة بين الناس والأشياء فى الغرب ونظرائهم فى الشرق. فعندما سألته عن الفرق الأبرز الذى لاحظه بين الشرق والغرب، أجابنى بكلمات قليلة فى عددها معبرة فى مغزاها قائلا: ما الفرق بين الميت والحى؟ ولكنى أشك كثيرا فى أنه آب من رحلته بشىء آخر غير تقدير كبير لعناصر قوة أوربا، ورغبة شديدة فى أن يستخدم- لمصلحته الخاصة- المعلومات التى تلقاها عن الإدارة والصناعة بل عن الطريقة التى ينتج بها الرجال بأسرها. ثمة أمر مؤكد،

ويسعدنى التفكير فيه، وهو أن شعب هذا البلد البائس سيطوله بعض الخير من التطويرات، التى سيدخلها إبراهيم باشا على النظام الإدارى لمصر، عندما يصبح واليا على البلاد. وإن كنت أخشى ألا يحدث ذلك إلا بطريقة غير مباشرة، لأنه لن يقوم بذلك بإرادته المباشرة.

ربما، سيدى الوزير، أكون أكثر جزما فى طريقة حكمى على رجال مصر، ولكن لطالما رأيت الأنانية المفرطة تسود كل أفعال الحكومة، لدرجة أنى يائس من أن أراها ولفترة طويلة من الآن تخوض سبلا أكثر اتساعا، وتهتم بما ينبغى أن يحظى بكل الحدب والرعاية وهو مصير الشعب المصرى. كما أننى لا أعرف إبراهيم باشا ولم أره إلا لسويعات قليلة؛ ولكنى وجدته- ويجب أن أقولها- أعظم من كل الرجال الذين التقيتهم فى الشرق، باستثناء محمد على؛ غير أن الأشخاص الذين يعرفونه منذ 25 عاما اتفقوا على أنه لا يتمتع مثل أبيه بكرم الأخلاق وطيبة القلب. ومما لا ريب فيه، سيدى الوزير، أنه أيا كانت الأفكار التى جلبها معه إبراهيم باشا من رحلته إلى أوربا فإنه سيتجنب الإفصاح عنها فى حياة أبيه، وأنه سيكتفى بتطبيق المعارف الجديدة التى تمكن من اكتسابها على تحسين مؤسساته الخاصة، وأن العالم

لن يعرف إذا ما كان لدى إبراهيم باشا الرغبة فى أن يوظف لصالح شعب مصر النماذج الطيبة والرفيعة التى تلقاها عن الإدارة والحكومة أثناء الرحلة التعليمية التى قام بها لتوّه، إلا بعد أن يرفعه موت محمد على إلى سدة حكم هذا البلد.

خالص احترامى

أ.بارو

نبذة من تعليمات محمد علىّ لابنه إبراهيم قبل رحلته إلى أوربا[1]

مرسوم إلى القائد العام بتاريخ 17 ذى القعدة 1261 (17 نوفمبر 1845)، عابدين.

تسلمت رسالة سموكم المؤرخة فى 29 شوال 1261 (30 أكتوبر 1845) التى تخطروننى فيها بأن صحتكم تتحسن يوما بعد يوم، وبأنكم تعتزمون السفر خلال خمسة وأربعين يوما إلى منتجع الحمامات الكبريتية الواقع بين فرنسا وإسبانيا؛ وقد أدخلت هذه الأخبار الطيبة السعادة إلى قلبى. وحيث إنكم تنوون زيارة باريس وإنجلترا بعد الإقامة بالحمامات، فنحن نرفق لكم تعليماتنا موجزةً فى ست نقاط لنيسر عليكم الرد بطريقة واضحة ومحددة أثناء المحادثات السياسية التى يمكن أن تتم. ستجدون مرفقا الإجابات المناسبة التى أرجو أن تقرأوها بعناية، وأن تلتزموا بها عند الحاجة. يسرنا دائما سماع الأخبار الطيبة عنكم.

حيث إنكم ستلتقون فى فرنسا بالملك والوزراء والأعيان وأنكم ستتناولون بالحديث القضايا السياسية فى

---

(1) Archives du Palais d'Abdine, register 215, no.253-254, traduites par Gaston Wiet.

مصر، عليكم إذن أن تقولوا: "إن أبى، منذ أن تولى الحكم، وهو على يقين من الاهتمام والاحترام اللذين يكنا هما الفرنسيون لشخصه ولعائلته. وإن الفرنسيين لم يألوا جهدا أبدا لمساعدة محمد على من أجل تحقيق التقدم لبلاده. وأنه لم يفوت أية فرصة دون أن يعرب عن امتنانه، ولن يكف أبدا عن توصية عائلته وبيته وأقاربه ليعربوا عن التقدير الواجب للأعمال الطيبة التى بذلها الفرنسيون لمصر. وما من شك فى أننا نلتزم بنصائح والدى للحفاظ على حب ورعاية الفرنسيين لنا.

بعد هذه المقدمة، تناولوا بالإسهاب وصف الوضع التى كانت عليه مصر فى السابق، واذكروا بالتفاصيل المجهودات المبذولة ليتم إقرار السلام والأمن بها فضلا عن إرساء الحضارة.

إذا ما تم الحديث عن مسالة قناة السويس، فلتقولوا إنه ما من صعوبة حقيقية تكتنف الوصول بهذا المشروع إلى وضع أفضل؛ غير أن الأمور المادية تمثل عائقا الآن بسبب الأعمال الكبيرة القائمة لتشييد السدود؛ وبالتالى فنحن مضطرون لتأجيل الحفر إلى وقت لاحق. ولكن، على أية حال، سيظل هذا المشروع محل اهتمامنا، وحالما

يتم الانتهاء من بناء السدود سيكون من السهل على مصر بدء أعمال الحفر.

وإذا ما سئلتم عن طلبيات إنشاء الأسطول، عليكم أن تجيبوا بالرد التالى: "كنا قد طلبنا فيما سبق بناء عدد من السفن، إلا أن الحاجة لا تستدعى فى الظروف الحالية. ونحن نأسف للتراجع عن هذه الطلبية ولأنها ستكون مجرد إنشاءات بلا جدوى".

ببليوجرافيا

Fonds d'Archives :

Archives du Ministère des Affaires Etrangères :Correspondance consulaire : Carton Alexandrie 1828-1830.

Archives du Ministère des Affaires Etrangères:Correspondance diplomatique, Egypte I, fo 312-322.

Archives du Ministère des Affaires Etrangères.Correspondance diplomatique, Egypte VIII, fo31 1-312.

Archives du Ministère des Affaires Etrangères. Correspondance politique, Egypte II, f"17-19, f°20-29, f°46-51, f°75-78, f° 99-102.

Archives du Ministère des Affaires Etrangères.Correspondance politique, Egypte VIII, f°190-194, fo216-221, f"236-240, f°299-306.

Archives du Ministère des Affaires Etrangères.Correspondance politique, Egypte IX, f°11-12, f° 57-62, f°164-169, f°199-208, f°210-212 f°218-223, f°234-235.

Archives du Ministère des Affaires Etrangères: Correspondance politique, Egypte X, f°71-74, f°90-94.

Archives du Ministère des Affaires Etrangères,Correspondance diplomatique, Egypte XI, f°43-49, f°72-74, f°111-117, f°243-248.

Archives du Ministére des Affaires Etrangères.Correspondance politique, Egypte XII, f"47-49, f° 311-313.

Archives Nationales, Marine, BB4, f" 21-22, f°1029, III.

Souvenirs, Correspondances, Témoignages, Documents et Mémoires contemporains.

About (E.), Le fellah, Paris, 1873.

Audouard (O.), Les mystères de l'Egypte dévoilée, Paris,1865.

Barthélémy et Méry, Napoléon en Egypte, Paris, 1827.

Belzoni, Voyages en Egypte et en Nubie, Paris, 1844.

Benedetti de, Méhémet Ali durant ses dernières années, revue des deux Mondes, 1895.

Cailliaud (F.), Voyage a Méroé au Fleuve Blanc au-dela de Fazoql dans le midi du royaume de Sennar a Syouah et dans cinq autres oasis, Paris, 1823-1827.

Chateaubriand (FR.), Itinéraire de Paris a Jérusalem, Paris, réédition de 1968.

Calvadène et Breuvery, L'Egypte et la Turquie, Paris, 1836.

Clot-bey, Aperçu sur l'Egypte, Paris, 1840.

Clot-bey, Mémoires, Le Caire, 1949.

Clot-bey, Histoire de Méhémet Ali, Marseille, s.d.

Du Camp (M.), Souvenirs littéraires 1822-1894, Paris, 1896.

Djabarti, Chroniques, Le Caire, 1896 (traduction).

Edmond (Ch.), Zéphirin Cazavan en Egypte, Paris, 1880.

Fortanier, Voyage dans l'Inde et dans le Golfe Persique par l'Egypte et la Mer Rouge, Paris, 1844.

Gouin (E.), L'Egypte de Méhémet Ali, Paris, 1844.

Guizot (F.), Mémoires pour saisir l'histoire de mon temps,Paris, 1858-1864.

Hamont (P.N.), L'Egypte de Méhémet Ali, Paris, 1843.

Labat, L'Egypte ancienne et moderne, Paris, 1840.

Lauvergne (H.), Souvenirs de la Grèce pendant la campagne de 1835,Paris, 1836.

L'Hôte (N.), Lettres, journaux et dessins inédits, Paris, 1993.

Linant de Bellefonds bey, Mémoires sur les principaux travaux d'Utilité Publique en Egypte, Paris, 1872-1873.

Marcel (J.J),L'Egypte de Méhémet Ali, Paris, 1848.

Mémoires de Leibnitz a Louis XIV sur la conquête de l'Egypte, Paris, 1840.

Mémoires de Nubar pacha, Beyrouth, 1981.

Merruau (P.), L'Egypte contemporaine de Méhémet Ali a Said pacha (1840-185 7), Paris,1858.

Mouriez (P.), Histoire de Méhémet Ali, Paris,1855.

Nerval (G. de), Les femmes du Caire, Paris, 1887.

Pardieu (Ch), Excursion en Orient, Paris, 1851.

Perrier (F.), La Syrie sous le Gouvernement de Méhémet Ali, Paris,1842.

Planat (J.), Histoire de la Régénération de l'Egypte, Paris,1830.

Poitou (E.), Un hiver en Egypte, Paris, 1855.

Prisse d'Avenne (P.), L 'Egypte sous la domination de Mohammed Ali, Paris, 1847.

Saint-John, Egypt and Nubia, Londres, 1845.

Scott (C. Rochefort), Rambles in Egypt and Candia, Londres,1837.

Soliman pacha, La relation de la bataille de Nézib, Paris,1840.

Uquhard (D.), Le Sultan et le Pacha, Paris, 1839.

Vaulabelle (A. de), Histoire moderne de l 'Egypte (1801-1834), Paris, 1835.

Vernibac de Saint-Maur, Voyage du Luxor en Egypte, Paris,1835.

Voilquin (S.), Souvenirs d'une fille du peuple, Paris, 1865.

Volkoff (O.), Voyageurs russes en Egypte, Le Caire, 1972.

Histoire, Histoire littéraire

Bélorgey (J .M.), Voyages, ruptures et métamorphoses des Occidentaux en quête de nouveaux mondes, Autrement, Paris,2000.

Benoit-Guyot (G.), Le voyage de l'obélisque, Paris, 1939.

Bertaut (J.), Louis-Philippe intime, Paris, s.d.

Bilici (F.), Louis XIV et son projet de conquête d'Istanbul,Ankara, 2004.

Cabra (J.), Quelques firmans concernant les relations franco-turques lors de l'expédition de Bonaparte en Egypte (1798-1799), Cahiers de la Société asiatique, 1938.

Carré (J .M.), Voyageurs et écrivains en Egypte, Le Caire,1956.

Charles-Roux (F.) Les origines de l' expédition d'Egypte, Paris,1910.

Charles-Roux (F.), Thiers et Méhémet Ali, Paris, 1951.

Charles-Roux (F.), L 'Egypte de 1807 a 1882, Paris, 1936.

Charléty (S.), Histoire du Saint simonisme (1825-1864), Paris,1931.

Cattaui (R. et G.), Mohamed-Aly et l 'Europe, Paris, 1950.

Cattaui (R.), Les archives russes en Egypte, Le Caire, 1931-1936.

Chivékiar d'Egypte, Mon pays, Paris, 1933.

Collectif, La France et l'Egypte a l'époque des vice-rois (1805-1882), Le Caire, 2002.

Dardaud (G.), L'aventure de la Girafe, Revue des Conférences en Orient, 1951.

Documentation sur le Jumel, Belfort, 1941.

Douin (G.), La Mission de Boislecomte, Le Caire, 1927.

Précis de l 'Histoire de l 'Egypte, Paris, 1933.

Douin (G.), L 'Egypte de 1802 a 1804, Le Caire, 1925.

Douin (G.), L' Angleterre et l'Egypte, la politique mamelouke (1803-1807), Le Caire, 1930.

Douin (G.), L 'Egypte de 1820 a 1830, Paris, 1935.

Douin (G.), Mohammed Aly et l'expédition d' Alger, 1828-1830, Le Caire, 1930.

Douin (G.), Histoire du khédive Ismail, Le Caire, 1933.

Driault (E.), Mohammed Aly et Napoléon (1807-1814), Le Caire, 1925.

Driault (E.), L 'Egypte et l 'Europe, La crise de 1834-1841, Le Caire, 1930.

Driault (E.), La question d'Orient, Paris, 1921.

Durand-Viel (amiral), campagnes navales de Mohammed Ali et de ses fils, Paris, 1935.

Enkiri (G.), Ibrahim pacha, Le Caire, 1948.

Fahmy (K.), All the Pascha's Men, Le Caire, 2002.

Faivre d'Arcier (A.), Les agents de Napoleon en Egypte (1801-1815), Paris, 1990.

Garreau (R.), Besson-bey, Antibes, 1949.

Hanotaux (G.), Histoire de la nation égyptienne, Paris, 1931.

Ivray (J. de), L 'aventure saint simonienne et les femmes,Paris, 1930.

Levallois (A.), Les écrits autobiographiques d'Ismayl Urbain, Paris, 2005.

Louca (A.), Voyageurs et écrivains en France au XIXéme siécle, Paris, 1970.

Mahmoud Hussein, Sur l'expédition d 'Egypte, textes de Vivant Denon et d'Abdel Rahman el Gabarti, Paris, 1998.

Mantran (R.), Histoire de l'empire ottoman, paris, 1989.

Prochasson (C.), Saint Simon, l'Anti Marx, Paris, 2005.

Raymond (A.), Egyptiens et Français au Caire au XVIIIème siècle, Le Caire, 1988.

Régnier (Ph.), Les Saint Simoniens en Egypte (1833-1851),Le Caire, 1989.

Sabry (M.), L'empire égyptien sous Mohammed Aly et la question d'Orient, Paris, 1930.

Savant (J.), Les mamelouks de Napoléon, Paris, 1949.

Tagher (J.), Mohammed Ali jugé par les Européens de son temps, Le caire, 1952.

Vingtrinier (A.), Soliman pacha, Paris, 1896.

Weygand (général), Histoire militaire de Mohammed Ali et de ses fils, Paris, 1936.

Wiet (G.), Mohammed Ali et les Beaux-Arts, Le Caire, s.d.

Vérasimos (S.), Deux Ottomans sous le Directoire et l'Empire, Paris, 1998.

Catalogues d'exposition :

De David à Delacroix, Paris, 1974.

La campagne d'Egypte, mythe et réalité, Paris, 1998.

Toutes les Egyptes, Marseille, 1998.

فهرس الأعلام

المؤلفة فى سطور:

كارولين جوتييه كورخان

تعد كارولين كورخان، باحثة متخصصة أساسا فى مجال التاريخ وتاريخ الفن، وكان لها الفضل فى تأسيس قسم التراث الثقافى بجامعة سينجور بالإسكندرية وإدارته لمدة خمسة عشر عاما. ومع هذا درست وتخصصت فى تاريخ مصر، وبخاصة فى الفترة التاريخية ما بين 1805 و1952. وهى تعمل حاليا مسئولة عن المتاحف والتراث الأفريقى بالإدارة العامة للتراث التابعة لوزارة الثقافة الفرنسية.

هذا وتدير الباحثة سلسلة كتب مخصصة للتراث الأفريقى بدار نشر "ريفنوف بباريس: *Riveneuve (Paris)*"، ألفت العديد من الكتب حول التاريخ المصرى، وتعد كتابى "أميرات مصر" و"ملحمة مصرية"، من آخر أعمالها.

المترجمة فى سطور:

نانيس حسن عبد الوهاب

- حاصلة على ليسانس ألسن قسم اللغة الفرنسية – جامعة عين شمس، بتقدير جيد جدًا مع مرتبة الشرف، عام 1994.
- حاصلة على دبلوم الترجمة الفورية من قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب بجامعة القاهرة بتقدير جيد جدًا، عام 1998.
- حاصلة على دبلوم إدارة المنظمات غير الحكومية من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، بتقدير جيد جدًا، عام 2000.
- تعمل مترجمة ببنك الاستثمار القومى منذ 1995.
- سبق لها التعاون مع المركز القومى للترجمة من خلال:

• الاشتراك فى ترجمة "**موسوعة كل المعارف**" الصادرة بالتعاون مع المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة.

• ترجمة كتاب "**دول وعولمة: إستراتيجيات وأدوار**".

- صدرت لها كتب مترجمة أخرى منها "**الاغتيالات السياسية**"، و"**أوربا الجديدة**"، و"**الطبيعة**".
- لها ترجمات أخرى فى مجال قصص الأطفال والموسوعات المبسطة.

- لها بحث بعنوان "دور المنظمات غير الحكومية فى مقاومة عمالة الأطفال: نماذج آسيوية "قُدم إلى مؤتمر" دور المنظمات غير الحكومية فى ظل العولمة: الخبرتان المصرية واليابانية" الذى نظمه مركز الدراسات الآسيوية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة – نوفمبر 2000.

المراجع فى سطور:

مجدى عبد الحافظ عبد اللـه صالح

أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة بجامعة حلوان.

حاصل على الدكتوراه فى العلوم الإنسانية (فلسفة معاصرة) من جامعة باريس 10، نانتير بفرنسا سنة 1991.

حاصل على دبلوم الدراسات العليا للجامعة (*DESU*) من جامعة باريس 8، سان دينى 1987.

حاصل على دبلوم الدراسات المتعمقة (*DEA*) فى الفلسفة المعاصرة من جامعة باريس 4، السوربون 1982.

حصل على دبلوم الجامعة المرحلة الثالثة فى الفلسفة المعاصرة من جامعة باريس 4، السوربون 1981.

حصل على ليسانس الآداب في الفلسفة من جامعة القاهرة 1976.

عمل مدرسا بجامعة باريس 4، السوربون، وفى عدد من المعاهد العلمية الفرنسية قبل أن يعمل بجامعة حلوان، كما عمل أستاذا زائرا بجامعة أميان بفرنسا.

ناقش وأشرف على العديد من الرسائل العلمية، فى مصر وفرنسا والجزائر.

عضو فى العديد من الهيئات والمؤسسات العلمية المحلية والإقليمية والدولية، وعضو مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ورئيس وحدة توثيق تاريخ ثورة 25 يناير بها.

له العديد من الكتب والترجمات والمقالات والبحوث والدراسات فى مجال الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة، والفكر العربى الحديث والمعاصر، والنقد الفنى والتاريخ.

التصحيح اللغوى: وجيـه فاروق
الإشراف الفنى: حسن كامل